الرجل الأول

الرجل الأول

ألبير مكامو

ترجمة: وسيم خويص

اسم الكتاب: الرجل الأول / رواية/.

المؤلف: ألبير كامو.

المترجم: وسيم خويص.

سنة الطباعة: 2016.

كمية الطباعة: 1000 نسخة.

الترقيم الدولي: ISBN 978-9933-22-092-1

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار عقل

و دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سورية ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: 00963 11 5627060

00963 11 5637060

تلفاكس: 00963 11 5632860

ص. ب: 259 جرمانا

www.darrislan.com

كلمة الناشر

ننشر اليوم رواية الرجل الأول، إنه العمل الأدبي الذي كان كامو يعمل عليه قبل وفاته. وقد عُثر على المخطوط داخل حقيبته في الرابع من شهر كانون الثاني عام 1960، والعمل قوامه 144 صفحة خطَّها قلمه وأحياناً دون نقاط وفواصل ، كتابتها سريعة يصعب فك رموزها ولم تتم مراجعتها.

وقد قُمنا بنشر هذا النص انطلاقاً من المخطوط وبعد طباعة أولى على الآلة الكاتبة، قامت بها فرانسين كامو. ولكي يفهم المرء القصة فقد قمنا بوضع علامات التنقيط والترقيم. فالكلمات التي يشكّ بمعناها وضعت بين قوسين، أما الكلمات أو مقاطع الجمل التي لم نتمكن من فك رموزها فقد أشرنا لها بفراغ ضمن قوسين، وفي أسفل الصفحات أشير بنجمة إلى الجُمل البديلة والحرف إلى الإضافات على الهامش، وبرقم إلى ملاحظات الناشر..

ونجد في الملحق صفحاتٍ مزدوجة «قُمنا بترقيمها من 1 إلى 5»، كانت بعضها محشورة في المخطوط (الورقة 1 قبل الفصل الرابع، والأخرى من 3 – 5 موضوعة في نهاية المخطوط)..

والكراس المعنون الرجل الأول (ملاحظات ومخططات) هو كرّاس ذو سلك صفحاته مربعاتها صغيرة، ويسمح للقارئ بتتبع التطور القصصي الذي كان يريده الكاتب لعمله..

وعندما ننهي قراءة الرجل الأول سنفهم أننا وضعنا في الملحق الرسالة التي بعثها كامو إلى معلمه. لويس جرمان غداة حصوله على جائزة نوبل، وكذلك الرسالة الأخيرة التي وجهها إليه جرمان.

نشكر جزيل الشكر في هذا المقام أوديث كرياش وروجيه غرونييه وروبير غاليمار للمساعدة التي قدموها مع أطيب تحياتنا وصداقتنا الدائمة...

كاترين كامو 1994



I

البحث عن الأب

الوسيطة: أرملة كامو..

إليكَ أنتَ يامن لن تتمكن أبداً من قراءة هذا الكتاب..

من فوق العربة التي كانت تسير على طريق مفروش بالحصى كانت غيوم ضخمة وسميكة تتجه نحو الشرق مع الغروب، وقد تجمعت قبل ذلك بثلاثة أيام، فوق المحيط الأطلسي، وانتظرت الريح الغربية ثم تحركت ببطء في البداية ولكنها أسرعت رويداً رويداً وطارت فوق المياه المتألقة في فترة الخريف هذه واتجهت بشكل مستقيم نحو اليابسة، وتنسلت مثل الخيوط على القمم المغربية الساحلية ثم تشكلت على صورة قطعان من الماشية على هضاب الجزائر العالية والآن عند اقترابها من الحدود التونسية تحاول أن تتوجه صوب البحر التيراني[لخ] لتضيع فيه.

[1] اسم جزء من البحر المتوسط بالقرب من إيطاليا – المترجم.

بعد أن قطعت آلاف الكيلو مترات فوق هذه الجزيرة المترامية الأطراف، والتي يقع البحر المائج شمالها، وأمواج البحر الثابتة جنوبها مروراً بهذا البلد الذي لا يحمل اسماً بالكاد مروراً أسرع من مرور ممالك وشعوب خلال آلاف السنين، اندفاعها كان يضعف والبعض منها سبق أن ذاب على هيئة نقاط ضخمة من المطر كان هطولها يرنّ على غطاء العربة الكتّاني فوق المسافرين الأربعة.

كانت العربة تصِّر صريراً على طريق مرسوم بعناية ولكنه بالكاد متصلب من وقت لآخر.. كانت شرارات النار تندفع من الإطارات أو من حوافر الجياد ، وحجر صوّان كان يصيب خشب العربة أو ينغرس على العكس من ذلك وبصوت مكتوم في الأرض الرخوة، وكان الجوادان الصغيران يتقدمان بصورة منتظمة ونادراً ما كانا يتعثران ولِبانِهما مشدودين إلى الأمام كي يجرّا العربة الثقيلة المحمّلة بالأثاث وينهبان الأرض نهباً دون توقف وذلك بخبب مختلف أحدهما عن الآخر.. وأحد الجوادين كان يطرد أنفاسه من منخريه أحياناً محدثاً صخباً وخببه كان فوضوياً ، أما العربي الذي كان يقود العربة، فكان يضربه

على ظهره بالقسم السفلي من اللجام البالي[1] مما يجعل الحيوان يستعيد انتظام سيره.

والرجل الجالس في المقعد الأمامي قرب الحوذي هو رجل فرنسي في العقد الثالث من العمر، كان ينظر بهيئة منطوية إلى ردفي الحصانين المتحركة تحته كانت قامته معتدلة، ويميل إلى السمنة وجهه أميل إلى الطول وجبهته عالية ومربعة الشكل أما شكل فكه الأسفل فيوحي بالحيوية وعيناه فاتحة اللون وكان يرتدي رغم برودة الفصل سترة من النسيج المحبّك لها ثلاثة أزرار وكانت مقفلة عند الياقة على موضة تلك الأيام وكان يلبس طاقية خفيفة فوق شعره القصير...

وعندما بدأ المطر يسيل على غطاء العربة فوقهم التفت إلى داخل المركبة صارخاً: «هل الأمور على ما يرام؟!...»...

وفي المقعد الثاني كانت امرأة محشورة بين المقعد الأول وأكداس من الأمتعة القديمة والأثاث، كان لباسها يدل على الفقر وترتدي شالاً طويلاً من الصوف الخشن، ابتسمت له المرأة وقالت بحركة فيها اعتذار «نعم، نعم»، وكان طفل ذو أربعة أعوام ينام بين يديها، كان وجهها سَمِحاً وشعرُ تلك المرأة

[1] متشقق من كثرة الاستخدام.

الإسبانية متموجاً وأسود اللون، وأنفها صغير ومستقيم وعيناها بنيتان ذات نظرة جميلة وحارة..

ولكن ثمة شيئاً مايثير الدهشة، إنه ليس فقط نوعاً من القناع الذي كان التعب يكتب فيه، أو ما شابه على قسمات وجهها بصورة مؤقتة، لا، بالأحرى **إنها هيئة الغياب والشرود الناعم مثل ذلك الذي يحمله بعض الأبرياء على الدوام. ولكنه هنا، يوازي جمال القسمات بعض الشيء، وإلى جانب الطيبة المدهشة في النظرات كان يمتزج أحياناً وفيض من الخوف غير المبرر أيضاً**، والذي كان ينطفئ حالاً وبراحة يدها التي أنهكها العمل، والتي تتميز بعُقَدٍ عند المفاصل كانت تربت بضربات خفيفة على ظهر زوجها، وقالت:

«ماشي الحال، ماشي الحال»..

وتوقفت حالاً ابتسامتها ونظرت من تحت مظلة العربة إلى الطريق حيث بدأت برك ماء المطر باللمعان، التفت الرجل إلى العربي الهادئ تحت عمامته ذات الأهداب الصفراء وجسده الذي أعطاه السروال الواسع والمتضيّق عند الساق نوعاً من الضخامة: «هل ما زلنا بعيدين؟!..»

ابتسم العربي بشاربيه الكثين الأبيضين: «بقي ثمانية كيلو مترات وتصل»... التفت الرجل ونظر إلى زوجته دون أن يبتسم لكنه فعل ذلك بتيقظ، وهي لم تُدِر نظرها عن الطريق، قال

الرجل: -«أعطني القيادة». « -كما تريد»، ردّ العربي، فسلمه المقود، وأخذ الرجل مكانه متجاوزاً إياه، بينما العربي العجوز انسل من تحته إلى المكان الذي تركه، وبضربتين من اللجام امتلك الرجل زمام الحصانين اللذين انتظما خبباً وانطلقا معاً باتجاه مستقيم..

قال العربي: -«أنت تعرف الخيل؟!».. وجاء الجواب مختصراً.. ودون أن يبتسم الرجل: «نعم..»

كان ضوء النهار يرحل وبسرعة حلّ الليل، وسحب العربي القنديل المربع على جانبه الأيسر، ومستديراً نحو داخل العربة، استهلك العديد من أعواد الثقاب الكبيرة، حتى يشعل الشمعة الموجودة داخله، ثم وضع القنديل مكانه، وكان المطر ينهمر ناعماً ومنتظماً ويلمع على ضوء المصباح الخفيف، وكان يملأ حوله العتمة بضجة ناعمة. ومن وقت لآخر كانت العربة تحاذي شجيرات شوكية، وأشجار قصيرة يقع عليها الضوء الخافت خلال بضع ثوانٍ. ولكن فيما تبقى من الوقت كانت تسير في مساحة خالية تجعلها الظلمة أكثر اتساعاً، كانت رائحة الأعشاب المحروقة وحدها أو رائحة السماد النفاذة التي تلفحهم فجأة تجعلهم يفكرون بأنهم يجتازون أحياناً أراضٍ مزروعة، تحدثت المرأة وراء السائق الذي أبطأ قليلاً حركة الجياد وانحنى إلى الخلف « -لا يوجد أحد».. كررت المرأة..

- هل أنت خائفة؟! – ماذا؟!.. كرر الرجل جملته، ولكنه زعق هذه المرة..

- « - لا ، لا ، ليس وأنا معك»..

ولكن كان يبدو عليها القلق..

- «هل أنت متألمة؟!.. » قال الرجل: - قليلاً..

حثّ جياده وملأت جلبة دواليب العربة التي تسحق الأثلام وضجة الحوافر الثمانية التي تضرب الطريق ملأت سكون الليل من جديد..

- لقد كان ذلك في ليلة خريفية عام 1913، وكان المسافرون قد رحلوا قبل ساعتين من محطة قطار بون حيث كانوا قد وصلوا من مدينة الجزائر، بعد نهار وليلة من السفر المضني، على مقاعد الدرجة الثالثة، ووجدوا في محطة الركاب العربة، والعربي بانتظارهم حتى يصطحبوهم إلى المزرعة الواقعة قرب قرية على بعد عشرين كيلو متراً داخل الأراضي حيث كان على الرجل أن يتولى وكالتها...

وكان يلزمهم وقتاً من أجل تحميل الأمتعة وبعض الأغراض، ثم أن الحالة السيئة للطريق زاد في تأخيرهم..

وبما أن العربي لاحظ قلق رفيق السفر، قال له: «لا تَخَفْ، ليس هنالك عصابات في هذا المكان»..

- «هناك الكثير منهم في كل مكان». قال الرجل.

- «ولكن لدي ما يلزم.. ». وضرب على جيبه الضيّق.

- « - معك حق – قال العربي – هنالك دوماً مجانين».

وفي هذه اللحظة نادت المرأة زوجها..

- «هنري، هذا مؤلم».

سب الرجل وشتم واستحث جياده أكثر.

- «هاقد وصلنا.. ». قال، ونظر إلى زوجته هنيهه.. « -هل مازلت تتألمين؟؟!» ، ابتسمت له وهي شاردة شروداً غريباً، ودون أن يبدو أنها متألمة:

- «نعم كثيراً...»

كان ينظر إليها بالجدية نفسها ثم اعتذرت مجدداً.

- «لا عليك قد يكون ذلك بسبب القطار»..

- «انظر، قال العربي، إنها القرية»...

ولاحظوا على يسار الطريق على مسافة أبعد في الواقع أضواء **سولفيرينو**[1] الضبابية بسبب هطول المطر.

- «عليك أن تسير في الطريق جهة اليمين»، قال العربي.

تردد الرجل، والتفت إلى زوجته، وسألها:

- « هل نذهب إلى المنزل أم إلى القرية..».

- «آه، إلى المنزل، هذا أفضل..».

---

[1] - فارغة فـــي الأصل -

وبعد مسافة قصيرة، استدارت العربة يميناً باتجاه المنزل المجهول الذي ينتظرهم..

- «بقي كيلو متر واحد»، قال العربي.

- «ها نحن نصل..».، قال الرجل ذلك، وهو يدير وجهه إلى زوجته.

كان منطوية على نفسها ووجهها بين ذراعيها..

- «لوسي»، ناداها الرجل.. لم تكن تتحرك، ولمسها الرجل بيده، كانت تبكي بسكون، صرخ مفصّلاً مقاطع كلماته:

- « سوف تلدين، سأذهب لأحضر الطبيب..».

- «نعم، أحضر الطبيب، أعتقد أنني سوف ألد...».

نظر العربي إليهما، وهو مندهش، فقال الرجل:

- «سوف تضع مولوداً، هل هناك طبيب في القرية؟!..».

- «نعم، سأحضره إن أردت ذلك..».

- «لا، ابق في المنزل، وانتبه لها، أنا أسرع، هل لديه عربة أم حصان؟!..».

- «عنده عربة».

ثم قال العربي للمرأة:

- «ستضعين ولداً، عسى أن يكون جميلاً».

ابتسمت المرأة دون أن يبدو عليها أنها فهمت كلامه.

- «إنها لا تسمعك، في المنزل سوف تصرخ بقوة، وتقوم أنتَ بإشاراتك».

قال الرجل.

سارت العربة فجأة دون ضجة تقريباً، والطريق الذي أصبح ضيقاً كان مغطىً بنوع من الحجر المسامي، وكانت العربة تحاذي مبانٍ غُطيت بالقرميد، وخلفها كانت تظهر الصفوف الأولى لحقول العنب، وهبت عليهم رائحة مطبوخ العنب، وتجاوزوا مبانٍ أخرى ضخمة أسطحها عالية بينما دواليب العربة تَسْحَنُ خَبَثَ الحديد الذي كان يغطي ما يمكن تسميته باحة ليس فيها أشجار.

وأخذ العربي اللجام دون أن يتحدث حتى يوقف المسير، فتوقف الحصانان وأخذ أحدهما يُحمحم، وأشار العربي بيده إلى منزل مطلي بالكلس...

كانت دالية صغيرة متسلقة قد زيّنت ما حول الباب الواطئ حيث كانت أطرافه ضاربة إلى الزرقة لأنها معالجة بمادة الكبريت، قفز الرجل إلى الأرض، وركض تحت المطر ناحية المنزل، وفتح الباب الذي كان يؤدي إلى حجرة معتمة تفوح منها رائحة موقد فارغ أما العربي الذي كان يتبعه فمشى على مسار مستقيم في العتمة متجهاً نحو الموقد، وأشعل ثقاباً ليضيء مصباحاً بتروليا معلّقاً وسط الحجرة، فوق طاولة مستديرة، وأخذ الرجل وقته

بالكاد ليتعرَّف إلى المطبخ المطلي بالكلس والذي يحوي حوضاً بلاطه أحمر اللون وخزانة رفوف ورزنامة مبللة على الحائط، وكان درج تغطيه البلاطات الحمراء ذاتها يقود إلى الطابق الأعلى.

- «أوقد النار..».، قال الرجل ثم استدار ناحية العربة (أخذ الولد الصغير؟!)، كانت المرأة تنتظر دون أن تنبس ببنت شفة.

أخذها بين ذراعيه ليضعها على الأرض، واحتفظ بها لحظة بين ذراعيه، وأجلسَ وجهها:

- « - هل تستطيعين المشي ».

- «نعم». قالت له. ولمست ذراعه بيدها ذات العُقَدْ. ثم اقتادها باتجاه المنزل.

- «انتظري».، قال لها، كان العربي قد أوقد النار وملأ الموقد بأغصان من الكرمة، وذلك بحركات دقيقة، وماهرة..

وقفت المرأة قرب الطاولة، ويداها على بطنها ووجهها الجميل المتجه نحو الضوء كانت تتخلله الآن تموجات قصيرة من الألم..

ولم يبدُ أنها لاحظت لا الرطوبة ولا رائحة منزل مهجور وبائس..

كان الرجل مشغولاً في الغُرف العليا ثم ظهر في أعلى الدرج...

- «ألا يوجد موقد في الغرفة؟!»

أجاب العربي : - «لا».

- «ولا في الغرفة الثانية أيضاً، تعال»... قال الرجل..

وانضمَّ العربي إليه ثم شوهد يظهر ظهره حاملاً فراشاً أمسكه الرجل من الناحية الثانية ووضعاه قرب الموقد. سحب الرجل الطاولة إلى الزاوية بينما صعد العربي ثانية إلى الطابق الثاني وعاد سريعاً بوسادة وأغطية..

- «نامي هنا..»، قال الرجل لزوجته، ثم قادها إلى الفراش، وكانت مترددة، وكان يمكن الآن أن يشمّ المرء رائحة شعر الحصان الرطب المنبعث من الفراش..

- «لا أستطيع نزع ثيابي»، قالت ذلك وهي تجيل الطرف حولها بخوف وكأنها كانت تستكشف أخيراً هذا المكان..

- «انزعي لباسك التحتي»... قال الرجل ثم كرّر: « - انزعي ملابسك الداخلية».. ثم قال للعربي: « - شكراً لك، فُكَّ أحد الجوادين سأمتطيه إلى القرية»

خرج العربي وانهمكت المرأة وظهرها ناحية زوجها وهو كان يدير ظهره أيضاً، ثم تمددت وما أن تمددت حتى سحبت الأغطية إليها، صرخت لمرة واحدة وطويلة بملء فمها كما لو أنها كانت تريد التخلّص فجأة من كل الصرخات التي كدّسها، الألم فيها، والرجل الواقف قرب الفراش تركها تصرخ ثم عندما صمتت كان انكشف الغطاء عنها، وضع ركبته على الأرض، وقبل الجبين الجميل فوق عينين مغمضتين، ثم غطى نفسه، وخرج تحت المطر.

كان الحصان الذي حُلَّ من العربة يدور حول نفسه وقائمتاه الأماميتان مغروستين في خَبَثِ الحديد...

- «سوف أبحث عن سرج.. ». قال العربي.

- «لا ، دع عليه اللجام، سوف أمتطيه كما هو.. أَدخِل الأمتعة والأغراض إلى المطبخ، هل عندك زوجة؟!».

- «لقد ماتت، كانت طاعنة في السن».

- «هل عندك ابنة؟!».

- «لا من فضل الله، ولكن عندي زوجة ابني..».

- «قل لها أن تأتي..».

- «سأفعل ذلك، اذهب بأمان الله»...

نظر الرجل إلى العربي العجوز الساكن تحت المطر الخفيف، والذي كان يبتسم بشاربيه المبللين، وهو لم يكن يبتسم أبداً ، ولكنه كان ينظر إليه بعينيه الفاتحتين، والمتيقظتين، ثم مدَّ العربي يده إليه فأخذها بأطراف أصابعه ورفعها بعد ذلك إلى فمه. واستدار الرجل مما جعل خبث الحديد يصرّ تحته ومشى نحو حصانه غير المسرج فقفز على ظهره، وابتعد بخببّ متثاقل.. وعند الخروج من المُلكية أخذ الرجل جهة التقاطع حيث لاحظوا عنده وللمرة الأولى أضواء القرية وكانت تلمع الآن لمعاناً أكثر حدّة فقد توقف هطول المطر، والطريق الذي على اليمين ويصل إليها كان قد خُطَّ باستقامة بين حقول الكرمة حيث تظهر

لامعة فـي بعض الأحيان أجزاء من الخط الحديدي. وفـي منتصف الطريق تقريباً أبطأ الحصان خطاه من تلقاء نفسه، واقترب مما يمكن تسميته كوخ مستطيل حيث يُشكّل قسمٌ منه غرفة كانت مبنية والقسم الآخر والأكبر منه مبني من الألواح ذو إفريز كبير منخفض على نوع من طاولة بارزة، وعلى الباب الموجود فـي القسم المبني يمكن أن نقرأ العبارة التالية: «مطعم زراعي – مدام جاك»..

وكان الضوء يتسرب تحت الباب فأوقف الرجل حصانه بالقرب من الباب وطرق دون أن يترجّل وفـي الحال جاءه من الداخل صوت له رنة وفيه حزم:

- «من الطارق»...

- «أنا الوكيل الجديد لمُلكية سان أبوتر، زوجتي تَلِدْ، وأنا بحاجة للمساعدة...»، ولكن لم يأتِهِ أي جواب، وبعد هنيهه سُحبت المزالج والعوارض وفُتح الباب، ويلاحظ المرء الرأس الأسود ذا الشعر المجعّد لامرأة أوربية خدودها ممتلئة وأنفها أفطس قليلاً فوق شفاه غليظة.

- «اسمي هنري كورمري هل يمكنك الذهاب إلى زوجتي؟! سأقوم بإحضار الطبيب».

كانت تنظر إليه بثبات وبعين اعتادت أن تثقل على الرجال والخصوم، أما هو فقد تحمّل وزر نظرتها بحزم دون أن يضيف أية كلمة للشرح..

- «سأذهب إليها، ولكن اذهب بسرعة».، قالت له..

شكرها ثم همز الحصان بعقبيه. وبعد ذلك كان على تخوم القرية بعد أن مرَّ على نوع من الأسوار المصنوعة من الطين المجفف، وكان طريق وحيد على ما يبدو يمتد أمامه يحدّه بيوت لا طوابق لها متشابهة جميعها هذه الطريق التي مشى فيها قادته إلى باحة صغيرة تغطيها حجارة مسامية وفيها ترتفع منصّة لفرقة موسيقية وهو أمر غير متوقع..

وكانت الباحة الطريق خالية تماماً، وكان كورمري يمشي نحو بيت من هذه البيوت عندما جَفِلَ الحصان، ظهر عربي من العتمة يرتدي بُرنساً داكناً وممزقاً ويمشي نحوه..

- «بيت الدكتور؟!»... سأل كورمري على الفور، تفحص الرجل الفارس وقال: «تعال..»، وعادا في الطريق نفسه، ولكن باتجاه معاكس...

- «وعلى أحد البيوت التي تحتوي طابقاً أرضياً مرتفعاً يصل المرء إليه بسُلّم طُلي با لكلس يمكن قراءة عبارة: «حرية، عدالة، أخوة.. ».، كانت تحدّه حديقة صغيرة محاطة بأسوار مملطة، وفي عمق الحديقة يوجد منزل، أشار إليه العربي قائلاً:

- «هاهو... »،. قفز كورمري عن ظهر الحصان، وبخطىً لا يعتريها التعب، اجتاز الحديقة التي لم يرَ فيها وفي الوسط تماماً إلاَّ نخلة قزمة، ذات سعف جاف، وساقٍ عفنة.. طرق الباب، لكنَّ أحداً لم يُجِبْ[1].

واستدار ، كان العربي ينتظرُ صامتاً، وطرق الرجل الباب مجدداً ، وسمعتْ أصوات خُطىً من الناحية الثانية، وتوقفت خلف الباب، ولكن الباب لم يُفتح، طرق كورمري مرة جديدة، وقال:

- «أنا أبحث عن الطبيب»، في الحال سحبت المزالج وفُتح الباب، ظهر رجل وجهه فَتِي، ونضر، ولكن شعره أبيض تقريباً، وقامته عالية وقوية، وساقاه ملفوفتان بطماق[2]، ويرتدي نوعاً من سترة الصيد..

- « - عجباً، من أين خرجت؟! (قال ذلك مبتسماً) لم يسبق لي أن رأيتك».وشرح الرجل قائلاً: - «آه، نعم، العمدة أخبرني، ولكن قل لي أليس هذا بلد غريب للمجيء إليه، والولادة فيه؟!..»

---

[1] حاربتُ ضد المغاربة (بنظرة مستغربة) المغاربة ليسوا طيبين..

[2] كساء للساق من جلد أو قماش، المترجم..

وقال الرجل الآخر: «إنَّه كان ينتظر حدوث الولادة في وقت لاحق، ولكن يبدو أ نه قد أخطأ الحساب..»..

- «حسناً، هذا يحصل مع أي كان، هيا بنا، سأسرج ما تادور وألحق بك..».

وفي منتصف طريق العودة، تحت المطر، الذي عاد للهطول، لحق الطبيب الذي امتطى جواداً رمادياً، ذو بقع بكورمري، وكان يجلس مستقيماً على جواده الثقيل:

- «وصول طريف». صرخ الدكتور.. - «ولكن سوف ترى أن البلد له حسناته، باستثناء الناموس، وعصابات المنطقة». وكان يسير جنباً إلى جنب على مستوى رفيقه..

- «لاحظ فيما يخص الناموس، فأنت على ما يرام حتى الربيع، أما بالنسبة للعصابات...». كان يضحك لكن الآخر استمر في تقدمه دون أن يقول كلمة واحدة..

نظر الطبيب إليه نظرة فضولية قائلاً:

- «لا تخشَّ شيئاً سيتم كل شيء على أحسن ما يرام...».

التفت كورمري بعينيه الفاتحتين نحو الطبيب ورمقه بهدوء وقال بلهجة تشوبها المودة:

- «لست خائفاً، أنا معتاد على الضربات القاسية».

- «هل هو ولدك الأول..؟!..».

- «لا، تركت ولداً عمره أربع سنوات في الجزائر عند حماتي» [1].

كانا قد وصلا إلى المفترق وأخذا الطريق الذي يقود إلى المزرعة وبدأ خبث الحديد الذي يفرش الطريق يطير تحت وقع حوافر الجياد، وعندما توقفت الجياد، وران الصمت، سمعت صرخة مدوية آتية من المنزل، وضع الرجلان أقدامهم على الأرض، كانت العتمة تحت الدالية التي تقطر من ماء المطر بانتظارهما، ولدى اقترابهما تعرّفا إلى العربي العجوز المقلنس بكيس على الرأس..

- «طاب يومك يا قدّور، عسّى الأمور على ما يرام؟!».، قال الطبيب...

- «لا أعرف، خاصة أني لم أدخل إلى النساء في المنزل»، قال العجوز.

- «مبدأ جيد، (قال الطبيب)، خاصة إذا كانت النساء تصيح».

ولكن لم تأتِ أية صرخة بعد ذلك من الداخل..

فتح الطبيب الباب ودخل، وكان كورمري يتبعه، وكانت نار كبيرة وقودها غصون الكرمة، تشتعل أمامهما في الموقد،

---

[1] هذا الأمر يتناقض مع ما ورد سابقاً: «كان طفل صغير ينام فـي حضنها»..

وتضيء بنورها الغرفة، أكثر مما تفعلها إضاءة المصباح البترولي، المُحاط بإطار من النحاس والخرز، والذي كان متدلياً من منتصف السقف، وعلى يمينهما كان الحوض قد غُطي فجأة بأباريق معدنية ومناشف، وعلى اليسار خزانة صغيرة متخلخلة من الخشب الأبيض، والطاولة الوسطى كانت قد حُرِّكت من مكانها، وعليها يوجد حقيبة سفر عتيقة وورق مقوى للقبّعات ورزم أخرى..

في كل زوايا الغرفة كانت الأمتعة القديمة، ومنها متاع من القصب، تشغل كل الزوايا ولا تترك إلاَّ حيّزاً فارغاً وسط الحجرة وفي هذا المكان ، وعلى الفراش الموضوع بصورة عامودية بالنسبة للموقد كانت المرأة متمددة، كان وجهها منقلباً على وسادة دون غطاء، وشعرها كان مفروداً. أما الأغطية فلم تعد تغطي إلاَّ نصف الفراش. وعلى يسار الفراش كانت صاحبة المطعم تجلس على ركبتيها وتخفي جزءاً من الفراش المنكشف، كانت تعصر فوق طشت منشفة يقطر منها ماءً ضارب إلى الحمرة، وعلى اليمين، تجلس امرأة عربية متربعة على الأرض، **وغير منقبة**، تحمل بين يديها ، وفيما يشبه مشهد القربان، طشتاً ثانياً من الميناء المطلي والمقشّر حيث يخرج منه بخار الماء الساخن.

وكانت المرأتان تقفان على جانبي غطاء مطوي، يمرّ من تحت المرأة المريضة. وكانت الظلال ونيران الموقد تصعد وتنزل على الجدران المطلية بالكلس، وكانت الطرود التي تملأ الغرفة، وأكثر قرباً أيضاً تضرب إلى الاحمرار على وجهي الحارستين وعلى جسد المريضة المندس تحت الأغطية.

وعندما دخل الرجلان نظرت المرأة العربية إليهما، وضحكت ضحكة صغيرة، ثم استدارت نحو النار، وبذراعيها النحيلتان والبنيتان، كانت وماتزال تحمل الطشت، أما صاحبة المطعم فنظرت إليهما وهتفت فرحاً:

- «لم نعد نحتاج إليك دكتور، فقد تم الأمر من تلقاء ذاته»..

نهضت، ورأى الرجلان قرب المريضة شيئاً ليس له شكل محدّد، وهو مدمّى له حركة بسيطة، ويخرج منه صوت مستمر، يشبه صريراً، يخرج من باطن الأرض، وبالكاد يمكن إدراكه.

- «هذا ما يبدو لي، أتمنى أنكنَّ لم تمسسن الحبل السري». قال الدكتور

- «لا، قالت المرأة الأخرى، وهي تضحك، يجب أن نترك لك شيئاً ما..».

نهضت، وتركت مكانها للطبيب، الذي أخفى بجسده مجدداً الرضيع عن عيون كورمري الذي لبث عند الباب، وكان حاسر

الرأس، جلس الطبيب القرفصاء، وفتح حقيبته، ثم أخذ الطشت من يد المرأة العربية التي انسحبت حالاً خارج نطاق الإضاءة، ولجأت إلى ركن مظلم..

غسل الطبيب يديه، وظهره كان دوماً باتجاه الباب، ثم سكب على يديه محلولاً كحولياً تفوح منه رائحة الثقالة، التي ملأت حالاً برائحتها جو الغرفة، وفي هذه اللحظة أجلست المريضة رأسها ، ورأت زوجها، وارتسمت على الوجه الجميل التعب ابتسامة رائعة، تقدم كورمري إلى الفراش:

- « ها قد أتى»... قالت له مع خروج الزفير، وقرّبت يدها من الطفل: - «نعم، ولكن ابقي هادئة.. » قال الطبيب. ونظرت المرأة إليه نظرة مستفهمة. أما كورمري الواقف أسفل الفراش، فقد أشار لها إشارة مهدئة: «لا تمددي»، وتركت نفسها تعود إلى الخلف، ضاعف المطر هطوله في هذه اللحظة على الأسطح القرميدية العتيقة. وانهمك الطبيب بعمله تحت الأغطية، ثم استقام وبدا وكأنه قد حرَّك شيئاً ما، أمامه. وسمع صوت صرخة.. « - إنَّه صبي، ويا له من جميل»، قال الدكتور..

- «هو أمر جيد أن يبدأ المرء هكذا مع عملية انتقاله.. ».

قالت صا حبة المطعم. أما المرأة العربية فقد ضحكت وضربت كفيها مرتين، نظر كورمري إليها فاستدارت وهي مضطربة.

- «حسناً، دعونا لحظة الآن». قال الطبيب..

نظر كورمري إلى زوجته ولكن كان وجهها منقلب دوماً إلى الخلف، وحدها كانت يداها المسترخية على الأغطية الخشنة مازالت تذكّر بالابتسامة التي ملأت المكان منذ حين، وارتسمت في هذه الحجرة البائسة. وضع قبعته واتجه نحو الباب..

- «ماذا ستسميه؟!». صرخت صاحبة المطعم..

- «لا أعلم، نحن لم نفكر في ذلك ».، وكان ينظر إليه.

- «نحن سنسميه جاك بما أنك هنا». انفجر الآخر ضاحكاً، وخرج كورمري، وتحت الدالية كان العربي مقلنساً بكيسه وينتظر، نظر إلى كورمري الذي لم يقل له شيئاً..

- «خذ.». قال العربي، ومدَّ إليه بجزء من كيسه. واحتمى كورمري به..

وكان يشمّ رائحة كتف العربي العجوز الذي تفوح رائحة التبغ من ملابسه، وكذلك رائحة المطر الذي يهطل على الكيس فوق رؤوس الاثنين...

- «إنّه صبي». وقال ذلك دون النظر إلى رفيقه.

- «الحمد لله»، أجاب العربي، أنت زعيم، ردّ العربي..

كان المطر الآتي من آلاف الكيلو مترات، يهطل دون انقطاع أمامهما على خبث الحديد الذي حفرته العديد من البرك الصغيرة، ويهطل كذلك على حقول الكرمة وخط الحديد

الذي كان يلمع دوماً جراء قطرات المطر. المطر قد لا يصل إلى البحر شرقاً، وهو الآن سوف يفيض في كل أنحاء البلاد. في الأراضي التي تتميز بالمستنقعات قرب الأنهار، وفي الجبال المحيطة، والأراضي الشاسعة المقفرة، والتي بدأت رائحتها تعود ثانية، وتلفّ الرجلين الملتصقين تحت الكيس نفسه، بينما تشق صرخة خفيفة وبتواتر معين فضاء المكان خلفهما.

وفي وقت متأخر من الليل، كان كورمري متمدداً جانب زوجته على فراشٍ ثانٍ، وكان يرتدي سروالاً داخلياً طويلاً ، وكنزة صوفية. كان ينظر إلى اللهب المتراقص على السقف. وكانت الحجرة الآن شبه مرتبة. وفي الجهة الثانية من المرأة وفي سلة ملابس، كان الطفل يستريح، دون ضجة، عدا قرقرة ضعيفة أحياناً، كانت زوجته تنام أيضاً، ووجهها ناحيته ، وفمها مفتوح قليلاً..

لقد توقف المطر، وفي اليوم التالي، يجب أن يبدأ العمل، وبالقرب منه يد زوجته التي استهلكت بالعمل أيضاً، كانت تحدثه كذلك عن هذا العمل، قرّب يده منها، ووضعها على يد المرأة المريضة، وانقلب إلى الخلف مغمضاً عينيه..

سان بريوك[1]

بعد أربعين سنة[2]، كان هناك رجل في ممشى قطار سان بريوك ينظر بهيئة مستهجنة تحت شمس شاحبة لعصر يوم ربيعي إلى توالي مرور مناظر هذه المنطقة المنبسطة تحت ناظريه والتي تغطيها القرى والمنازل القبيحة وتمتد هذه المنطقة من باريس إلى بحر المانش.

كانت تتوالى أمام عينيه المروج والحقول في أراضٍ مزروعة حتى آخر متر فيها وذلك منذ قرون خَلَتْ.

كان حاسر الرأس حليق الشعر، وجهه متطاول ناعم القسمات، قامته طويلة، ونظره ثاقب بعينين زرقاوين، وكان الرجل رغم كونه في الأربعين من العمر يبدو نحيفاً وهو يلبس معطفه الواقي من المطر، وكانت يداه تستندان بثبات على حاجز الاتكاء وجسدهُ مستنداً إلى جهة واحدة، أما الصدر فكان بارزاً يعطي انطباعاً باليُسر والحيوية، كان القطار يخفف من سرعته في تلك اللحظات وانتهى بالتوقف في محطة صغيرة

[1] سان بريوك: مدينة فرنسية تقع في بريتاني شمال غرب فرنسا.

[2] منذ البداية يتوجب ملاحظة غلبة الطبع الريفي على شخصية جاك.

تدعو للرثاء، وبعد هنيهة مرت امرأة على قدر كاف من الأناقة أمام الباب الذي وقف الرجل عنده.

توقفت المرأة حتى تنقل حقيبتها من يدٍ إلى أخرى، وفي تلك اللحظة لمحت ذلك المسافر، وهذا الأخير كان ينظر إليها، وهو يبتسم ولم تستطع هي نفسها أن تمتنع عن الابتسام، وأنزل الرجل الواجهة الزجاجية لكن القطار تابع سيره... «خسارة».. — قال لنفسه، وكانت المرأة الشابة لا تزال تبتسم له..

ذهب المسافر ليجلس في مقصورة الدرجة الثالثة حيث كان يشغل مقعداً بجانب النافذة وقبالته رجل ذو شعر قليل ملتصق أقل عمراً مما يوحي به وجهه الممتلئ والمنمش، كان متكوماً على نفسه وعيناه مغمضتان يتنفس بقوة منزعجاً بصورة واضحة من عسر هضم ما..

وكان يصبّ من وقت لآخر نظرات سريعة[لخ] اتجاه من يجلس مقابله وعلى المقعد ذاته، قرب الممشى، كانت فلاحة مرتدية أجمل ثيابها ، وتلبس قبعة متميزة يزينها عنقود عنب من الشمع، كانت تُمخطّ ولداً أصهب اللون ذو وجه شاحب باهت. زالت ابتسامة المسافر، وأخرج من جيبه مجلة قرأ فيها، بشرود مقالاً جعله يتثاءب..

1

وبعد ذلك بقليل توقف القطار ببطء، وكتبت على الباب لافتة تحمل عبارة «سان بريوك». وحالاً وقف المسافر ورفع دون جهد حقيبة من حاملة الأمتعة فوقه، وبعد أن حيّا رفاق السفر الذين ردّوا التحية باستغراب، خرج بخطىً سريعة ونزل درجات العربة الثلاث.

وعلى الرصيف، نظر إلى يده اليسرى التي كانت وسخة من هُباب الدخان الذي تراكم على الدرابزين النحاسي الذي لامسه، فأخرج منديلاً ومسح يده بعناية ثم اتجه نحو باب الخروج حيث تجمعت شيئاً فشيئاً ثلة من المسافرين بثيابهم الداكنة وألوان بشرتهم المختلفة، انتظر بصبر وأناة تحت مظلة تحملها أعمدة صغيرة لحظة إعطائه تذكرته وانتظر كذلك، أن يعيد له الموظف الصامت تذكرته إليه، واجتاز صالة الانتظار ذات الجدران العالية، والوسخة والمزينة بملصقات قديمة فقد تمثل الشاطئ اللازوردي حيث إن هذا الشاطئ نفسه قد أخذ شيئاً من لون هباب الدخان. نزل بسرعة وبخطىً رشيقة إلى نور الشارع الذي مالت ظلاله في فترة مابعد الظهر، ذلك الشارع الذي كان ينزل من المحطة نحو المدينة..

وفي الفندق طلب الغرفة التي كان حجزها ورفض خدمات امرأة الفندق التي لها هيئة حبة البطاطا، تلك المرأة التي أرادت حمل أمتعته وأعطاها رغم ذلك بعد أن أرشدته إلى غرفته

إكرامية أذهلتها هي نفسها، وجعلت على وجهها علائم المودّة. ثم غسل يديه من جديد ونزل بالخطوة الرشيقة ذاتها دون إقفال الغرفة بالمفتاح وفي الصالة رأى امرأة الفندق وسألها عن مكان المقبرة فتلقى فائضاً من الشروحات التي استمع إليها بمودة، ثمّ اتجه إلى الناحية التي دلته إليها. كان يجتاز الآن شوارع ضيقة وحزينة تحدّها بيوت عادية ذات قرميد أحمر بشع وأحياناً منازل قديمة ذات عوارض بارزة تُظهر ألواح الأردواز المائلة. ولم يكن المارَّة القلائل يتوقفون حتى أمام الواجهات التي تعرض بضائع من الزجاج وتحفاً من البلاستيك والنايلون والخزف المشؤوم الذي يجده المرء في كل مدن الغرب الحديث، وحدها مخازن الأغذية تبدو عليها علائم المغنى، كانت المقبرة محاطة بجدران عالية منفرة، وعلى مقربة من بابها تعرض الزهور الفقيرة وهناك دكاكين لتجارة ا لرخام. توقف المسافر أمام إحداها ليشاهد طفلاً ذو هيئة متيقظة يكتب فروضه المدرسية في زاوية على إحدى الشواهد الحجرية حديثة الكتابة..

ثم دخل واتجه إلى منزل الحارس الذي لم يكن موجوداً..

انتظر المسافر في المكتب الصغير قليل الأثاث ثم لمح مخططاً كان على وشك فك رموزه عندما دخل الحارس...

كان رجلاً له أنف قوي وتفوح رائحة العرق من تحت سترته الخشنة المرفوعة قليلاً.. سأل المسافر عن مربع موتي حرب عام

1914. «نعم» ، أجاب الآخر، هذا اسمه مربع الذكرى الفرنسية عن أي اسم تبحث؟!... - هنري كورمري - أجاب المسافر... فتح الحارس كتاباً مغلفاً بورق للتغليف وتتبع بإصبعه الملوث بالتراب جدولاً للأسماء توقفت إصبعه «كورمري هنري، قال، جُرح جرحاً قاتلاً في معركة مارن، مات في سان بريوك في الحادي عشر من تشرين الأول عام 1914 «ها هو»، قال المسافر. أغلق الحارس الكتاب. «تعال» قال له. ثم تبعه نحو الصف الأول من القبور بعضها متواضع وبعضها الآخر متكلّف وبشع. كلّها مغطاة بسقط متاع رخامي وخرز يمكنه أن يشوّه أي مكان في العالم»..

«هل هو قريبك؟!..».. سأل الحارس بهيئة شاردة.

- «إنَّه أبي.. هذا قاسٍ».، قال الآخر: - «لا لم يكن عمري سنة عندما توفي. إذاً أن تفهمني »، - « نعم»..، قال الحارس، -«لا يمنع، لقد كان هناك الكثير من الموتى».... لم يُجب جاك كورمري. - «أجل لقد كان هناك الكثير من الموتى» ، ولكن بالنسبة لوالده لا يمكنه أن يخترع رأفة لم تكن موجودة لديه.. وخلال السنوات التي عاشها في فرنسا وعد نفسه بأن يفعل ما طلبت منه والدته طويلاً أن يفعله، أمه التي بقيت في الجزائر، أي الذهاب لرؤية قبر والده الذي لم تره أبداً هي نفسها. كان يرى أن هذه الزيارة لا معنى لها بالنسبة له أولاً هو

الذي لم يكن قد رأى والده، كان يجهل تقريباً كل ماكان عليه، وكان لديه رعب من الحركات والخطوات التقليدية. وبالنسبة لوالدته بعد ذلك، والتي لم تكن تتحدث مطلقاً عن الفقيد، ولم تكن تتخيل ما كانت سوف تراه، ولكن بما أن معلمه القديم كان قد تقاعد ليعيش في سان بريوك، ووجد بذلك فرصة لرؤيته مجدداً قرر أن يقوم بزيارة هذا الميت المجهول، وأصرّ أن يفعل ذلك. قبل لقاء صديقه القديم حتى يشعر بعد ذلك أنه حرّ. - «إنه هنا». قال الحارس وكانا قد وصلا أمام مربع محاط بأطاريف حجرية صغيرة رمادية اللون تجمعها سلسلة مطلية باللون الأسود، كانت الحجارة عديدة متشابهة شكلها مستطيل وكانت منحوتة وموضوعة بفواصل نظامية فيما بينها، وبصفوف متوالية. وكانت جميعها مزينة بباقة من الزهور اليانعة، إنها الذكرى الفرنسية المكلفة بأعمال الصيانة هنا، منذ أربعين سنة. - «هاك، إنه هنا» - كان يشير إلى حجر في الصف الأول.. توقف جاك كورمري على مسافة من الحجر.

- «سوف أتركك وحدك»... قال الحارس اقترب كورمري من البلاطة الحجرية ونظر إليها بشرود، نعم، لقد كان حقاً اسمه، رفع ناظريه إلى السماء التي ازداد شحوبها، وكانت غمامات بيضاء ورمادية تمرّ ببطء، ويهبط معها من السماء بين الفينة

والأخرى ضوء خفيف يكمد بعد حين. كان الصمت يسود حوله في حقل الموتى الواسع وكانت الجلبة الخافتة للمدينة حوله في حقل الموتى الواسع وكانت الجلبة الخافتة للمدينة وحدها هي التي تأتي من فوق الجدران العالية وأحياناً كان يمرّ خيال أسود بين القبور البعيدة.

وكان جاك كورمري بعينيه الشاخصتين إلى الغيوم المبحرة في السماء يحاول أن يتنسم من خلف رائحة الزهور المبللة الرائحة المالحة التي كانت تأتي في تلك اللحظة من جهة البحر البعيدة.

وكان يقف بلا حركة عندما سحبه صوت ارتطام دلوٍ برخام أحد القبور من أحلامه. وفي تلك اللحظة قرأ تاريخ ميلاد والده على القبر، واكتشف بمناسبة ذلك أنه كان يجهل هذا الأمر. ثم قرأ التاريخين (1885 – 1914)، وقام بحساب عفوي: تسعةٌ وعشرون عاماً فجأة خطرت له فكرة زعزعت جسده بالكامل، لقد كان عمره هو أربعين عاماً والرجل المدفون تحت تلك البلاطة والذي هو والده كان أصغر منه سناً..

وجاءته موجة من الحنان، والشفقة الفجائية التي ملأت قلبه، وليست لواعج نفس يحملها ابن اتجاه ذكرى أب متوفى، ولكن هي رأفة مشوشة يشعر بها الإنسان إزاء طفل اغتيل ظلماً - ها هنا شيء ما ليس في وضعه الصحيح، الحق يقال إنّه ليس هناك نظام ولكن جنون وخواء، هنا حيث أن الابن يكبر أبيه،

منظومة الزمن نفسه كانت تتحطم حوله، هو الجامد بين هذه القبور التي لم يعد يراها.. وتوقفت السنين عن الانتظام، وفقاً لهذا النهر العظيم الذي يسير إلى نهايته.

هذه السنين لم تكن إلاَّ انقصاف وارتطام وجلبة هيجان حيث يصارع جاك كورمري الآن القلق والرأفة، كان ينظر إلى شواهد القبور الأخرى في المربع، ويتعرّف إلى التواريخ التي غطيت فيها هذه الأرض بأجداث أطفال كانوا آباء لرجال اشتعل الشيب برؤوسهم، ويعتقدون أنهم يعيشون في تلك اللحظة، لأنه هو بالذات يعتقد أنه يعيش، لقد ا نبنى لوحده، وكان يعرف قوته وطاقته، وكان يواجه، وكان يُقادُ أيضاً. ولكن في هذا الدوار الغريب الذي عاشه في تلك اللحظات فإن التمثال الذي يصنعه كل إنسان لنفسه ويشويه على نار السنين ليدخل فيه، وينتظر أن يتشقق، كان هذا التمثال يتفتت سريعاً وينهار، لم يعد إلاَّ هذا القلب القلق المتعطش للحياة الثائر ضد النظام القاتل لهذا العالم الذي رافقه لأربعين سنة خَلَتْ. والذي كان يضرب دائماً وبالقوة نفسها حائطاً يفصله عن سرّ كل حياة، وهو يريد الذهاب أبعد من ذلك وزيادة. وأن يعرف، وأن يعرف قبل أني موت، وأن يعرف أخيراً حتى يكون. لمرة واحدة، ولثانية واحدة، وإلى الأبد...

لقد كان ينظر ثانية إلى حياته المجنونة، الشجاعة، العنيدة، التائقة دوماً إلى هذا الهدف الذي يجهله وفي الحقيقة فلقد مرَّت كاملة دون أن يحاول تصوّر ما يمكن أن يكون رجلاً أعطاه بالضبط، هذه الحياة ليذهب بعدها ويموت بعد فترة قصيرة في أرض مجهولة في الجهة الأخرى من البحر. في التاسعة والعشرين من العمر كان هو نفسه هشاً، معذباً، متوتراً، متطوعاً، شهوانياً، حالماً، وقحاً، وشجاعاً، نعم، لقد كان كل ذلك وفوق ذلك أيضاً. لقد كان على قيد الحياة ورجلاً أخيراً، ومع ذلك لم يفكر أبداً بالرجل الراقد هنا كما يفكر بكائن حي، ولكن كما يفكر بمجهول كان قد مرَّ سابقاً على هذه الأرض حيث وُلِدَ وحيث تقول أمه إنه يشبهه، وإنه كان قد مات في ساح الشرف. ومع ذلك، فما كان يبحث عنه بشغف من خلال الكتب والكائنات يبدو له أن هذا السر له جزء مرتبط بهذا المتوفى هذا الأب أصغر أخوته، ومع ماكان عليه، وما أصبح عليه، وأنه هو نفسه كان يبحث بعيداً جداً عما كان بالقرب منه في الزمان وفي الدم ومن المسلّم به بأنه لم يُساعَدْ في عائلة لا تتحدث عن ذلك، ولم تكن تقرأ أو تكتب، أمّ تعيسة وشاردة الذهن كان يمكن أن تخبره شيئاً حول ذلك الأب الذي يدعو للشفقة.

ولا أحد يعرف أن أمه كانت قد نسيته، لقد كان متأكداً من ذلك، وقد مات مجهولاً على هذه الأرض، التي مرَّ عليها بصورة سريعة كإنسان مجهول، وكان عليه هو ذاته أن يستفسر دون شك وأن يسأل أيضاً، ولكن إنساناً مثله لا يملك شروى نقير ويريد امتلاك العالم بأسره، وليس عنده الطاقة الكافية حتى يبني ويغزو ويفهم العالم.

وفي المحصلة، لم يكن الأوان قد فات بعد، كان يمكنه أن يبحث ويعرف من هو هذا الرجل الذي كان يبدو الآن أكثر قرباً من أي كائن آخر في هذا العالم يمكنه أن... كانت فترة ما بعد الظهر تنقضي في هذه الأثناء وقد أعاده حفيف تنورة بالقرب منه وكذلك ظلَّ أسود إلى منظر القبور والسماء اللذان يحيطان به..

كان عليه أن يرحل، لم يعد هناك، ما يفعله في هذا المكان. ولكن لا يمكن أن ينتزع نفسه من هذا الاسم، ومن هذه التواريخ فلم يعد تحت هذه البلاطة إلاَّ الرماد والغبار... ولكن بالنسبة له فإن أباه عاد ثانية إلى الحياة ولكنها حياة غريبة صامتة، وكان يبدو له الآن أن عليه المغادرة وترك والده من جديد يكمل هذه الليلة وأن يتابع عزلته الطويلة التي رُمي إليها وترك فيها...

أرعدت السماء الخالية بصوت انفجار مفاجئ، كانت إحدى الطائرات غير المرئية قد خرقت جدار الصوت، فأدار جاك كورمري ظهره وترك والده...

سان بريوك ومالان لخ

في المساء وعلى طاولة العشاء كان جاك كورمري ينظر إلى صديقه القديم الذي كان يهاجم القطعة الثانية من اللحم، والرياح التي كانت تهب تحدث صريراً خفيفاً في الضاحية القريبة من طريق الشاطئ...

وعند وصوله كان كورمير قد لاحظ في الساقية الجافة على جانب الرصف قِطعاً صغيرة من الطحالب الجافة التي تستدعي وحدها إضافة إلى رائحة الملح الإحساس بالاقتراب من البحر..

وفيكتور مالان الذي أمضى فترة خدمته في إدارة الجمارك قد أحيل إلى التقاعد واختار هذه المدينة الصغيرة التي برر اختياره لها بعد فوات الأوان قائلاً: إن لا شيء كان يمكن أن يبعده عن التأمل المنفرد لا إفراط جمال المدينة ولا إفراط بشاعتها ولا حتى الوحدة بحد ذاتها.

وقد علمته إدارة الأمور وسلوك الناس الكثير من الأشياء ولكنوفي البداية أدرك أنه يفهم القليل من الأمور...

وبالرغم من ذلك فقد كان واسع الثقافة، وكان جاك كورمري معجب به دون تحفظ لأن **مالان كان في وقتٍ ما،**

---

[1] فصل للكتابة وللحذف.

وفي حين كان أفضل الرجال في حال من السخف، كان هو المخلوق الوحيد الذي يمتلك تفكيراً شخصياً وفي حدود قدرة المرء على امتلاك مثل هذا التفكير...

وفي كل الأحوال فإنه في ظل مظهر متساهل فإن حرية إطلاق الأحكام تترافق مع أصالة لا يمكن التقليل من شأنها...

«هو كذلك يا بني، قال مالان، بما أنك سوف ترى والدتك حاول أن تعرف شيئاً ما عن والدك، ثم عد بسرعة لتروي لي ما يحصل فإن مناسبات الضحك قليلة..»

- نعم، هذا مضحك، نعم وبما أن هذا الفضول قد عادني يمكنني على الأقل التقاط بعض المعلومات الإضافية، وكوني لم أكن أبداً منشغلاً بذلك، يبدو لي أن ذلك يدل على أمر مَرَضي.

- «ولكن ، لا ، إنها الحكمة هنا ، تزوجت من مارت 30 سنة أنت تعرفها ، إنها امرأة رائعة ومازلت أفتقدها إلى الآن، واعتقدت أنها كانت تحب منزلها[لخ]».

- «معك حق بلا شك».، قال مالان، وهو يشيح بنظره، وكورمري كان ينتظر الاعتراض الذي كان يعرف أنه آت بعد الإقرار بالرضا ، عندها ، استطرد مالان: «قد أكون بالتأكيد

[1] تم شطب هذه المقاطع الثلاثة...

على خطأ، كنت أتجنب أن أعرف أكثر مما علمتني الحياة.. ولكني مثال سيء في هذا المجال، أليس كذلك..؟!.... وفي المحصلة، فإنه بسبب عيوبي بالتأكيد لم أستطع أن أكون مبادراً. بينما أنت (ولمعت عينه بنوع من المكر)، فأنت رجل فِعْل»...

كان مظهر مالان مثل رجل صيني وجهه مستدير وأنفه مفلطح، حاجباه غائبان أو شبه غائبين، وشعره داخل قبعهة، أما شاربه فلم يكن كافياً ليغطي فمه الممتلئ والشهواني..

وجسده ذاته كان ناعماً ومستديراً ويده مشحمة ذات أصابع ملفوفة بعض الشيء تذكّر بأصابع أحد المنتقدين الذين يكرهون التبضع مشياً على الأقدام. عندما كان يغمض عينيه نصف إغماضة وهو يأكل بشهية مفتوحة يمكن أن يتخيله المرء مرتدياً لباساً حريرياً وهو يمسك بالأرغفة بيني ديه..

ولكن نظرته تغير كل ذلك، فعيناه بنية غامقة فيها حيوية وقلقة، وتتسمَّر فجأة وكأن الذكاء كان يعمل سريعاً على نقطة محددة، كانت عيناه هما عينا رجل أوربي ذو حساسية وثقافة واسعة...

كانت الخادمة العجوز قد أحضرت الجبن الذي رمقه مالان.. بطرف عينيه - «عرفت رجلاً، قال، بعد أن عاش ثلاثين عاماً مع زوجته... ». وبدا كورمري أكثر انتباهاً..

وفي كل مرة يبدأ مالان بالقول: - «عرفت رجلاً.... أو صديقاً... أو رجلاً إنكليزياً سافر معي... ». كنا متأكدين أنه كان يتحدث عن نفسه...

- «رجلاً لم يكن يحب الحلويات وزوجته لا تأكل منها أبداً.. حسناً وبعد عشرين سنة من الحياة المشتركة، فوجئ بزوجته عند بائع الحلويات، وفهم أنها كانت تذهب هناك عدة مرات اسبوعياً، لتتخم نفسها، بقطع حلوى الكلير بالقهوة، أجل، كان يعتقد أنها لا تحب الحلويات، وفي الحقيقة، كانت تعشق الكلير بالقهوة...»....

- «إذاً، فنحن لا نعرف أي شخص»... قال كورمري..

- «نعم، إذا كنت تريد ذلك، ومن العدل على مايبدو، وبكل الأحوال، أعتقد أني أود القول، اعذرني على عدم قدرتي في تأكيد أي شيء، نعم، يكفي القول إنه إذا كانت عشرون سنة من الحياة المشتركة غير كافية لتتعرف على إنسان، فإن تحقيقاً سطحياً، بالتأكيد، وبعد أربعين سنة بعد وفاة الإنسان يخشى أنه قد لا يحمل لك إلاَّ معلومات محدودة، نعم يمكن القول إنها محدودة حول هذا الرجل ولو بمعنى آخر...».

رفع يده **المسلحة بسكين وبيد قَدَرية ضرب جبنة الماعز...**

- «عذراً، ألاَّ ترى جبناً؟!.. لا؟! دائم التقشف!... من الصعب أن يرضي المرء كل الناس!..».

وانسلّت لمعة ماكرة، مرة ثانية، بين جفنيه، نصف المغمضتين، لقد مضى عشرون عاماً الآن عندما عرفت كورمري صديقه القديم (هنا يجب إضافة لماذا، وكيف)... وهو كان يتقبل سخريته بروح مرحة..

- «ليس من أجل نيل الإعجاب فالإفراط في الطعام يجعلني ثقيلاً وأنا رشيق..».

- «نعم، وسوف لن تستطيع أن تتفوق على الآخرين..»... كان كورمري ينظر إلى الأثاث الجميل، والخشن، وإلى العوارض الخشبية التي طُليت بالكلس..

- «صديقي العزيز، قال، لقد اعتقدت دوماً أني كنتُ مغروراً أنا كذلك، ولكن ليس دائماً، ولا مع كل الناس، فأمامك مثلاً.. أنا غير قادر على التكبر...».

وأدار مالان نظره مما يعني بالنسبة له، دليلاً على التأثر..

- « - أعلم ذلك، قال، ولكن لماذا؟!..».

- «لأنني أحبك، ». قال كورمري بهدوء..

وسحب مالان صحن الفاكهة ناحيته، دون أن يجيب بشيء..

وتابع كورمري.. «لأنني عندما كنتُ يافعاً جداً، غبياً جداً، ووحدي جداً (هل تذكر في الجزائر؟!).. التفتّ إلي، وفتحت لي دون أن تظهر كل أبواب ما أحبّه في هذا العالم..»

- «آه، أنت موهوب...».

- «بالتأكيد، ولكن يلزم معلم لأكثر الناس موهبة، وهو الشخص الذي تضعه الحياة يوماً ما في طريقك، وهذا الشخص يجب أن يُحترم ويُجلّ دوماً حتى لو لم يكن مسؤولاً، هاهو الأمر في الواقع..».

- «نعم، نعم ». قال مالان ذلك بهيئة مسايرة..

- «أنت تشك بذلك، أعلم هذا، لا تعتقد أن تعلقي بك هو تعلق أعمى، فأنت لديك عيوب كبيرة، وكبيرة جداً، على الأقل بنظري أنا..».... ولعق مالان شفتيه الضخمتين وبدا فجأة مهتماً....

- «ماهي؟!».

- «على سبيل المثال، لِنَقُلْ إنك مقتصد ليس من باب البخل، ولكن الرُعب خشية القِلة.. إلى آخره. لا يمنع، إنه عيب كبير، ولا أحبه بصفة عامة، وخاصة أنه لا يمكنك منع نفسك من الشك بنوايا الآخرين الخفيّة.. وبالفطرة لا يمكنك تصديق مشاعر مهملة بالكامل..».

- «اعترف.. ». قال مالان ذلك، وهو ينتهي من احتساء نبيذه، «أليس علي أن أشرب القهوة، وأثناء ذلك....»..

لكن كورمري لم يفقد هدوءه.. [لخ]

[1] أنا أقرض النقود غالباً، وأعلم أنها فُقِدَتْ، أقرضها لأشخاص غير مبالين بي، ولكن الأمر هو أنني لا أعرف كيف أرفض، وفـــي الوقت نفسه، أكون مستاءً..

- «أنا متأكد مثلاً، إنك لن تصدقني لو قلت لك أنه بطلب بسيط منك سوف أضع بين يديك كل ما أملك..».

- «تردد مالان، ونظر إلى صديقه هذه المرة»...

- «آه.. أعرف ذلك.. أنت كريم...».

- «لا، أنا لست كريماً، أنا بخيل بوقتي، وبجهدي، وبتعبي، وهذا ما أشمئز منه، ولكن ما قلته لك هو حقيقي. أنت لا تصدقني، هذا هو عيبك، وعجزك الحقيقي، على الرغم من أنك رجل خارق، لأنك مخطئ، بكلمة منك، وفي اللحظة ذاتها كل أملاكي تتحول لك، أنت لست بحاجة إليها، وهذا ليس إلاَّ مثالاً.. ولكنه ليس مثالاً اخترته كيفما اتفق. واقعياً، كل أملاكي هي لك..».

- «شكراً، حقاً، قال مالان، وعيناه نصف مغمضتين، أنا متأثر جداً..».

- «حسناً سأعانقك، لم تعد ترغب أن نتحدث بصراحة مبالغ فيها. كنت أود القول أنني أحبك، بعيوبك، فأنا أحب وأحترم القليل من البشر، وبالنسبة لباقي الأمر، فأنا خجل من قلة اكتراثي، ولكن أولئك الذين أحبهم، فلا أنا، ولا هم، أنفسهم، يمكن أن يجعلوني أتوقف أبداً عن حبهم.. هذه الأشياء أخذت مني وقتاً طويلاً، لأتعلمها، والآن، أنا أعلمها، هذا يعني لنعد إلى حديثنا: أنت لا تحبذ أن أستعلم عن والدي..».

- «بما معناه، أني إذا كنت لا أحبذ ذلك، فأنا كنت أخشى فقط أن يخيب أملك، فهناك صديق لي، كان متعلقاً كثيراً بصبية شابة، وكان يريد أن يتزوجها، وقد أخطأ في الاستعلام عنها..».

- «برجوازي»... قال كورمري...

- «نعم، »... قال مالان، «إنه أنا؟!..»

وانفجرا ضاحكين....

- «لقد كنت شاباً وتلقيت آراءً متناقضة للغاية، بحيث أن رأيي أنا قد تشوّش، وقد ساورني الشك في حبّها أو عدم حبّها، باختصار تزوجت امرأة غيرها..»...

- «لا أستطيع أن أجد لنفسي أباً آخر..».

- «لا من حسن الحظ.. فواحد يكفي هذا إن صدقت تجربتي في الحياة..».

- «حسناً، قال كورمري، وفيما تبقّى عليَّ رؤية والدتي، بعد بضع أسابيع. إنها مناسبة، وقد حدثتك، عن ذلك بخاصة لأني كُنتُ مشوّشاً قبل قليل من فارق السن، الذي كان لصالحي، نعم، لقد كان فارق السن لصالحي أنا نعم»...

- «نعم، فهمت..». ونظر إلى مالان..

- «قُلتَ أنه لم يكبر، هذا العذاب لم يَنَلْهُ وهو عذاب طويل الأمد..».

- «مع بعض اللحظات من البهجة..».

- «نعم، أنت تحب الحياة، ويجب أن تفعل ذلك، وأنت لا تصدق.. أحداً إلاَّها.».

جلس مالان بتثاقل في كنبة مغطاة بقماش الكريتون، وانتابته فجأة مشاعر يصعب وصفها وارتسم على محيّاه حزن شديد...

- «معك حق، أنا أحببتها، أحببتها بشراهة، ولكنها في الوقت نفسه، كانت تبدو لي مريعة، ولا يمكن الوصول إليها أيضاً، ولهذا السبب فأنا لدي إيمان بالشك، نعم، أريد أن أصدّق، أريد أن أعيش على الدوام»...

كورمري كان صامتاً..

- «وفي الخامسة والستين، تُعدُّ كل سنة هي بمثابة تأجيل، أريد الموت بسلام، والموت بحد ذاته مرعب، أنا لم أفعل شيئاً..»...

- «هناك أناس يؤيدون الدنيا، ويساعدون على العيش بوجودهم وحده.».

- «نعم، وهم يموتون..».

وأثناء صمتهم صفرت الرياح بقوة أكبر حول المنزل..

- «معك حق جاك، قال مالان، اذهب وتعقّب الأخبار، فأنت لم تَعُدْ بحاجة لأبٍ، فقد ربيت نفسك بنفسك، وحالياً يمكنك

أن تحبه كما تعرف كيف تحب ولكن... قال ذلك، ثم كان ي تردد..».

- «عُدْ لرؤيتي، لم يتبق لي الكثير من الوقت. وسامحني.».

- «أسامحك؟!.. ». قال كورمري، - «أنا مدين لك بكل شيء..».

- «لا.. أنت لست مديناً لي بشيء يذكر، سامحني فقط، لأني لم أستطع أن أستجيب أحياناً لحبك لي...».

كان مالان ينظر إلى الثريا المعلقة فوق الطاولة، وكان صوته أكثر عمقاً، وبعد بضع لحظات وحده كورمري، وسط الريح، وفي الضاحية الخالية، كان لا يزال يسمع في داخله، ودون توقف:

- «يوجد في داخلي فراغ مريعٌ، ولا مبالاة تؤلمني...». لخ

[1] جاك: حاولتُ أن أجد نفسي منذ البداية، منذ طفولتي، وهو أمر كان جيداً وسيئاً، لأنه لا أحد حولي، كان يستطيع أن يقول لي ذلك، وأنا أعترف الآن أن الجميع تركوني، وأني كنتُ أحتاج أحداً" ليدلني على الطريق، ويلومني، ويمتدحني، ليس من منطلق السلطة، ولكن من منطلق التأثير، أنا بحاجة لوالدي، كنت أعتقد أنني أعرفه، وهو يمسك بيدي، أنا لا [أعرف؟!].. بعد..

4 ألعاب طفولية

كانت تموجات البحر الخفيفة، والقصيرة، تحرّك السفينة، في حرارة شهر تموز، وجاك كورمري، نصف عارٍ في مقصورته ينظر إلى تراقص انعكاس الشمس المتفتتة على سطح الماء من خلال حواف كوّة المقصورة..

نهضَ بقفزة سريعة ليوقف دوران المروحة التي كانت تجفف العرق في مسام جلده حتى قبل أن تبدأ في السيلان نحو جذعه.. من الأفضل له أن يتعرّق وترك نفسه يسبح على فراشه القاسي والضيّق، وهو يحب الأسرّة من هذا النوع، وبعد قليل ومن أعماق السفينة، خرج صوت ضجيج عالٍ من آلات السفينة على شكل اهتزازات مكتومة، بما يشبه جلبة جيش عرمرم بدأ تحرّكه دون توقف..

كان يحبّ أيضاً هذا النوع من ضجيج البواخر الضخمة ليلاً نهاراً، ويحب الإحساس بأنه يمشي على سطح بركان بينما كل شيء حول البحر الواسع يبدو بكل اتساعه واضحاً للعيان.. ولكن كان الطقس حاراً للغاية، على سطح السفينة بعد الغداء فالركاب الذين أتخموا من الأطعمة كانوا يتمددون على مقاعد السطح المغطّى أو أنهم هربوا إلى الممرات ساعة القيلولة، كان

جاك لا يحب القيلولة «إلى النوم»، لقد تذكّر بامتعاض أن هذه العبارة الغريبة كانت تستخدمها جدته عندما كان صبياً في الجزائر، وكانت تجبره على مرافقتها في قيلولتها..

فقد كانت الغرف الثلاث في الشقة الصغيرة في إحدى ضواحي الجزائر العاصمة تقبع في ظل المناجم عند فتحات التهوية المقفلة بعناية شديدة[1].

وكانت الحرارة في الخارج تشوي الشوارع اليابسة والمغبّرة، وفي الغُرف كانت ذبابة مجدّة ضخمة أو اثنتان تحاولان بلا كلل إيجاد مخرج وهما تصدران أزيزاً يشبه أزيز طائرة..

كان الطقس حاراً جداً كي ينزل إلى الشارع ليلتقي رفاقه الذين احتُجزوا هم أنفسهم عنوة في منازلهم. وحاراً جداً لكي يقرأ سلسلة بارديّان أو الشجاع[2] القصصيتان.

وعندما كانت الجدة تغيب بصورة طارئة أو تثرثر مع الجارة، كان الولد يلصق أنفه بفتحات تهوية شباك غرفة الطعام المطلّة على الشارع، والشارع كان خالياً، وأمام محلاّت بيع الأحذية

---

[1] كان يبلغ حينها حوالي العاشرة من العمر..

[2] بارديّان هي سلسلة من قصص شعبية ألّفها ميشال زيفاكو، وطبعت بين (1905–1918)، الشجاع ، سلسلة قصصية للأطفال، استمرت من عام 1934 إلى 1937، هذه الكتب الضخمة المطبوعة على ورق جرائد وذات غلاف ملوّن بفظاظة حيث السفر طُبع بأحرف أكبر من العنوان ومن اسم المؤلف..

والأقمشة كانت تسدل المظلاّت والستائر الكتانية الحمراء والصفراء، أما مدخل محل بيع التنباك فقد أُخفي بستارة من الخرز متعددة الألوان أما جان صاحب القهوة فقد كانت الصالة عنده خالية إلاَّ من قطٍّ ينام كما لو أنه ميت على الحدِّ الفاصل ما بين الأرض المغطاة بنشارة الخشب، والرصيف المغبّر..

كان الطفل يستدير حينها إلى الغرفة شبه العارية المطلية بالكلس فيها بعض الأثاث في الوسط، طاولة مربعة، وعلى طول جدرانها خزانة ومكتب صغير تغطيه ندبات، وبقع حبرٍ، وعلى الأرض فراش بغطاء حيث يأتي العم نصف الأبكم لينام فيها. وهناك أيضاً خمسة كراسٍ[1].

وفي إحدى الزوايا وعلى الموقد الذي زين سطحه فقط، بالمرمر يوجد مزهرية صغيرة عنقها متطاول ومزين بالورود، كما هو الحال، في المعارض..

والطفل التائه بين الظل والشمس كان يدور دون توقف حول الطاولة، حتى إنه لم يكن مُستعجلاً وهو يكرر لازمته: «لقد مللت أنا مللت...»... كان سائحاً في الوقت ذاته، كان في هذه العبارة ، لعبة نوعاً ما وبهجة ومتعة بهذا السأم لأن الجنون كان

---

[1] نظافة قصوى، خزانة ملابس، وطاولة هندام من الخشب من الأعلى مصنوعة من الرخام وسجادة بالية ووسخة لها أهداب في حوافها وفي الزاوية متاع غطي بسجادة عربية قديمة لها أهداب على شكل ثمر البلوط..

يسيطر عليه، وهو يسمع عبارة «إلى النوم»... عبارة الجدّة التي عادت أخيراً، ولكن احتجاجه لم يكن ينفع معها.. فالجدّة التي كانت قد ربّت تسعة أطفال كان لديها أفكارها حول التربية.. فالطفل دُفع مرة واحدة إلى الغرفة، وهي إحدى الغرفتين المطلتين على الباحة، أما الغرفة الأخرى فقد كانت تحوي سريرين، سرير والدته، وسرير كان ينام فيه مع أخيه. والجدة كان لها الحق بغرفة لها وحدها، ولكن في سريرها الخشبي العالي، والكبير، كانت تستقبل غالباً الطفل في الليل، وتستقبله دائماً، في فترات القيلولة نهاراً...

أما هو فقد كان يخلع صندله ويصعد إلى السرير، وكان عليه أن يأخذ مكانه في الداخل جانب الجدار منذ ذلك اليوم، الذي انسلّ فيه على الأرض، عندما كانت جدته تغطّ في النوم ليقوم بدورته حول الطاولة وهو يتمتم لازمته المعتادة، في إحدى المرات كان ينظر إلى جدته، وهي تخلع فستانها، وتُنْزِل قميص نومها المصنوع من كتّان خشن، له مزلاق في الأعلى، بواسطة عقدة قامت بفكّها، ثم صعدت بدورها إلى السرير، واشتمَّ الطفل قربه رائحة اللحم العجوز، عندما كان ينظر إلى عروقها الزرقاء الضخمة، وبُقع الشيخوخة التي تشوّه رجلي جدته. كانت تردد عباراتها «هيا، إلى النوم»... ثم تنام سريعاً بينما الطفل، وبعينيه المفتوحتين، فكان يتابع جولان الذباب الذي لا يتعب...

أجل، لقد كَرِهَ ذلك خلال تلك السنين، وفيما بعد أيضاً، حين أصبح رجلاً إلى أن وقع في مرض خطير، فهو لم يستطع أن يعقد العزم على التمدد بعد الغداء، أثناء ارتفاع درجات في حرارة الجو. وإن حصل ونام فقد كان يستيقظ في حال سيئة، وجسدياً كان يعتريه الغثيان.

ومنذ فترة قصيرة فقط، ومنذ أن أصابه الأرق، يمكن له أن ينام نصف ساعة فقط في النهار، ويستيقظ وهو في حالة من اليقظة والتنبه... «إلى النوم..»...

وهدأت الريح تحت تأثير الشمس القوية. وكانت السفينة قد فقدت تمايلها وبدت الآن وكأنها تتقدم وفق خط مستقيم. وآلاتها في كامل انتظامها، ومروحتها تضرب عمق المياه وضجة مكابسها أصبحت منتظمة إلى درجة أنها اختلطت مع الجلبة الصامتة والدائمة للشمس على سطح البحر. جاك كان نصف نائم، وقلبه منقبض بنوع من القلق المفرح لمجرد فكرة أنه سيرى الجزائر ثانية، وكذلك المنزل الفقير في الضواحي، كان هذا هو الحال عندما كان يترك باريس ليذهب إلى إفريقيا، إنه نوع من الابتهاج والقلب عامر بالفرح كمن نجح لتوه في هروبه الناجح ويضحك لفكرة حالة حراسِهِ لدى هروبِهِ وكذلك الأمر في كل مرة، يؤوب فيها إليهها إما برّاً أو بالقطار، كان قلبه ينقبض عند رؤية أولى منازل الضواحي التي يصل إليها دون أن

يعرف كيف حصل ذلك بلا حدود من الأشجار ولا المياه مثل سرطان تعس فَرَش عُقَدَه اللمفاوية والتي قوامها العوز والقبح، سرطان يهضم شيئاً فشيئاً الجسد الغريب حتى يقتاده إلى قلب المدينة هناك حيث ينسيه أحياناً جمال الديكور غابة الإسمنت والحديد التي كان تحبسه ليل نهار، وتَسكُنُهُ حتى في ليالي أرقِهِ. ولكنه كان قد هرب، كان يتنفس على وقع الموجات، وعلى السطح الواسع لمياه البحر، وعلى وقع تأرجح قرص الشمس. كان يمكنه أخيراً النوم، والعودة للطفولة التي لم يستطع أن يشفى منها أبداً، والعودة كذلك إلى سر الضياء هذا، وإلى الفقر الذي ساعده على الحياة ودفعه إلى الانتصار على كل الصعوبات. أما الانعكاس المتكسر، والساكن على نحاس الكوّة، فقد كان آتياً من الشمس ذاتها في الغرفة المعتمة حيث كانت تنام جدته، وهذه الشمس ترخي بكامل ثقلها على سطح فتحات التهوية، وتترك شعاعاً رهيفاً يمرُّ عبر تجويف تركته عقدة خشبية تالفة في فتحة التهوية، ما ينقص المشهد هنا هو الذباب الذي يطّن ويغذي **تهويماته.** فليس هناك ذباب في البحر، أما هذه الذبابات فقد كانت ميتة، والطفل يحبها لأنها تحدث الضجيج، وهي تعيش في هذا العالم، الذي خدّرته الحرارة، و**كل الناس والحيوانات** كانت راقدة هامدة، عداه هو، حقاً، إنَّهُ عائد إلى السرير، وإلى الفسحة التي بقيت

له بين الجدار والجدّة. وكان هو أيضاً يريد أن يعيش، وكان يعتبر أن وقت النوم قد نُزع من الحياة ومن وقت اللعب.

كان الرفاق ينتظرونه، بالتأكيد في شارع بريفوست بارادول[1] الذي تحده حدائق صغيرة كان تفوح منها رطوبة السقاية في المساء، وكان نبات **صريمة الجدي** الذي كان ينتشر في كل مكان مروياً أو دون ري..

وما أن تصحو الجدّة حتى ينسلّ وينزل إلى شارع ليون ، الذي كان لا يزال خالياً ، وكان يركض إلى المنهل الواقع في زاوية شارع بريفوست بارادول ويدير بأقصى سرعة مقبض الحديد الضخم الموجود في قمة المنهل، ورأسه محني تحت المصب ليتلقى دفقة كبيرة من الماء الذي يملأ فتحتي أنفه وأذنيه وياقة قميصه المفتوحة ويسيل الماء إلى بطنه، ويجري من تحت سرواله القصير، ويسيل على طول سيقانه إلى صندله. وهكذا، كان سعيداً حين يشعر بالماء يرغي بين أخمص قدميه وجلد نعله كان يركض حتى يلهث ليلتقي بـ بيير[2] والآخرين الجالسين في مدخل أحد ممرات البيت الوحيد ذي الطابقين في الشارع، وهم يشحذون السيجار الخشبي الذي سيستفيدون منه.

---

[1] بريفوست بارادول: صحفي وكاتب فرنسي ولد عام 1829 ومات عام 1870م.

[2] بيير، هو الآخر ابن أرملة حرب، وهو يعمل فـــي المحاسبة، وصديق له.

بعد ذلك بلعبة علبة الشراب باستخدام مضرب خشبي أزرق. وما أن يكتمل العدد حتى ينطلقوا يضربون المضرب بالسياج الحديدي الصدئ الذي يحيط بحدائق المنازل محدثاً ضجة عارمة توقظ الحي بأكمله، وتُفزع القطط النائمة تحت نباتات الحلوة[1] التي اكتساها الغبار. كانوا يركضون ويقطعون الشارع وهم يحاولون أن يمسك بعضهم ببعض، وقد غطّاهم العرق بسرعة، وكانوا يسيرون دوماً في الاتجاه نفسه نحو «الحقل الأخضر» ليس بعيداً عن مدرستهم على بعد أربعة أو خمسة شوارع من هذا المكان، ولكن هناك وقفة إجبارية عندما يسمى نافورة الماء في ساحة كبيرة بعض الشيء منهل ضخم دائري الشكل وهو ذو طابقين حيث لا يوجد ماء والحوض قد تمَّ سدّه منذ فترة طويلة، كان يمتلئ حتى حافته العليا من وقت لآخر بمياه المطر، مياه آسنة يغطيها زَبَدٌ وقشور بطيخ، وبرتقال، وفضلات من كل الأشكال والألوان إلى وقت تقوم فيه الشمس بتجفيفها، أو وقت تستيقظ فيه البلدية وتقرر ضخ المياه. وهناك مزهرية جافة ووسخة مجزّءة بالميناء ظلّت فترة طويلة في عمق الحوض تنتظر أن تتابع الشمس جهودها كي تتحول بعدها إلى غبار تذروه الريح أو أن تقوم مكنسة أحد

[1] جنس نباتات معترشة من الفصيلة القرنية، المترجم.

عمال التنظيفات برميها على الأوراق الملونة للأشجار المحيطة بالميدان، وفي الصيف عموماً كان الحوض جافاً، وتبرز حافته الحجرية الضخمة القا تمة ملونة، جعلتها آلاف الأيادي ومؤخرات سراويل الأطفال زلقة. وعلى تلك الحافة كان جاك وبيير والآخرون يلعبون لعبة صهوة الجواد، ويدورون مرتكزين على مؤخراتهم حتى ترميم سقطة لا يمكن مقاومتها في الحوض غير العميق الذي تفوح منه رائحة البول تحت أشعة الشمس، ثم يطيرون نحو الحقل الأخضر، وهم يركضون في الطقس الحار وأقدامهم وصنادلهم، تملؤها طبقة من الغبار ذاته. والحقل الأخضر هو عبارة عن أرض بور خلف مصنع للبراميل، وبين حلقات من الحديد الصدئ، وقعور البراميل العتيقة هنالك عفونة ناجمة عن باقات من العشب الذابل الذي ينمو بين ألواح الحجر المسامي. هناك، وعلى الحجر المسامي كانوا يرسمون حلقة، وهمه يصرخون صرخات عالية، وكان أحدهم يلبث داخل الحلقة ، ويمسك مضرباً بيده، أما الباقون فقد كانوا يرمون السيجار الخشبي نحو الحلقة. كل واحد بدوره، فإن سقط السيجار داخل الحلقة يقوم من رماه بأخذ المضرب، ويدافع بدوره عن الحلقة والماهرون في اللعبة، كانوا يلتقطون السيجار، وهو يطير، ويضربونه بعيداً..

وفـي هذه الحالة، يكـون بمقدورهـم أن يتوجهوا إلى المكان الذي سقط فيه ثم يضربونه بحدِّ المضرب على طرفهِ ليعلو بعد ذلك فـي الهواء ثم يطلقونه أبد فأبعد، وهلم جرا.. إلى أن يخطئوا أو يلتقط الآخرون السيجار، وهو يطير فيعودون بسرعة إلى الحلقة من جديد للدفاع عنها من السيجار المُرسل بمهارة وبسرعة على يد الخصم، وكانت لعبة مضرب الفقراء هذه مع بعض القواعد الأكثر تعقيداً تشغلهم كل فترة، ما بعد الظهر، وككان بيير هو أمهر الجميع، وكان نحيفاً أكثر من جاك، وأقل حجماً أيضاً، كان شبه واهنّ، أشقر الشعر بقدر ما كان أسمر اللون، وشقرته تصل إلى حاجبيه، أما عيناه الزرقاوين والحادتين فلا تحميها الأهداب، كان مظهره يوحي بأنه مجروح ومندهش، أما ظاهرياً فقد كان يميل فـي مشيته، لقد كان دوماً فـي خضم الحدث، وكان بارعاً ومثابراً..

أما جاك فقد كان ينجح باستعراضات صعبة، حيث يقوم بضربات مضرب مقلوبة، وبسبب تلك الاستعراضات، والنجاحات التي تثير إعجاب الرفاق كان جاك يعتبر نفسه هو الأفضل، وكان غالباً ما يتباهى بهذا الأمر.

والواقع أن بيير كان يغلبه على الدوام، ولا يتحدث عن ذلك، أو يقول شيئاً بهذا الخصوص، ولكن بعد اللعبة كان يستقيم بكامل قامته، ويبتسم بصمت، وهو يستمع للآخرين[لخ].

وإذا كان الوقت أو المزاج لا يسمحان فبدلاً من الركض في الشوارع والأراضي الخالية، كانوا يلتقون أولاً في مدخل بيت جاك. ومن هناك وعبر باب موجود في عمق المنزل كانوا يمرّون في باحة صغيرة في الأسفل محاطة بجدران منازل من ثلاث جهات. أما في الجهة الرابعة فكان جدار حديقة يترك أغصان شجرة برتقال كبيرة تمر فوقه، وكان عبيرها يفوح في المنازل البائسة، عندما تزهر آتياً من الممر أو كان ينزل إلى الباحة عبر درج حجري صغير، وعلى إحدى الجهات، وفي منتصف الثانية كان يوجد بناء مثلث الشكل يسكنه الحلاّق الإسباني الذي يدير محلّه المطل على الشارع. وهناك أسرة عربية تقوم ربة المنزل فيها بتحميص القهوة في الباحة في بعض الليالي. وفي الناحية الثالثة كان المستأجرون يطعمون دجاجاتهم داخل أقفاص تالفة من المعدن والخشب، وأخيراً.. وفي الجهة الرابعة ومن جهتي الدرج تنفتح أقبية البناء العاتمة مثل أفواه مفتوحة: إنها تشبه كهوفاً لا مخرج منها، وليس فيها نور، محفورة في الأرض،

---

[1] كانت هذه الألعاب تجري في الحقل الأخضر.

دون أي فاصل وتفوح منها رائحة الرطوبة، ويُنْزَلُ إليها بأربع درجات تغطيها تربة ضاربة إلى اللون الأخضر وهناك كدّس المستأجرون كيفما اتفق فائض ما يملكونه من أشياء

[لخ] حاشية لم أعرف أين أضعها...؟!...

أي لا شيء تقريباً، أكياس قديمة متعفنة، قطعاً من صناديق قديمة، قصعات صدئة، ومثقوبة، باختصار كل ما يمكن أن يجده المرء في الأراضي الخالية، ولا يستخدمه أكثر الناس بؤساً، هناك في أحد تلك الأقبية ، كان الأولاد يجتمعون. وكان من عادة جان وجوزف أولاد الحلاق الإسباني، أن يلعبا هناك. وعلى أعتاب منزلهما المتداعِ كانت هناك حديقة بسيطة، وجوزف السمين واللعوب كان كريماً، يعطي كل ما يملك، بينما جان، صغير الحجم، والنحيل ، فكان يلتقط دوماً المسامير والبراغي التي يعثر عليها، ويبدو شديد الحرص على «كِلَلِهِ» أو على «نوى المشمس الضرورية لإحدى ألعابهم المفضلة» [بر]. ولا يمكننا أن نتخيل أي شيء أكثر تناقضاً من هذين الأخوين اللذين لا يمكن فصلهما الواحد عن الآخر.

---

[1] عمر، هو ابن هذه العائلة، والأب كان كناساً فـــي البلدية..

[2] توضح نواة المشمس على ثلاث أخرى تشكل منصباً ثلاثي القوائم، وعلى مسافة محددة يحاولون إصابتها برمي نواة مشمش، فإن نجح أحدهم يحق له التقاط النوى الأربعة، وإن أخطأ هدفه تذهب نواته لصاحب النوى..

فمع بيير وجاك وماكس آخر الشركاء كانوا يندفعون إلى القبو النتن والمبلل، وينشرون أكياسهم الممزقة التي تعفنت على الأرض على ركيزة حديدية ، بعد أن يفرغوها من حشرات نبات وردان الرمادية، والدروع المتمفصلة، والتي يطلقون عليها اسم خنازير الهند، وتحت تلك الخيمة التافهة يجدون أنفسهم في بيتهم (في حين أنهم لا يمتلكون الحقيقة، غرفة أو سريراً خاصاً بهم)، وكانوا يشعلون ناراً صغيرة في هذه المساحة الرطبة والمحصورة، ناراً تحتضر سريعاً، وتتحول إلى دخان يخرج من وكرهم إلى درجة أنهم يسعون لإطفائها بالتراب الرطب المستخرج من الأرض نفسها. وكانوا يتقاسمون ليس دون جدال مع جان الصغير حلوى السكر المعطر بالنعناع وفستق العبيد أو الحمّص المجفف والمملح والترمس أو سكاكر الشعير ذات الألوان الصارخة، والتي كان العرب يقدمونها عند أبواب السينما القريبة في عربة معروضات يحاصرها الذباب ومكوّنة من صندوق خشبي، موضوع على مدرجة ذات كريات.

وفي أيام الشتاء الماطرة، حيث تكون الأرض ممتلئة بمياه الباحة التي تترك فائض ماء المطر يسيل إلى الأقبية التي تمتلئ بها كانوا يصعدون على صناديق قديمة، ويلعبون لعبة

روبنسون[1] بعيداً عن السماء الصافية، ورياح البحر منتصرين فـي مملكتهم، ومملكة البؤس.

ولكن أجمل الأيام كانت في الربيع، عندما كانوا بحجة ما، وفـي ظل كذبة حلوة، يتملصون من القيلولة، ولأنهم لا يملكون المال الكافي ليصعدوا إلى الترامواي كانوا يستطيعون المشي وقتاً طويلاً و صولاً إلى حديقة الاختبار من خلال بقية الشوارع الصفراء، والرمادية في الضاحية. كانوا يعبرون حي الاصطبلات والمستودعات الخاصة بالشركات أو الأفراد، والتي كانت تقوم على خدمتها عربات شحن تجرها الخيول وتنقل الرمل من داخلها، كانوا يحاذون الأبواب الكبيرة ذات المزالق والتي كانت تُسمع خلفها أصوات قوائم الخيل التي تدوس الأرض، وأصوات أنفاسها القوية، وشفا هها التي تبرطم وكذلك الجلبة التي تحدثها السلاسل المستخدمة كلجام لدى ارتطامها بالمعالف بينما هم يتنشقون بتلذذ روائح الروث والتبن والعرق التي تفوح من هذه الأماكن الممنوعة عليهم، والتي يحلم بها جاك قبل نومه. وكان يحدث أن يتباطأ الأولاد أمام اصطبل مفتوح حيث يتم تنظيف الأحصنة قصيرة الأرجل والقادمة من فرنسا في حين هذه الحيوانات كانت تفتح عيونها وتشخص

---

[1] روبنسون كروزو فــي جزيرة نائية.

ناحيتهم بعيون حيوان منفّي دوخته الحرارة، والذباب ثم يتم دفعهم على يد سائقي العربات فيركضون إلى الحديقة الواسعة المزروعة بنباتات عطرية هي الأكثر ندرة، وفي الطريق الكبير المؤدي إلى البحر، حادة ضخمة ومستقيمة فيها أحواض وأزهار كانوا يأخذون هناك هيئة متنزهين غير مكترثين ومتحضرين تحت أنظار الحراس المتوجسين.

ولكن عندما يصلون إلى أول طريق متعامد كانوا يركضون ثانية إلى ركن في الحديقة حيث توجد خيوط أشجار شورى[لخ] ضخمة متلاصقة بشدة بحيث أنك تشعر بحلول الظلام بينما أنت في ظلّها ويتجهّون إلى أشجار الكاوتشوك الضخمة، والتي لا يتمكن المرء من تمييز أغصانها النازلة من جذورها المتعددة.

التي تنزل بالأغصان الأولى نحو الأرض. وأبعد من هذا أيضاً، ونحو الهدف الحقيقي لحملتهم، وكانوا يتجهون إلى أشجار نخل جوز الهند والتي تحمل في قمتها أقراصاً من الفاكهة الصغيرة المتراصة ذات اللون البرتقالي، والتي كانوا يسمونها نارجيلة. هناك، كان عليهم أن يدفعوا أولاً بمستطلعين في كافة الاتجاهات للتأكد من أن أحداً من الحراس لم يكن في الجوار..

[1] شجيرة مستنقعية ذات قشور طبية.

ثم يبدأ بعد ذلك جمع الذخيرة، أي جمع الحصى، وعندما يعود الجميع وجيوبهم ملأى، كان كل منهم يرمي بدورهن نحو الأقراط التي كانت تتأرجح بهدوء في السماء وتعلو على باقي الأشجار، وعند كل رمية يرمونها، كانت بضع حبات من الفاكهة، تتهاوى وهي كانت لا تخصّ سوى الرامي السعيد الذي أسقطها. وكان على الآخرين انتظار أن يلتقط هذا الأخير غنيمته قبل أن يبدأوا الرمي بدورهم، وفي هذه اللعبة كان جاك الماهر في الرمي يعادل بيير مهارة، ولكن الاثنين كانا يتقاسمان مغنمهم مع الآخرين، الأقل حظاً. أما ماكس فكان أقلهم مهارة فهو يضع النظارات ورؤيته ليست على ما يرام..

كان قصيراً وسميناً ومتين البنية ومع ذلك فالآخرون يحترمونه. منذ ذلك اليوم الذي شاهدوه في شجار. وفي العراك الاعتيادي في الشارع حيث يشاركون عادة به. كان جاك خاصة والذي لا يستطيع كظم غيظه وشراسته يرتمي على خصمه ليشبعه ضرباً بأسرع وقت ممكن، وكان مستعداً لاستشارة خصمه وجعله يتحداه..

وذات يوم قيل عن ماكس بأنه «ألماني قذر»، فاسمه يحمل جرساً ألمانياً، وذلك على لسان ابن القصّاب الملقب بفخذ اللحم، فما كان منه إلاّ أن خلع نظارتيه بهدوء، وعهد بهما إلى جوزف وأخذ وضعية الاحتراس كما يفعل الملاكمون الذين كان

يشاهدهم على صفحات الجرائد. ودعا الآخر ليكرر الشتيمة. ودون أن يبدو عليه أنه قد حَمِيَ كان يتجنب هجمات فخذ اللحم ويضربه مرات عديدة دون أن يُخدش، وفي النهاية كان بالغ السعادة حين اسودت عين الآخر من شدة الضرب وكان النصر النهائي.

ومنذ ذلك الحين بدا أن شعبية ماكس قد توطدت داخل المجموعة الصغيرة. وبعد ملئ جيوبهم كانوا يهربون خارج الحديقة، وأيديهم لزجة، متجهين ناحية البحر، وما أن يصبحوا خارج السياج حتى يملؤوا مناديلهم الوسخة بالثمار، ويأكلوا بتلذذ تلك الثمار ذات الألياف والطعم السكري، والمظهر الدهني والتي كانت سهلة التقشير، ولكنها خفيفة على المعدة، ولذيذة الطعم مثل طعم الانتصار، ثم ينسحبون بعد ذلك نحو الشاطئ..

وللوصول إلى هناك كان عليهم أن يسلكوا ما يسمى درب الغنم أو أن يجتازوا الطريق المؤدي ناحية سوق «البيت المربّع» الواقع شرقي الجزائر، إنه في الواقع خط مواصلات يفصله عن البحر قوس دائرة تُشكلّه المدينة التي تستقر على هضابها لتشكّل مسرحاً رومانياً.

وبين هذا الطريق والبحر كان هنالك ورشات ومصانع آجرٍ ومعمل للغاز تفصل فيما بينها مساحات من الرمل الذي تغطيه

ألواح الآجر أو غبار الكلس الذي كان يغطي ركاماً من الخشب والحديد، وبعد اجتياز هذه المنطقة القفراء كان ينفتح أمامهم شاطئ الرمال ذو الرمال الضاربة إلى السواد. وأمواج البحر هناك ليست دائماً صافية وناحية اليمين كان هناك منشأة الحمامات ذات المقصورات والصالة وفي أيام، الاحتفالات كانت صالتها وهي عبارة عن صالة خشبية كبيرة مرفوعة على ركائز تستعمل للرقص.

وفي كل يوم أثناء الموسم كان بائع البطاطا المقلية يشغل موقده، وكانت المجموعة في غالب الأحيان لا تملك ثمن قمع من البطاطا المقلية، وإن صادف أن كان في جيب أحدهم قطعة نقدية كافية[1]، كان يشتري القمع ويتقدم بوقار نحو الشاطئ يتبعه موكب رفاقه المهيب، وقبالة البحر، وفي ظل قارب متهالك كان يزرع قدميه في الرمال ويدع نفسه يسقط على مؤخرته وهو يحمل القمع عمودياً بيد وباليد الأخرى يغطيه حتى لا يفقد أي قطعة منه. وجرت العادة على أن يقدّم قطعة لكل واحد من رفاقه الذين كانوا يأكلونها بخشوع وهي قطعة الحلوى الوحيدة، والساخنة والمغمسة بالزيت والتي كان يتركها عادة لهم. وفي قعر القمع كان هناك على الدوام بعض الفتات

---

[1] قرشين اثنين.

من البطاطا المقلية، وكانت المجموعة تتوسل إليه أن يتقاسمها معهم. وفي غالبية الأحيان، كان الشبعان يفرد الورقة الدسمة ويعرض فتات البطاطا سامحاً لكلّ منهم أن يتناول منها قليلاً كلّ حسب دوره، عدا جان الذي لم يكن يفعل ذلك مع رفاقه، وكانوا يتهافتون بالنتيجة على القطعة الأكبر بين الفتات. وبعد انتهاء الوليمة وبعد المسرّة والخيبة التي تُنسى على الفور، كان يأتي دور الركض إلى الطرف الغربي للشاطئ تحت الشمس القاسية ناحية البناء نصف المهدوم، والذي كان يستخدم كأساس لخيمة بحرية اختفت ذات يوم كان يمكنهم أن يخلعوا ملابسهم. وبسرعة خاطفة كانوا عراة وفي لحظة أخرى في المساء يسبحون بغلاظة وقلّة مهارة، ويهتفون[1] ويبتلعون الماء ويبصقونه متحدّين بعضهم البعض في الغطس، أ و فيمن يمكنه البقاء وقتاً أطول تحت الماء.

كان البحر هادئاً ودافئاً والشمس الخفيفة تغطي رؤوسهم المبللة. أما مجد هذا الضياء فكان يملأ تلك الأجساد الفتية بفرح عارم، جعلهم يصرخون دون توقف. كانوا يمتلكون الحياة والبحر، وكل مايمكن أن يعطيه العالم من ترف، وبذخ،

[1] إن غرقت فسوف تقتلك أمك، ألا تخجل من نفسك بإظهار نفسك هكذا..

كانوا يستهلكونه دون حساب مثل سادةٍ يثقون بثرواتهم الفاحشة.

وكانوا ينسون مرور الوقت، وهم يركضون من الشاطئ إلى البحر، يجففون على الرمل ماء البحر المالح ، الذي جعل أجسادهم لزجة، ثم يغسلون في البحر الرمل الذي حوّلهم إلى اللون الرمادي، كانوا يتراكضون وطيور البحر تبدأ بالطيران، بصرخاتهم السريعة وعلى ارتفاع منخفض فوق الورشات والشاطئ. والسماء التي تخلصت من عبق النهار، أصبحت أكثر نقاءً، وتحوّلت إلى اللون الأزرق، ومن الناحية الأخرى للخليج كانت البيوت التي تأخذ شكل منحنى الخليج، والغارقة حتى اللحظة فيما يشبه الضباب قد أصبحت أكثر وضوحاً. والنهار لم يكن قد رحل بعد، غير أن المصابيح أضيئت خشية حلول الظلام سريعاً، كما هي العادة في أفريقيا.

وكان بيير هو أول من يعطي الإشارة، «لقد تأخر الوقت»، وفي الحال يحدث الافتراق والوداع السريع، وكان جاك وجوزف وجان يركضون باتجاه بيوتهم دون الاكتراث بالآخرين.

كانت يد أم جوزف رشيقة بينما جدة جاك... كانوا يركضون حتى تنقطع أنفاسهم، يركضون دائماً في أمسية بدأت تحلّ بكامل وضوحها وكانوا يضطربون لدى رؤيتهم ضوء أولى قناديل الغاز وعربات الترامواي المضادة التي تفرُّ من أمامهم.

وكانوا يحثون الخطى ويجلسون أرضاً لدى رؤيتهم هبوط الظلام ويفترقون عند عتبات أبواب منازلهم دون أن يودّعوا بعضهم البعض.

في تلك الأماسي، كان جاك يتوقف عند الدرج المعتم الذي تفوح منه رائحة العفونة وكان يستند إلى الحائط في انتظار أن يهدأ قلبه الذي يكاد يقفز من مكانه، لكنه لا يستطيع الانتظار ومعرفته لذلك كانت تجعل أنفاسه أكثر حرارة، وبثلاث قفزات يصل إلى قرص الدرج، ويمر أمام باب مراحيض الطابق، ويفتح الباب، كان هناك ضوء يأتي من نهاية الممر حيث غرفة الطعام، ويتجمد لدى سماعه قرقعة الملاعق، والصحون.

كان يدخل وحول الطاولة كان يرى من خلال الضوء المنبعث من المصباح البترولي المستدير العمّ[1] نصف الأبكم الذي كان يتابع شفط حساءه بصوت مرتفع، وأمه التي مازالت في ريعان العمر بشعرها البني المنسدل كانت تنظر إليه نظرة عذبة جميلة، «.. أنت تعلم جيداً...» ، بدأت الأم بحديثها الذي قاطعته الجدة التي كانت ترتدي فستانها الأسود، وفمها مزموم، وعيناها القاسية الفاتحة. «من أين جئت» - «لقد دلّني بيير على

[1] الأخ.

وظيفة الحساب».. وكانت الجدة تقف وتقترب منه. وتشم رائحة شعره وتمرّر يدها على قدميه التي كانت لا تزال مليئة بالرمل.

- «أنت قادم من الشاطئ».... وكان العم يفصّل جملته - «أنت إذاً كاذب»...

لكن الجدة تمرّ خلفه، وتأخذ من وراء الباب كرباجاً غليظاً يقال له «عصب الثور» كان شديد التنبه له، وتجلده على سيقانه، وإليته بثلاث ضربات، أو أربع تحرقه إلى درجة الصراخ، وبعد ذلك يشدّ نفسه حتى يمنع دموعه إذ تملأ الدموع فمه وحنجرته، أمام صحن الحساء الذي سكبه له عمه الشفوق، وأمه بعد أن تنظر نظرة سريعة إلى الجدة كانت تلتفت إليه بوجهها الذي كان يحبه كثيراً، وتقول: «تناول حساءك، لقد انتهى الأمر، لقد انتهى...»، وحينها فقط كان يشرع بالبكاء..

استيقظ جاك كورمري، ولم تعد الشمس تنعكس على نُحاس الكوة، ولكنها مالت إلى الأفق، وكانت تضيء حينها الجانب الذي يقع مقابله، ولَبِسَ ثيابه، وصعد إلى سطح القارب، قد يصل إلى الجزائر في نهاية الليلة.

5

الأب.. موته.. الحرب.. الاعتداء

كان يضمّها إلى صدره على عتبة الباب، وهو مازال منهك الأنفاس، لأنه صعد الدرج أربعة، أربعة، وباندفاع لا ريب فيه حتى إنَّه لم يخطئ أية درجة، **وكأن جسده كان يحتفظ بالذاكرة الدقيقة لعلو تلك الدرجات** عند نزوله من التاكسي في الشارع الذي كان قد بدأ ينشط في حركته، والذي لازال يلمع في بعض جنباته، بعد سقاية صباحية حوّلتها الحرارة الوليدة إلى بخار متشتت لمحها في المكان المعتاد ذاته في الشرفة الوحيدة الضيقة، للشقة بين الغرفتين فوق مظلة باب الحلّاق – ولكن لم يكن هو الحلّاق ذاته «أبو جوزف» و«جان»، فقد مات بمرض السّل، إنها المهنة، كما قالت زوجته، ولكثرة ما استنشق من الشعر..

تلك المظلّة الملبّسة بصفيح معدني متموج كانت تحتفظ دوماً بحصتها من ثمار التين، والأوراق الصغيرة المجعدّة وأعقاب السجائر القديمة، لقد كانت هناك بشعرها المسترسل دائماً ، ولكنه أصبح أبيض اللون منذ سنوات، وظهرها المستقيم، ورغم سنواتها الثانية والسبعين يمكن إعطائها عمراً يقل عن ذلك بعشر سنين ، بسبب نحافتها الشديدة، وبأسها الظاهر للعيان. وكانت هذه حال كل أفراد العائلة والقبيلة، فهم نحيفون يبدو عليهم عدم الاكتراث ومفعمون بحيوية يبدو أن الشيخوخة لا تؤثر فيها.

فالخال إميل[1]، عند بلوغه سن الخمسين، وهو نصف أبكم، كان يبدو شاباً صغيراً، والجدّة توفيت دون أن تحني رأسها. أما بالنسبة لأمه التي يهفو إليها الآن، يبدو أن شيئاً لم يستطع أن يقلل من صلابتها لأن العشرات من سنوات العمل احترمت فيها المرأة الشابة والتي كان معجباً بها كورمري في طفولته.

عندما وصل أمام الباب، كانت أمه تهمّ بفتحه، وترتمي في ذراعيه، عندها، وكما في كل مرة، عندما يلتقيان كانت تقبله مرتين، أو ثلاثاً، وتضمّه إليها، بكل ما أوتيت من قو، وكان يشعر وهو في ذراعيها بأضلاعها، وبعظامها القاسية،

[1] سيصبح اسمه إرنست فيما بعد..

والبارزة عند الكتفين، والتي كانت ترتجف بعض الشيء بينما كان يتنفس رائحة جلدها العذبة، التي كانت تذكّره بذلك المكان تحت جوزة العنق بين الوترين الوداجيين، والذي لم تعد لديه الجرأة ليلثمه، ولكنه كان يحب أن يشمّه ويداعبه، عندما كان صغيراً، وفي المرات القليلة التي تضعه فيها على ركبتيها، والتي يتظاهر خلالها بالنوم، كان يحشر أنفه في التجويف الصغير الذي كان يعدّ بالنسبة له هو الرائحة النادرة جداً للحنان في حياته كطفل،. كانت تعانقه ، وبعد أن تركته، كانت تنظر إليه لتأخذه ثانية، وتقبّله من جديد. وكأنها قد وزنت داخلها كل الحب الذي تحمله له، والذي تريد التعبير له عنه، وقررت أن الوزنة كانت ناقصة. وقالت له:

- «ولدي، لقد كنتَ بعيداً جداً...»، ثم استدارت وعادت في الحال إلى الشقة، كانت تريد الجلوس في غرفة الطعام المطلة على الشارع، وبدا أنها لم تعد تفكّر به، أو بأي شيء آخر، وكانت تنظر إليه نظرة غريبة، وكأنها الآن، أو على الأقل هذا ما أحسّ به، بأنه كان شيئاً فائضاً لا لزوم له، وكان يزعج عالمها الضيّق الخاوي والمنغلق يحث كانت تتحرك فيه وحدها..

ذلك اليوم، وعلاوة على ذلك، وبعد أن جلس جانبها ، كان يبدو أن القلق يسكنها، وكانت تلقي نظرة إلى الشارع مرة تلو

الأخرى. نظرة مختلسة بعينيها الداكنة والمضطربة والتي كانت تنعم بالسكينة عندما تعود إلى جاك..

أصبح الشارع أكثر ضجة وازداد عدد المارة، وارتفعت قعقعة الخردة وأصوات عربات الترامواي الحمراء الثقيلة، كان كورمري ينظر إلى أمه التي ترتدي بلوزة رمادية تزينها ياقة بيضاء. أمه التي تجلس مواربة على كرسي غير مريح [، ، ، ، ، ، ، ، ،]لخ أمام النافذة حيث كانت على الدوام، وظهرها محني قليلاً بسبب تقدمها في السن، ولكنه لم يكن بحاجة للاتكاء على المسند، كانت يداها مضمومتين على منديل صغير، كانت من حين إلى آخر تلفه على شكل كرة بأصابعها المتخدّرة ثم تتركه في تجويف ثوبها بين يديها الجامدتين، وكان رأسها مائلاً قليلاً ناحية الشارع...

كانت هي نفسها منذ ثلاثين سنة خلت، إذ إنّه خلف التجاعيد، كان يجد الوجه الذي بقي شاباً بصورة عجيبة، وقوسي الحاجبين صقيلين ولامعين، وكأنهما ذابا في الجبهة، والأنف الصغير مستقيمٌ، والفم أيضاً مازال مرسوماً رغم انقباض زوايا الشفتين حول طقم الأسنان.. والرقبة وهي التي تتأذى بسرعة

[1] يوجد هنا إشارتان غير مفهومتين.

مازالت تحتفظ بشكلها رغم الأوتار التي برزت، أما الذقن فقد ارتخى بعض الشيء..

- «هل ذهبت إلى المزيّن؟»... قال جاك، ابتسمت، وكأنها بنت صغيرة أُخذت بخطأ ما، فقالت: - «نعم، أنت مقرف، بمناسبة عودتك»... لقد كانت دوماً مغناجاً على طريقتها غير الظاهرة تقريباً. ورغم الفقر وما يرخيه من ظلٍّ على طريقة اللباس، فإن جاك لا يتذكر أنه قد رآها ترتدي قطعة ملابس بشعة، والآن أيضاً، فاللونان الرمادي والأسود اللذان تلبسهما كانا اختيرا بعناية، هنا يكمن ذوق القبيلة البائس أو الفقير، أو بالنسبة لبعض أولاد العمّ ذوق حرّ..

ولكن الجميع خاصة الرجال، وكما كل سكان ما حول المتوسط، كانوا متعلقين بالقمصان البيضاء وبكسرة السروال ويرون من الطبيعي العناية الدائمة بهذا الأمر، ونظراً لندرة خزائن الملابس يضاف إلى ذلك، عمل النساء الأمهات، أو الزوجات، أما بالنسبة لأمه فكانت تعتبر أنه لا يكفي غسل الملابس، والقيام بأعمال الآخرين المنزلية، وجاك يتذكر ذلك بالكاد، وفي البعيد البعيد، ولكنه يراها على الدوام تكوي سروال أخيه الأوحد، وسرواله هو، إلى أن ابتعد إلى عالمٍ فيه **نساء لا تغسل ولا تكوي.**

قالت الأم: - «إنه المزيّن الإيطالي، عمله جيد..».، أجاب جاك:
- «نعم، ». كان يريد القول - «أنت جميلة جداً، لكنه صمت، وقد كان يعتقد ذلك دائماً، فيما يخص والدته، ولم يجرؤ يوماً أن يقول ذلك لها، ليس لأنه كان يخشى أن يزجر أو لخشيته بأن مثل هذه المجاملة يمكن أن تسرّها، ولكنه اجتياز الحاجز اللامرئي، الذي تقبع وراءه حياتها - وادعة، مهذبة، مرنة، سلبية حتّى ومع ذلك، فلا يمكن أن يصل إلى مكنونها أي شخص أو أي شيء، وكانت منعزلة في شبه طرش ألمَّ بها، وفي صعوبة كلامها، جميلة بالتأكيد، ولكن يصعب الوصول إليها.

خصوصاً، أنها كانت تبتسم أكثر وأن قلبه كان يهفو إليها، نعم، كل حياتها احتفظت بنفس الهيئة المذعورة والخاضعة والمتحفظّة، وبنفس العين التي كانت ترى فيها أمّها قبل ثلاثين عاماً، تضرب جاك بالكرباج دون أن تتدخل، وهي التي لم يسبق لها أبداً أن مسّت أو حتى زجرت أولادها، هي التي لا يمكن الشك في أن هذه الضربات، كانت تعذبها أيضاً، ولكنها كانت تُمنع من التدخل بسبب التعب وعدم القدرة على التعبير والاحترام الذي تكنّه لوالدتها». ...

كانت تدع نفسها لتعاني على مرّ الأيام والسنين من الضرب الذي يتعرض له أطفالها، وتعاني هي نفسها من نهار العمل

المضني في خدمة الآخرين، ومن الأرضيات التي تنظفها وهي جالسة على ركبتيها، ومن الحياة دون رجل، ودون عزاء، وسط زوايا دبقة تنتظر التنظيف، ووسط ملابس وسخة تخص الآخرين، إن أيام المشقة المضافة بعضها للبعض الآخر، شكّلت حياة حُرمت من الأمل، وأصبحت حياة بلا ضغينة من أي نوع حياة جاهلة، عنيدة خاضعة لكل العذابات، عذاباتها هي كما عذابات الآخرين. ولم يسبق له أن سمع شكواها وإن حصل فلكي تقول بأنها متعبة، أو أن خاصرتيها تؤلمانها بسبب غسلة كبيرة. ولم يسبق له قط أن سمعها تتحدث بسوء عن أي كان وإن حصل فلكي، تقول إن أختاً أو عمّة لها لم تكن لطيفة معها، أو أنها كانت «فخورة بها..»..

ونادراً ما كان يسمعها تضحك من كل قلبها. كانت تبتسم أكثر، قليلاً الآن، فهي لم تعد تعمل منذ أن بدأ الأولاد يقدمون لها كل ما تحتاج إليه، كان جاك ينظر إلى الغرفة التي لم تتغير هي أيضاً، إنها لا تريد ترك هذه الشقة، التي اعتادت عليها، أو هذا الحي الذي كان كل مافيه سهلاً إلى حيّ فيه راحة أكبر، ولكن قد يكون كل مافيه صعب، بالنسبة لها. أجل، إنها الغرفة ذاتها، لقد تمَّ تغيير الأثاث الذي أصبح الآن لائقاً، وأقل بؤساً، ولكنه ملاصق للجدار. قالت له أمه: - «أما زلت تفتش؟!»... - «نعم..». ولم يستطع منع نفسه من فتح

صيوان السفرة الذي كان يحتوي دوماً على ماهو ضروري للغاية، ورغم كل ما يتلقاه من التأنيب والتوبيخ، فالفرجة كانت تعريه، كان يفتح دروج الطبقية التي تحوي نوعين أو ثلاثة من الدواء كان يُكتفى بها في هذا المنزل، وتختلط بجريدتين قديمتين أو ثلاثة، وخيطان، وعلبة كرتونية صغيرة فيها أرزاء غير متجانسة، وصورة شخصية قديمة، هنا كان حتّى فائض الأشياء فقيرٌ لأن فائض الأشياء لم يكن يستعمل على الإطلاق. وجاك كان يعرف يما لو أن أمه أقامت في منزل عادي حيث يزخر المنزل بهذه الأشياء كما في منزله هو فإن والدته سوف لن تستخدم إلاَّ ماهو ضروري للغاية..

وكان يعرف أنه في غرفة أمه المجاورة المؤثثة بخزانة صغيرة، وبسرير ضيق وطاولة خشب للزينة وكراسٍ من القش، ونافذتها الوحيدة مزينة بستارة لها ربطة، كان يعرف أنه لن يجد أي شيء إلاَّ بعض الأحيان المنديل الصغير الملفوف على شكل كرة، والذي تتركه على سطح طاولة الزينة الخشبي الذي لا يحوي شيئاً...

وما صدمه بالتحديد عندما اكتشف منازل أخرى وهي منازل رفاقه في المدرسة، وفيما بعد منازل في وسط أكثر ثراءً، هو عدد المزهريات والكؤوس والتماثيل واللوحات التي تزدحم بها الغرفة، أما في بيته هو ، فيقال: - «المزهرية الموجودة فوق

الموقد». الأصيص، الصحون العميقة، وبعض الأشياء التي يمكن أن نجدها، ولا نعرف لها اسماً..

عند خاله، على العكس، يمكن للمرء أن يعجب بالحجر الصلصالي الملتهب الآتي من فوزج[1]، أو أن يأكل المرء في مفرش جاء من كيمبر[2]، أما هو فقد نشأ في وسط فقرٍ عارٍ مثل عُري الموت، فمن بين الأسماء النكرة ، اكتشف عند خاله أسماء العلَمْ، واليوم أيضاً في الغرفة المبلطة والمشطوفة لتوها، لا يوجد فوق قطع الأثاث أي شيء إلاَّ على الطبقية حيث يوجد منفضة سجائر عربية الطراز من النحاس المشغول، وُضِعت تحسباً لقدومه، وعلى الجوار هناك روزنامة أصدرتها مصلحة البريد والبرق، والهاتف، وليس هنالك شيء آخر يمكن رؤيته هنا، وليس هنالك الكثير يمكن قوله، ولهذا السبب كان يجهل كل شيء عن أمه عدا ما عرفه هو بذاته وكذلك الأمر فيما يخص أبيه..

- «أبي؟!».. نظرت إليه وقد بدا عليها الانتباه[3].
- «نعم..».
- «كان اسمه هنري ، ثم ماذا؟!».

---

[1] حجر فوزج: حجر صلصالي رملي ملتهب تصنع منه قوالب – المترجم.

[2] كيمبر: اسم مدينة في منطقة بريتاني شمال غربي فرنسا – المترجم.

[3] الأب – تحقيق – حرب 1914 – اعتداء.

- «لا أعرف..!!..».

- «أليس له أسماء أخرى؟!».

- «أعتقد ذلك، ولكني لا أتذكرها...».

وفجأة شردت، وكانت تنظر إلى الشارع حيث بدأت الشمس الآن تضرب بكل جبروتها...

- «هل كان يشبهني؟!..».

- «نعم، إنَّهُ أنت، أنت شديد الشبه به، كانت عيناهُ فاتحتي اللون، وجبهته مثل جبهتك أنت..».

- «في أية سنة وُلِدَ؟!».

- «لا أعلم، لكني أكبرهُ بأربع سنوات...».

- «وأنت في أية سنة ولدتِ؟!».

- «لا أعلم، انظر إلى دفتر العائلة..».

- «وتوجه جاك صوب الغرفة، وفتح خزانة الملابس، وعلى الرف العلوي بين المناشف، وجد دفتر العائلة، ودفتر النفقات، وبعض الأوراق القديمة المكتوبة باللغة الإسبانية، وعاد حاملاً الوثائق...».

- «وُلِدَ عام 1885، وأنتِ عام 1882م، أنت تكبرينه بثلاث سنوات...».

- «كنت أعتقد أنها أربعة..».

- «قلتِ لي إنَّه قد فقد أمّه وأبيه باكراً، وإنَّ إخوته وضعوه في دار الأيتام».

- «نعم، وأخته كذلك الأمر..».

- «وأهله كانوا يملكون مزرعة؟!».

- «نعم، لقد كانوا ألزاسيين.».

- «كانت المزرعة في أولاد فايت؟!..[1]».

- «نعم، ونحن في الشرَّاقة، إنها قريبة منهم..».

- «في أي سن فقد والديه؟!».

- «لا أعلم ذلك. آه! لقد كان صغيراً، وأخته تركته، هذا ليس جيداً، لم يكن يريد أن يراهم ثانية..».

- «وكم هو عمر أخته؟!».

- «لا أعرف..».

- «وأخوته؟! .. هل كان هو أصغر أخوته؟!».

- «لا، لقد كان ترتيبه الثاني».

- «إذاً، أخوته كانوا أصغر من أن يهتموا بتربيته؟!».

- «نعم، هو ذاك..».

- «إذاً، فليس الذنب ذنبهم..».

---

[1] دائرة الشرَّاقة هي إحدى دوائر الجزائر التابعة لولاية الجزائر عاصمتها الشراقة، وتضمُّ بلديات: الشرَّاقة، أولاد فايت، الحمامات وغيرها....

- «بلى، هم أرادوا ذلك، فبعد خروجه من دار الأيتام فـي سن السادسة عشرة عاد إلى مزرعة أخته، أنهكوه بالعمل، لقد كان ذلك كثيراً بالنسبة له..».

- «هل جاء إلى الشرَّاقة؟!».

- «نعم، أتى إلينا..».

- «وتعرّفتِ إليه حينذاك؟!..».

- «نعم».

وأدارت وجهها صوب الشارع من جديد، وهو وجد نفسه عاجزاً عن المتابعة بنفس الطريق، ولكن هي نفسها أخذت اتجاهاً آخر..

- «لم يكن يعرف القراءة، أنت تعرف ففي الميتم لا يتعلّم المرء شيئاً..».

- «ولكنكِ أريتني بطاقات أرسلها لك إبان الحرب».

- «نعم، لقد تعلّم على يد السيد كلاسيو».

- «في ريكوم[لخ]».

- «نعم، السيد كلاسيو كان هو الرئيس، لقد علّمه القراءة والكتابة».

- «في أي سن؟!».

---

[1] معمل خمور مشهور فـــي منطقة بوش دو رون الفرنسية.

- «عندما كان في العشرين من عمره على ما أظن، لا أعرف، لقد مرَّ وقت طويل على كل هذا. ولكن عندما تزوجنا كان يعرف كل شيء عن أمور وكان يمكنه أن يعمل في أي مكان. لقد كان متفتح الذهن..».

كانت تنظر إليه، وأضافت: - «مثلك أنت».

- «وبعد ذلك؟!..».

- «بعدها، أتى أخيك كان والدك يعمل لدى ريكوم، التي أرسلتهُ إلى مزرعتها في سان لا بوتر..».

- «سان لا بوتر..؟».

- «نعم، ثم وقعت الحرب، وقد مات أثناءها، وبعثوا لي بشظية القنبلة». (شظية القنبلة التي فتحت رأس والده كانت موضوعة في علبة بسكويت صغيرة خلف نفس المناشف في الخزانة نفسها مع البطاقات المكتوبة في الجبهة، والتي كان يمكنه أن يستظهرها عن ظهر قلب بكامل جفافها، واختصارها..

- «**عزيزتي لوسي، أنا على مايرام، سوف نغير معسكر إقامتنا غداً، اعتني جيداً بالأولاد، قبلاتي، زوجك**».

«أجل، وفي عمق تلك الليلة التي وُلِدَ فيها ، خلال هذا الانتقال، مهاجر ابن مهاجر، اتفق أن بدأت أوربا على إطلاق مدافعها كلها معاً، بعد ذلك بأشهر لتطرد عائلة كورمري من سان لا بوتر، **هو** باتجاه الجيش في الجزائر، **وهي** إلى شقة والدتها

الصغيرة، فـي ضاحية فقيرة حاملة بين ذراعيها الطفل الذي تورم من اللسعات قرب نهر سيبوز[لخ]»

- «لا تقلقي يا أمي، فعندما سيعود هنري سنغادر..».

والجدة، مستقيمة الظهر، شعرها أبيض ينسدل إلى الخلف، وعيناها فاتحتا اللون، وقاسيتين، قالت لها: - «بنيتي يجب أن تعملي..».

- «إنّه مع الزواويين». [بر]

- «نعم، لقد شارك فـي الحرب فـي المغرب..».

لقد كان ذلك صحيحاً، ففي عام 1905، كان والده يبلغ العشرين عاماً، وكان قد قام كما يقال بخدمة نشطة ضد المغاربة [تر]..

ويتذكر جاك ما قاله له مدير مدرسته عندما التقاه قبل ذلك بسنوات فـي شوارع الجزائر . فالسيد لوفيسك استدعي إلى الخدمة عندما استدعي والده، ولكنه لم يبق فـي الوحدة نفسها إلاَّ شهراً واحداً، وهو لم يعرف كورمري إلاَّ معرفة بسيطة حسب ما قال، فهو قاس بشكل حاد، سَكُوت، غير متطلب

---

[1] سيبوز: نهر فـي الجزائر يبلغ طوله 225 كم، يقع شمال شرقي الجزائر فـي بلدية مجاز عمار بولاية قالمة. المترجم.

[2].زواوي: جندي فرنسي بلباس أهل الجزائر – المترجم..

[3] 1914

وعادل. ومرة واحدة فقط ظهر فيها كورمري غير مسيطر على نفسه، ففي الليل وبعد نهار حاد الحرارة في هذه الزاوية من جبال الأطلس، حيث تُرابط مفرزته في قمة هضبة يحرسها مضيق صخري كان كورمري ولوفيسك مكلفين بالحراسة في عمق الجرف. ولم يستجب أحد لندائهما. وعند صفّ من أشجار الصبّار، وجدوا رفيقهما منكس الرأس ويتجه بصورة غريبة ناحية القمر. وللوهلة الاولى، لم يتعرّفا إلى وجهه ذي الشكل الغريب، ولكنه بكل بساطة قد ذُبح وفي فمه المتورم والداكن، وجدا قضيبه كاملاً، إذاً، فقد رأوا الجسد ذا السيقان المتباعدة وسروال الزواوي ممزقاً، ووسط الشقّ ومع الانعكاس غير المباشر لضوء القمر هذه المرّة شاهدا بركة الدم الآسن. وعلى بعد مئة متر خلف صخرة كبيرة، الحارس الثانين والذي كان على الهيئة نفسها، وأُعطي الإنذار، مضاعفة المواقع العسكرية ، وعند الفجر، وكانا عادا إلى المعسكر، كان كورمري يقول: إن الآخرين ليسوا رجالاً، ولوفيسك الذي كان يفكر أجابه: - «إنَّ هذا هو تصرّف الرجال بالنسبة لهم فهم في بلدهم، وهم يستعملون كافة الوسائل المتاحة»...

وكعادته أخذ كورمري هيئته العنيدة وقال: - «ربما ولكنهم على خطأ، فالرجل الحقيقي لا يفعل ذلك..».، وكان لوفيسك قد قال بأنهم يعتبرون في بعض الظروف، الرجل الحقيقي

بالنسبة لهم يفعل أي شيء و[يدمّر كل شيء]، لكن كورمري الذي أخذته موجة جنون غاضبة صرخ قائلاً: - «لا، الرجل الحقيقي يمتنع عن ذلك، أو إن لم نقل... ». ثم هدأ. وأضاف بصوت مبهم: - «أنا فقير ، وخرجتُ من الميتم، وقد ألبسوني هذا اللباس، وجرّوني إلى الحرب، ولكني أمتنع عن فعل ذلك..».

- «هناك فرنسيون لا يمتنعون عن فهل هذا..».
- «إذاً ، هم أيضاً ليسوا رجالاً..».

وفجأة صرخ قائلاً:

- «إنّها سلالة قذرة، يالها من سلالة! كلّهم كذلك، كلهم...».

ودخل إلى خيمته، ووجهه شاحب مثل قطعة قماش ضاربة إلى البياض.

وعندما فكر جاك بالأمر ، فهم أن هذا المعلم العجوز البعيد عن ناظريه هو من علّمه الكثير من الأشياء عن والده. ولا شيء أكثر من ذلك، إن لم نقل أن صمت أمّه كان قد دفعه ليحزر بعض الاشياء عنه إنه رجل خشن وحزين، عمل طوال حياته، يقتل حسب الطلب، ويقبل ما لا يستطيع تجنبه ولكنه في قرارة نفسه كان يرفض أن يباشر ذلك من تلقاء نفسه. إنه رجل فقير أخيراً: - «إنَّ الإنسان لا يختار الفقر، ولكن الفقر يمكن أن

يدوم طويلاً، وحاول كورمري أن يتخيل بمساعدة القليل مما تعرفه والدته ذلك الرجل الذي تزوج ورزق بولدين وعاش فترة أفضل ثم استدعي إلى الخدمة في الجزائر العاصمة، عندما أُعلنت التعبئة العامة[1]، وكذلك سفر الليل الطويل مع زوجته الصابرة، والأولاد الذين لا يحتملون، والفراق في محطة القطار، وبعد ثلاثة أيام، وصوله إلى الشقة الصغيرة في بلكور[2] بصورة مفاجئة وهو يرتدي البزّة الحمراء، والزرقاء ذات السروال الفضفاض لفوج الزواوي، وكان يتصبب عرقاً بسبب اللباس الصوفي الذي يرتديه تحت شمس تموز اللاهبة، ويحمل قبعة قشّ في يده بسبب عدم توفر الكوفيات أو الخوذات، وكان قد ترك سراً المستودع الموجود تحت قناطر الرصيف البحري وجاء مسرعاً ليقبّل أطفاله وزوجته ، وذلك قبل الإبحار مساءً، باتجاه فرنسا، التي ما عرفها قبلاً، وقد قبّلهم بقوة وبسرعة، ورحل بالخطوة نفسها، وزوجته الواقفة على الشرفة، أشارت بيدها إشارة ردّها وهو مسرع ملتفتاً إلى الوراء ملوحاً بقبعة القشّ قبل أن يعاود الركض في الشارع الرمادي

---

1 أُعلن ذلك فـــي جرائد الجزائر العاصمة. هو لم يكن قد رأى فرنسا أبداً، ولكنه عاش فيها، وقُتل هناك..

2 بلكور: هو اسم حي زمن الاستعمار الفرنسي عُرِفَ بعده باسم محمد بويزداد وهو اسم أول متعهد بنى فيه المباني، ويقع الحي ف يالعاصمة الجزائرية – المترجم..

اللون بسبب الغبار والحرارة، وقبل أن يختفي بعد ذلك أمام السينما فـي ضوء الصباح الباخر اختفاءً لا رجوع فيه..

لا ليس من خلال والدته عرف كل هذا ، أمه التي ليس لديها أدنى فكرة عن التاريخ ولا الجغرافيا فهي تعرف فقط إنها تعيش على أرض قرب البحر، وأن فرنسا كانت فـي الجهة المقابلة من ذلك البحر، وهـي لم تعرفها مطلقاً، فقد كانت فرنسا تقع فـي مكان غامض ضائعة فـي ليل بهيم حيث يمكن الوصول إليها عن طريق ميناء اسمه مرسيليا ، كانت تتخيله مثل ميناء الجزائر، الذي يشع بضيائه على مدينة يُقال إنها جميلة تُسمى باريس، وحيث يوجد منطقة أخيراً اسمها الألزاس، وهـي المنطقة التي جاء منها أهل زوجها هاربين منذ زمن بعيد من أمام أعداء اسمهم الألمان الذين كانوا على الدوام شريرين وقساة خصوصاً مع الفرنسيين، دون أي سبب، وكان الفرنسيون مجبرين فـي الدفاع عن أنفسهم ضد هؤلاء الرجال الشرسين ولكن بالنسبة لإسبانيا فإنها كانت تتوه فـي معلوماتهم. ولكن على كل حال فهذا البلد ليس بعيداً ، فأهلها من الماهونيين، كانوا قد رحلوا عنها منذ مدة طويلة تقارب طولاً مدة رحيل أهل زوجها عن أراضيهم، جاؤوا ليستقروا فـي الجزائر لأنهم كانوا

يتضورون جوعاً فـي ماهون[1] وهي لا تعرف حتى إن هذا المكان هو جزيرة لأنها لم ترها أبداً، أما البلدان الأخرى فأسماؤها تصدمها أحياناً دون أن تستطيع لفظها بصورة صحيحة، وعلى كل حال، فهي لم تسمع أحداً يتحدث عن النمسا وهنغاريا، ولا عن صربيا، أما روسيا، فكانت مثل إنكلترة، اسمها صعب عليها. وكانت تجهل ماذا تعني كلمة أرشيدوق، ولم تستطع مطلقاً تكوين كلمة سراييفو المؤلفة من أربعة مقاطع، والحرب كانت هناك مثل غيمة بشعة حيث الكثير من التهديدات الغامضة وتلك الغيمة لا تستطيع منعها من اجتياح السماء، كما لا يمكننا منع وصول الجراد، أو العواصف المدمّرة التي تذوب على بطاح الجزائر.

كان الألمان يجبرون من فرنسا على دخول الحرب، مرة جديدة، وسوف تأتي المعاناة، ليس هناك أسبابلكل ذلك، لم تكن تعرف تاريخ فرنسا،ولا ماذا يعني التاريخ، ذاته، إنها تعرف تاريخها هي، وبالكاد تاريخ أولئك الذين تحبهم، ومن تحبهم كان عليهم أن يذقوا العذاب مثلها.

فـي غابر الزمان الذي لا يمكنها أن تتخيله، ومن التاريخ الذي تجهله، وفـي ليلة أكثر ظلمة، جاءت جماعات غامضة، يترأسها

[1] ماهون: هي جزيرة مينوركا الإسبانية.

دركي متعب، ويتصبب عرقاً، حينها كان يجب الرحيل عن المزرعة، حيث كانوا يستعدون لموسم قطاف العنب..

كان الخوري هناك في محطة القطار بون[لخ] بمناسبة رحيل من استدعوا للجيش، وقالت له: «ينبغي أن تصلي»، وأجابت: - «نعم سيدي الخوري».. ولكن في الحقيقة هي لم تسمع لأنه، لم يكلمها بصوت عالٍ كفاية، ومن جهة ثانية ففكرة الصلاة لم تخطر في باله، - «ولم تكن تريد أن تزعج أحداً». — وبعد رحيل زوجها في بزّته الجميلة متعددة الألوان، سوف تعود قريباً وكل الناس كانوا يقولون بأن الألمان سيعاقبون ولكن بانتظار حصول ذلك عليهم إيجاد عمل ما، ومن حسن الحظ أن أحد الجيران قال لجدته: - «إنّهم يحتاجون إلى نساء في مصنع ذخيرة، العتاد الحربي، وأنهم سوف يعطون الأفضلية لزوجات الجنود، وخصوصاً إن كُن مُعيلات ، وأنه قد يحالفها الحظ في العمل عشر ساعات في ترتيب الأنابيب الكرتونية الصغيرة تبعاً لحجمها ولونها ويمكنها بذلك أن تجني المال لجدته فالأولاد يحتاجون للطعام ريثما تتم معاقبة الألمان ويعود هنري بعد ذلك..»..

[1] بون: كانت المدينة الرابعة فـــي الجزائر، والميناء البحري الثالث، المترجم.

طبعاً لا تعرف بأنه يوجد جبهة روسيّة ولا ماذا تعني كلمة جبهة ولا تعرف أن الحرب يمكن أن تمتد إلى البلقان والشرق الأوسط، والكوكب كله. بالنسبة لها، كان كل شيء يجري في فرنسا، حيث دخل الألمان دون سابق إنذار، وهاجموا الأطفال.

في الحقيقة، إن كل شيء كان يحدث هناك حيث نُقِلَت القطعات العسكرية الإفريقية وفيها « هنري كورمري » بالسرعة القصوى،وكما هي إلى منطقة لا يعرفونها، هي مارن، ولم يكن بالإمكان إيجاد خوذات لهم، فالشمس لم تكن حادة إلى درجة إكماد الألوان الزاهية كما في الجزائر، بحيث كانت موجات الجنود العرب والفرنسيين الذين يرتدون طرازاً من اللباس فاقعاً وأنيقاً ويعتمرون قبعات القش ، هي أهداف حمراء وزرقاء يمكن ملاحظتها على بعد مئات الأمتار، كانت موجات الجنود ترتمي إلى النار، ويتم تدميرها بالعشرات، وتصبح سماداً لأرض ضيقة كان الجنود يلتصقون بها على مدى أربع سنوات، جنود أتوا من كل الأصقاع، كانوا يداسون في أوكار موحلة متراً بعد متر، تحت سماء أنهكتها القنابل المضيئة، والقنابل المدويّة التي تقصف الحواجز الضخمة، وتعلن عبثية الهجمات. ولكن في الوقت الحالي، لم يعد هنالك أوكار، هناك فقط جنود إفريقيا الذين ذابوا في النار، كما

تذوب الدمى المصنوعة من الشمع، والمتعددة الألوان، وكل يوم كان يولد مئات اليتامى في كل بقاع الجزائر من العرب والفرنسيين من الصبيان، والبنات، والذين ولدوا دون أبٍ، وينبغي لهم أن يتعلموا كيف يعيشون دون تعليم أو ميراث..

وبعد ذلك بأسابيع، وذات صباح يوم أحد، وعلى صحن الدرج الداخلي للطابق الوحيد، وبين الدرج والمرحاضين العاتمين، واللذين فيهما فتحتين سوداوين على الطريقة التركية، واللذين يتم تنظيفهما دوماً بمادة الكريزيل المطهّرة، ولكنهما على الدوام يفوحان برائحة نتنة، كانت لوسي كورمري وأمها جالستين على كرسيين واطئين تفرزان العدس على ضوء جبهية الباب فوق الدرج، وكان الصغير في سلة ثياب يمصّ جزرة مليئة بلعابه عندما ظهر سيّدٌ رصينٌ وأنيقٌ على الدرج، وفي يده مغلف. ووضعت المرأتان الصحون من أيديهما على وقع المفاجأة، ومسحتا أيديهما من العدس الذي تفرزانه في قصعة ووضعت بينهما. وتوقف الرجل على الدرجة ما قبل الأخيرة، ورجاهما ألاَّ تغيرا جلستيهما، وطلب مدام كورمري. أجابت الجدّة: «...ها هي أنا أمها»، وقال السيد بأنه العمدة، ويحمل خبراً مؤلماً، وهو أنزوجها مات في ساح الشرف، وفرنسا كلها تبكيه، وفي ذات الحين هي فخورة به. ولم تسمع «لوسي كورمري» لكنها نهضت، وهو مدّ يده لها بكل احترام، ونهضت الأم ويدها على

فمها، وقالت: «يا إلهي...».. باللغة الإسبانية، واستبقى السيد يد لوسي في يده، ثم صافحها من جديد بيديه الاثنتين، وتمتم بكلمات معزّية ثم أعطاها المغلّف، واستدار ثم نزل الدرج بخطىً ثقيلة.

وسألت لوسي:

- ماذا قال؟!...

- مات هنري، قُتِل...

كانت لوسي تنظر إلى المغلف الذي لم تفتحه فلا هي تعرف القراءة، ولا أمها، وقلّبته بين يديها دون أن تنبس بكلمة أو تنهمر لها دمعة، وكانت عاجزة عن تخيل هذا الموت البعيد في عمق ليل مجهول. ثم وضعت المغلف في جيب وزرة المطبخ، ومرّت جانب الطفل دون أن تلقِ إليه نظرة، وذهبت إلى غرفتها التي تقاسمتها مع طفليها، وأوصدت الباب وأباجورات النافذة المطلّة على الباحة، ثم تمددت في سريرها حيث بقيت صامتة دون أية دمعة، بينما تضغط بيدها المغلف الموجود في جيبها، والذي لم تستطع قراءته، وكانت شاخصة في الظلام إلى المصيبة التي لم تستطع أن تفهمها لخ.

---

[1] كانت تظن أن شظايا القنابل تتفجر وحدها دون تدخل.

نادى جاك: «أمي» وهي كانت تنظر إلى الشارع على الدوام بالهيئة نفسها، فلم تسمعه. ولمس يدها النحيلة والمغضنة، فالتفتت نحوه تعلو وجهها ابتسامة.

- «بطاقات أبي، تعرفينها، تلك التي أرسلها من المشفى»...
- «نعم»..
- «هل وصلتك بعد مجيء العمدة»؟!
- «نعم»..

لقد فتحت شظية رأسه، ونُقل في أحد القطارات الصحيّة التي تقطر دماً، وتملؤها الضمادات والقش، وتقوم بنقل المصابين من مكان حدوث المجزرة إلى مشافي الإخلاء في سان بريوك. وهناك استطاع خربشة بطاقتين عسى أن تكون كتابتهما صحيحة، فهو لم يعد مبصراً.. «قد جُرِحتُ، ليس الأمر خطيراً.. زوجك»، ثم مات بعد بضعة أيام، وكانت الممرضة قد كتبت: «هذا أفضل بالنسبة له، فهو قد يبقى كفيفاً، أو مجنوناً، لقد كان شجاعاً حقاً..».. ثم شظية القنبلة...

ومرّت دورية مؤلفة من ثلاثة مظليين يسيرون الواحد تلو الآخر في الشارع، وبأيديهم أسلحتهم، وينظرون في كافة الاتجاهات، أحدهم كان أسود اللون، طويل القامة، ومرن مثل حيوان جميل في جلد مرقّط..

قالت: «إنهم يتعقبون العصابات ثم أنا مسرورة لأنك ذهبت إلى قبره أنا أصبحت عجوزاً لأفعل ذلك، إنه بعيد، هل هو جميل؟!»

- ماذا، أتعنين القبر؟!..

- نعم..

- إنه جميل وعليه ورود...

- نعم، الفرنسيون هم حقاً شجعان..

كانت تقول ذلك، وهي على قناعة به، ولكنها ما عادت تفكر بزوجها الذي نسيته الآن ومعه نسيت التعاسة الماضية، ولم يتبق شيء من هذا الرجل لا في داخلها ولا في المنزل، هذا الرجل الذي افترسته نار كونية ولم يتبق منه إلاَّ ذكرى رقيقة مثل رماد جناح فراشة أحرقتها نار مشتعلة في الغابة..

- «اليخنة سوف تحرقك، انتظر..»

نهضت لتذهب إلى المطبخ فأخذ مكانها ونظر بدوره إلى الشارع الذي لم يتغير منذ سنوات بمحلاته ذات الألوان الكامدة والتي تقشر طلاؤها بسبب الشمس، فقط صاحب محل التبغ في الجهة المقابلة كان قد استبدل بقطع طويلة مصنوعة من مادة بلاستيكية بألوان متعددة ستارة مصنوعة من قصب قصير مجوّف كان جاك لا يزال يسمع صوتها المألوف عندما كان يجتازها ليدخل حيث يوجد لائحة المطبوعات والتبغ اللذيذة

ويشتري.. «الشجاع» حيث كان متحمساً لقصص عن الشرف والشجاعة.

وكان الشارع يشهد الآن حركته الاعتيادية في صباحات يوم الأحد. كان العمال بقمصانهم البيضاء المغسولة والمكونة حديثاً يتوجهون وهم يثرثرون إلى المقاهي الثلاثة أو الأربعة التي تفوح منها رائحة سمك الشفش الطازج ورائحة اليانسون.

وكان هناك عربٌ يمرون فقراء هم أيضاً لكنهم يرتدون ملابس نظيفة برفقة نسائهم المحجبات دائماً لكنهن ينتعلن أحذية من طراز لويس الخامس عشر. وفي بعض الأحيان، تمرّ عائلات بأكملها ترتدي أجمل ثيابها كانت إحداها تجرّ ثلاثة أطفال أحدهم يتنكر بزي مظلي في اللحظة التي كانت فيها دورية المظليين تعاود المرور مسترخية وعلى ما يبدو غير مهتمة أو مبالية.

وفي اللحظة التي دخلت فيها لوسي كورمري إلى الغرفة وقع الانفجار، بدا أنه قريب جداً وضخم ولم يكف عن الاهتزاز ممتداً لحين من الوقت. وبدا أنه لم يُسمع منذ زمن بعيد صوت انفجار مماثلز أما حبابة مصباح غرفة الطعام، فكانت ما تزال تهتز داخل القوقعة الزجاجية المحيطة بها والتي تلعب دور الثريا..

تراجعت والدته إلى داخل الغرفة وهي شاحبة الوجه وعيناها مليئتان برعب لم تستطع السيطرة عليه، وكانت تترنح بعض الشيء..

وقالت: « - إنه هنا، إنه هنا...».

قال جاك: - لا، وركض إلى النافذة، كان الناس يتراكضون لا يعرف إلى أين..

ودخلت عائلة عربية عند تاجر الأقمشة في الجهة المقابلة، وهي تحثّ الأطفال للدخول واستقبلهم التاجر وأقفل الباب بالمزلاج وبقي مزروعاً خلف الواجهة الزجاجية وهو ينظر إلى الشارع. وفي هذه اللحظة عادت دورية المظليين التي كانت تركض بسرعة تقطع الأنفاس ولكن أخذت الاتجاه المعاكس وبدأت السيارات تصطف بسرعة على طول الرصيف، وتتوقف وأَخلي الشارع في بضع ثوانٍ..

واستطاع جاك رؤية جمع غفير في مكان أبعد عندما أنحني قليلاً وذلك بين سينما موسيه وموقف الترامواي وقال: «سأذهب لألقي نظرة»...

وفي زاوية شارع بريفوست بارادول[1] كانت مجموعة من الرجال تصيح غاضبة «إنها سلالة قذرة».. قال هذا أحد العمال الذي

[1] رأى الحادثة قبل مجيئه لرؤية أمه؟..

كان قصير القامة ويرتدي كنزة محبوكة ضيقة موجهاً كلامه إلى عربي ملتصقين في باب العربات قرب المقهى. وتوجه نحوه.

قال العربي: «أنا لم أفعل شيئاً...»...

- أنتم كلكم عصابة وزمرة من السفلة[لخ] ثم ارتمى ناحيته أما البقية فقد سحبوه. وقال جاك للعربي: «تعال معي»... ثم دخل برفقته إلى المقهى الذي كان يديره جان ابن الحلاق وصديق طفولته. وكان جان هناك هو ذاته لم يتغير إلاَّ من بعض التجعدات قصيراً ونحيفاً وجهه ماكر وشديد الانتباه. قال جاك: «هو لم يفعل شيئاً أدخله عندك».. ونظر جان إلى العربي وهو يمسح طاولة المقهى. قال له: تعال ثم اختفيا في عمق المقهى. ولدى خروجه كان العامل ينظر شزراً إلى جاك..

قال جاك: «لم يفعل شيئاً... – يجب قتلهم جميعاً – هذا ما يقال إذا كان المرء غاضباً. فكِّر...». أما العامل فقد رفع كتفيه قائلاً:

«اذهب هناك ثم يمكنك أن تتكلم بعد أن ترى العصيدة..»

– إعادة تكوين اعتداء كيسو في الجزء الثالث وبهذه الحالة إعطاء دلائل الاعتداء ببساطة في مكان أبعد..

كل هذا المقطع حتى كلمة العذابات محاطة بدائرة وموضوع عليها إشارة استفهام..

[1] كانت الشتيمة مقذعة فاكتفيت بكلمة سفلة بما لا يؤثر في المضمون – المترجم..

كانت جلبة سيارات الإسعاف ترتفع سريعة ومستعجلة ثم ركض جاك موقف التراموي وكانت القنبلة قد انفجرت في العمود الكهربائي الموجود قرب الموقف. وكان عدد كبير من الناس في انتظار وصول التراموي وكانوا يرتدون أبهى ملابسهم. أما المقهى الصغير المجاور فكان يضج بالصراخ ولا نعرف إن كانت تلك صيحات غضب أو عذاب ثم قفل راجعاً إلى أمّه. وكانت منتصبة ولكنها شاحبة اللون «اجلسي» قالها ثم اقتادها نحو الكرسي القريب جداً من الطاولة. وجلس قربها، وهو يأخذ بكلتي يديها وقالت:

- حدث ذلك مرتين، هذا الأسبوع، أنا أخاف الخروج..

قال جاك: - لم يحصل شيء سيتوقف كل ذلك.

- نعم..

ثم نظرت إليه نظرة غامضة كما لو أنها كانت يتقاسمها أمران، هما الثقة التي توليها لذكاء ابنها وثقتها أن الحياة بكاملها قائمة على تعاسة لا يمكن الحيلولة دونها، ويمكن للمرء فقط أن يكابدها.

- هل تفهمني، أنا عجوز، ولم أستطع الركض..

وعادت الحمرة الآن إلى خدّيها، وفي البعيد كانت تُسمع أصوات سيارات الإسعاف السريعة والمستعجلة، ولكنها لم تكن

تسمعها. تنفست بعمق وهدأت رويداً رويداً، ثم ابتسمت، لابنها ابتسامتها الجميلة والقوية..

لقد كبرت مثل كل عائلتها في المخاطر، والخطر يمكن أن يعتصر قلبها، ولكنها تكابده كما الآخرون، إنه هو من لا يستطيع تحمّل هذا الوجه المتغضن.. من القلق الذي اجتاحها على حين غرّة، قال لها: «تعالي معي إلى فرنسا»، لكنها هزّت رأسها

-«بحزن:.. آه، لا، البرد قارس هناك والآن أصبحت عجوزاً، أريد أن أبقى هنا»

العائلة

قالت له أمه: «آه، أنا أشعر بالسعادة عندما تكون هنا ولكن تعال في المساء فتخفف من سأمي، إني أشعر بالملل في فترة المساء أكثر من أي وقت، ففي الشتاء يصبح الليل أطول، ليتني تعلمت القراءة، وأنا لا أستطيع أن أحيك الصوف في الليل، إذ إن عيناي تؤلمانني، وعندما لا يكون **إيتيان** هنا أنا أخلد للنوم باكراً، وأنتظر وقت الطعام، إنه وقت طويل ساعتان على هذه الحال. لو كانت الصغيرات عندي لتحدثت معهن، لقد طعنت في السن، ربما تكون رائحتي كريهة، إذاً هذا هو الحال، فأنا وحيدة..».. تَكَلَّمَتْ دفعة واحدة مستخدمة جملاً قصيرة، وبسيطة، ومتتابعة، كما لو أنها أرادت أن تفرغ ما كان يجول بخاطرها وهو الأمر الذي صمتت عنه حتى الآن. ثم نضبت أفكارها ، وصمتت مجدداً، وأطبقت فمها، وكانت عيناها العذبتان الكئيبتان تنظران من خلال فتحات التهوية المغلقة في صالة الطعام إلى الضوء الباهر القادم من الشارع، وكانت دوماً في

المكان ذاته وعلى الكرسي غير المريح ذاته، وابنها كان يدور كما في الماضي حول الطاولة التي تتوسط الغرفة[لخ].

ونظرت إليه من جديد، وهو يدور حول الطاولة[بر]:

- «هل هي جميلة سولفيرنيو[تر]؟!»..

- «نعم، إنها نظيفة، ولكنها تغيرت عن آخر مرة رأيتها فيها».

- «نعم، تغيرت..»

- «لقد أرسل الطبيب تحياته لك أتتذكرينه؟..»

- لقد مضى وقت طويل على ذلك..»

- «لا أحد يتذكر أبي...»

- «لم نبق وقتاً طويلاً هناك، ثم إنه لم يكن يتكلم كثيراً؟!»..

- «أمي؟!»

كانت تنظر إليه نظرة تائهة وعذبة دون أن تبتسم..

- «كنت أظن أن أبي وأنتِ لم تعيشا أبداً في مدينة الجزائر»..

- «لا.. لا..»

- «هل فهمتني؟!..»..

---

[1] العلاقة مع الأخ هنري «الشجار»..

[2] الأطباق التي كانوا يأكلونها: يخنة المعلاق – يخنة سمك الموره، حمص.... الخ.

[3] سولفيرنيو: بلدة فرنسية تقع في جنوب غربي فرنسا في منطقة أكيتن، المترجم.

لم تكـن قـد فهمـت، لقـد توقـع ذلـك مـن خـلال هيئتهـا المرتعبـة قليلاً..

- «كمـا لـو أنهـا كانـت تعتـذر ثـم أعـاد سـؤاله مركّـزاً علـى مقاطعة..»

- «لم تسكنا معاً مدينة الجزائر؟!..»..

- «لا ...»

- «إذاً ، متى ذهب أبي لحضور إعدام بيريت؟»

قال ذلك، وهو يضرب بحدّ يده على رقبته حتى نفهمه ، وأجابت حالاً:

- «نعم، نهض في الثالثة ، وذهب إلى سجن بارباروسا».

- «إذاً، فقد كنتم في مدينة الجزائر..»

- «نعم..»

- «ومتى كان ذلك؟!..»

- «لا أعرف، لقد كان والدك يعمل في معمل ريكوم.»

- «قبل أن تذهبا إلى سولفيرينو..»

- «نعم..»

قالت: «نعم»، وقد يكون جوابها لا ينبغـي العـودة زمنيـاً بـذاكـرة حالكـة، فلـيس هنـاك أي أمـر مؤكـد. فـذاكـرة الفقـراء أقـل تغذية، من ذاكرة الأغنياء، ونقاط العلاّم المكانية فيها أقل لأن الفقـراء نـادراً مـا يتركـون المكـان الـذي يعيشـون فيـه وكـذلك

الأمـر بالنسـبة لنقـاط العـلام الزمنيـة لأن حيـاتهم رتيبـة ورماديـة اللون...

طبعاً هناك ذاكرة القلب التي يقال عنها إنها الأكثر وضوحاً، ولكـن القلـب يسـتهلك في الشـقاء والعمـل، وهـو ينسـى بصـورة أسرع في ظل العذابات، أما الوقت الضائع فلا يتم تداركه إلاّ عند الأغنياء، أما بالنسبة للفقراء فهم يحددون فقط آثار الطريق المؤدي إلى الموت، ثم لا ينبغي لهم أن يتذكروا كثيراً حتى يستطيعوا أن يتحملوا حياتهم، ينبغي لهم المكوث قريباً جداً من الأيام ساعة بعد ساعة، كما تفعل أمه، بالرغم عنها، بما أن المرض الذي أصابها في شبابها (في الواقع ووفق ما ذكرت الجدة أنه كان مرض التيفوئيد لكن التيفوئيد لا يترك مثل تلك الآثار ، أو ربما يكون مرض الحمى الصفراء أم ماذا؟!)..

بمـا أن مـرض الشـباب هـذا قـد تركهـا صـمّاء مضـطربة في كلامها ثم منعها من تعلم ما يعلّم لأشد الناس حرماناً كانت مجبرة إذاً على الرضوخ الصامت، وكان هذا أيضاً أسلوباً وقعت عليه لتواجه حياتها، وماذا كان عليها أن تفعل غير ذلك؟!ومن يمكنه أن يفعل شيئاً آخرَ لو كان مكانها؟!..

أراد منهـا أن تـتحمس لكـي تصـف لـه رجـلاً مـات قبـل أربعـين سنة، وقاسمته حياته (هل قاسمته حياتها حقاً؟!)، ، خلال خمس سنوات إنها لم تستطع فعل ذلك وهي لم تكن متأكدة حتى

إنها كانت أحبته بشغف وعلى كل حال لم يستطع هو أن يسألها عن ذلك، فهو أيضاً كان أبكماً وعاجزاً أمامها لكن على طريقته... حتى إنَّه لم يكن يريد في أعماقه معرفة ما كان بينهما وكان ينبغي التخلي عن معرفة شيء ما فيها. حتى هذا التفصيل الذي أثّر فيه عندما كان صبياً ولاحقه طوال حياته حتى في أحلامه حين نهض أبوه في الثالثة لحضور تنفيذ حكم إعدام بمجرم مشهور، فقد علم بهذا الأمر من جدته..

لقد كان بيريث عاملاً زراعياً في مزرعة في منطقة الساحل وهي قريبة جداً من مدينة الجزائر وكان قد قتل بضربات مطرقة أرباب عمله وأطفالهم الثلاثة في المنزل.

- «بدافع السرقة؟!.. جاك الصبي هو من سأل هذا السؤال..»
- «نعم، وكان ذلك جواب الخال إيتيان.»
- «لا.. قالت الجدة دون أن تعطي أية تفسيرات.»

لقد وُجدت الجثث الثلاث مشوهة، وكان المنزل ملوثاً بالدماء التي وصلت آثارها إلى السقف وتحت أحد الأسرة، وُجد الطفل الأصغر في العائلة، مازال يتنفس، ولكنه مات بعد ذلك، ولكنه وجد في نفسه بقية رمق ليكتب على الجدار المطلي بالكلس وبإصبعه المغمس بالدم: «بيريث هو الفاعل»... ولوحق القاتل وعُثر عليه وقد أقام في الريف...

والرأي العام الذي روعته الجريمة كان يطالب بعقوبة الإعدام التي لم يُجادل فيها.. وتم تنفيذ حكم الإعدام في مدينة الجزائر، أمام سجن باربروسا وبحضور جمع غفير...
وكان والد جاك قد استيقظ ليلاً وذهب ليشهد الإعدام الرادع لجريمة – حسبما قالت جدته – كانت قد أثارت سخطه -. ولكن لم يُعرف ماذا جرى هناك، فقد تم تنفيذ حكم الإعدام دون وقوع أي حادث على ما يبدو. لكن والد جاك عاد صامتاً ونام، ، ثم استيقظ ليتقيأ مرات عدة ثم يعود إلى النوم.
لم يكن يريد بعد ذلك أن يتحدث عمَّا رآه، وفي المساء حين سمع جاك نفسه هذه القصة كان يحاول التغلب على غثيان أصابه، عندما كان يجترّ التفاصيل التي رويت له، وتلك التي كان يتخيلها، وكان يتمدد على طرف السرير متكوماً على نفسه، ليتجنب ملامسة أخيه الذي كان ينام معه.. وخلال حياته كلها لاحقته هذه الصور حتى في لياليه وعلى فترات متباعدة، ولكن بانتظام كان يعوده كابوس مفضّل متنوع في أشكاله، ولكن موضوعه كان واحداً..
لقد كانوا يبحثون عنه، هو **جاك كورمري** حتى ينفذوا حكم الإعدام بحقه، وبعد استيقاظه بوقت طويل، كان يهزأ من خوفه وقلقه، ويعود بارتياح إلى حقيقة أنه لن يتم إعدامه على الإطلاق.

إلى أن وصل إلى سن الرجولة فكانت القصة حوله قد أصبحت مثل تنفيذ إعدام وقد دخلت بين الأحداث التي يتوقع على العكس أن تكون مستبعدة الحدوث.

والواقعُ لم يعد يخفف من وقع أحلامٍ غذّاها القلق نفسه خلال سنوات [محدّدة] للغاية وهو ذلك القلق الذي هزَّ والده والذي أوصى به له كميراث وحيد جلي وواضح.

ولكن هناك رابطة غامضة كانت تربطه بالميتة المجهولة للقديس سان بريوك (الذي لم يفكر هو كذلك أنه يمكن أن يموت ميتة عنيفة).. وفوق ذلك فأمه التي عرفت تلك القصة، ورأت التقيؤ ، ونسيت ذلك الصباح كم كانت تجهل تغير الزمن..

فبالنسبة لها مازال الزمن هو ذاته حيث يمكن للمصيبة أن تحدث دون سابق إنذار.

أما الجدة فهي على العكس من ذلك، إذ إنها تمتلك فكرة صحيحة أكثر عن الأمور فكانت تردد على مسامح جاك:

- «سوف تنتهي حياتك على المقصلة».

لم لا؟!، فما هو الخارق في هذا الموضوع، هي لاتعلم إن كان ذلك سيحدث، ولكن في وضعها هي لم يكن حدوث مثل ذلك الأمر ليدهشها منتصبة بثوبها الأسود، عالمة بالغيب، جاهلة وعنيدة، هي على الأقل لم تعرف الخضوع أبداً، وقد سيطرت

علـى طفولـة جـاك أكثـر مـن أي شـخص آخـر، لقـد نشـأت في كنف أهلها الماهونيون في مزرعة صغيرة في السـاحل، وتزوجـت مـن مـاهوني شـاب طويـل وهـش كـان أخوتـه قـد اسـتقروا في الجزائـر منـذ عـام 1848م، بعـد المـوت المـروّع لجـدهم مـن ناحيـة أبيهم، فقد كـان شاعراً في ذلك الوقت ويؤلف أبيات الشعر حين كـان يركـب ظهـر جـواد رديء، ويسـير في الجزيـرة بـين جـدران الحجـر الجاف الواطئة التي تؤلف حدود بساتين الفاكهة. وخلال إحـدى تلـك النزهـات قـام أحـد الأزواج المخـدوعين – وقـد أخطـأ عندما رأى من بعيد خيال شخص يرتدي قبعة سـوداء ذات حـواف واسعة، زوج مخدوع يعتقد أنه يريد معاقبة العشيق – قام بإطلاق النار في ظهر الشاعر. ونموذج الفضائل هذا لم يورث شيئاً لأولاده أيضاً، أما النتيجة البعيدة لسوء التفاهم الـدامي هـذا حيـث لقـي الشاعر حتفه، فكانت استقرار عائلة من الأميين علـى الشـاطئ الجزائري فريق من الأمـيين الـذين تكـاثروا بعيـداً عـن المدرسـة، مربوطين بعمل مضنٍ تحت شمس حارقة.
لكن زوج الجدّة ومن خلال صُوَرِهِ كان قد احتفظ بشيء ما من جدّه الملهم فقد كان وجهه نحيفاً مرسوماً بعناية، عينـاه حالمتـان يعلوهمـا جـبين واسـع، وبطبيعـة الحـال لم يكـن مـؤهلاً لمواجهـة المرأة الشابة والجميلة والحيوية التي تزوجها فقد ولـدت لـه تسـعة أولاد مـات منهمـا اثنـان في سـن الطفولـة. وأُنقـذت البنـت بصـعوبة

ولكنها كانت ذات عاهة، أما الأخير من الأولاد فقد ولد أصمَ وشبه أبكم..

وفي المزرعة الصغيرة العاتمة ودون أن تتوقف عن إنجاز ما يوكل إليها من عمل جماعي مضنٍ، كانت تقوم بتربية أسرتها الكبيرة، فقد كانت تضع إلى جانبها عصا طويلة بينما كانت تجلس إلى الطاولة، ودون أن تكلف نفسها عناء إبداء ملاحظات عبثية، كانت تضرب من يُذنب بالعصا على رأسه فوراً. كانت تحكم العائلة طالبة الاحترام لها ولزوجها من الأولاد الذين عليهم أن يستخدموا صيغةٍ «أنتم» بدلاً من «أنت» وفق التقليد الإسباني..

لم يستمتع زوجها طويلاً بهذا الاحترام إذ إنه مات مبكراً، فقد استُهلِكَ بسبب الشمس والعمل، وربما الزواج، ودون أن يتمكن جاك من معرفة المرض الذي ألمَّ به، وأدى إلى وفاته. وبعد أن عاشت وحيدة قامت الجدة بتصفية المزرعة الصغيرة، وجاءت لتقيم في مدينة الجزائر مع الأولاد الصغار، أما الآخرون الذين كانوا أكبر سناً، فقد وُضعوا في العمل عند بلوغهم سن التدرّب.

وعندما كبر جاك قليلاً كان يمكنه ملاحظة الفقر، والحظ العاثر الذي لازمها، ولم يتبق لها من أولادها إلاَّ ثلاثة بقوا معها،

كاترين كورمري[1] التي كانت تعمل في البيوت. وأصغر الأولاد ذو العاهة، والذي أصبح صانع براميل شديد البأس، وجوزف الولد البكر، الذي لم يتزوج، وكان يعمل في السكك الحديدية. وكان الثلاثة يتقاضون رواتب زهيدة، وهذه الرواتب مجتمعة.

كان ينبغي لها إعالة أسرة مكونة من خمسة أفراد، وكانت الجدّة تدير مال العائلة، ولهذا السبب، فإنَّ أول شيء صدم جاك، كان فظاظتها ليس لأنها كانت بخيلة، بل إنها كانت شحيحة، ومقترة، حتى بالهواء الذي يتنفسه المرء، والذي كان لازماً للبقاء على قيد الحياة.

كانت هي من يشتري ملابس الأولاد، كانت والدة جاك تعود متأخرة من عملها في المساء، وتكتفي بالمشاهدة والاستماع إلى ما يقال، وتتفوق عليها حيوية الجدة، لذلك كانت تترك لها كل شيء.. وبذلك فإن جاك وأثناء حياته كطفل كان عليه أن يرتدي معاطف مطرية طويلة للغاية، لأن الجدة، كانت تشتريها لتدوم طويلاً، وتعتمد على الطبيعة حتى تصبح قامة الولد ملائمة للباس الذي يرتديه، لكن جاك، كان يكبر ببطء، ولم يقرر أن ينمو إلاَّ عندما بلغ سن الخامسة عشرة. وكان اللباس قد

[1] أم جاك كانت تسمى لوسي ومن الآن فصاعداً سوف تسمى كاترين..

استهلك قبل أن يسوّى. فكان يُشترى له لباس آخر، وفق مبادئ ا لاقتصاد نفسها، وكان رفاق جاك يهزأون من زيّه المضحك، والذي لم يكن أمام جاك سوى نفخ معاطفه عند الحزام حتى يجعل المضحك أكثر أصالة. عدا ذلك فإن تلك المواقف المهنية، كانت تُنسى بسرعة، في قاعة الصف، حيث كان جاك متفوقاً، وكذلك في الباحة حيث كانت كرة القدم هي مملكته.

ولأن الباحة كانت اسمنتية، ونعاله كانت تهترئ بسرعة هائلة، كانت الجدة تمنع جاك من اللعب بالكرة خلال الاستراحة، وكانت تشتري بنفسها لأحفادها أحذية متينة وثخينة، كانت تأمل أن تدوم إلى الأبد، ولكي تمدّ في عمرها كانت تعمل على دق مسامير مخروطية ضخمة في النعال، كانت ذات فائدة من ناحيتيه: إذ يجب أن يُستهلك الحذاء قبل النعال، ويسمح ذلك بالتحقق من مخالفة حظر اللعب بالكرة من جهة ثانية.

لقد كان الركض على أرض إسمنتية يستهلكها في الحقيقة بسرعة كبيرة، ويعطيها مظهراً أملسَ يكشف عن المذنب. وفي كل مساء، عند عودته إلى المنزل، كان على جاك أن يتوجه إلى المطبخ حيث كانت الجدة تحرس القدور السوداء، وكان يطوي ركبته ويمد نعله في الهواء بوضعية حصان على وشك وضع حذوة في حافره، وكان على جاك أن يظهر نعليه. وبالطبع

فإنه لا يستطيع مقاومة نداء رفاقه، وانجذابه إلى لعبته المفضلة، وكـان كـل اهتمامـه منصـباً لـيس علـى التـدرب علـى فضـيلة مستحيلة، ولكن على تمويه الذنب الذي ارتكبه. كـان يُمضـي وقتاً طويلاً لدى خروجه من المدرسة الابتدائية والثانوية لاحقـاً في حك نعليـه في أرض مبللة، كانـت الخديعـة تمـرّ أحيـانً، ولكـن جاك وصل إلى وقت أصبح فيه استهلاك المسامير فاضحاً، حتـى إن النعل نفسه، قد أصيب، وفي كارثة هي الأخيرة عقب ضربة خاطئـة بالقـدم علـى الأرض أو علـى الشـبك المحـيط بالأشـجار، والذي يحميها، كان النعل يُنزع من الجـزء الأعلـى من الحـذاء، ويعود جاك إلى المنزل، وحذاؤه قد حُزم بخيط ليجعل بوز الحذاء مغلقاً.

كانت تلك الأمسيات هي أمسيات الكرباج «عصى التأديب»..

كانت والدة جاك الباكي تقول له على سبيل المواساة:

- «إنَّ هذا مكلف حقاً، لماذا لم تنتبه؟!».

ولكن هي لم تكن تضرب أولادها أبداً، وفي اليوم التالي كان يفتعل حذاءً قماشياً بينما يُحمل الحذاء إلى الإسكافي، وكـان يسـتعيده بعـد يـومين أو ثلاثـة، وقـد أينـع بالمسـامير الجديـدة، وكـان عليـه أن يـتعلم مجـدداً، كيـف يحـافظ علـى التـوازن في نعليه الزلقتين وغير الثابتتين.

وكانت الجدة قادرة على الذهاب أبعد من ذلك، وبعد عدة سنوات، لم يستطع أن يتذكر تلك القصة دون أن يعتريه انقباض من الخجل والاشمئزاز.

لم يكن لا هو، ولا شقيقه يتلقيان مصروف جيب أبداً، إلاَّ في بعض الأحيان، عندما يوافقان على القيام بزيارة إلى عمٍّ يعمل في التجارة أو عمة، حظيت بزواج موفق. أما بالنسبة للعم، فهما يحبانه، وكان ذلك سهلاً بالنسبة لهما، أما العمة، فقد كانت تتقن فن التباهي بثرائها، ويفضل الولدان البقاء دون نقود، ودون بهجة ناتجة عن مالها على أن يشعرا بالإهانة، وفي كل الأحوال، ورغم أن البحر والشمس وألعاب الأطفال في الحي، كانت مُتَعاً مجانية إلاَّ أنَّ البطاطا المقلية، وحلوى السكر المطبوخ، والحلويات العربية، وبعض مباريات كرة القدم، خصوصاً بالنسبة لجاك كانت تتطلب قليلاً من النقود بعض القروش على الاقل.

في إحدى الأمسيات، عاد جاك من إحدى خدماته حاملاً بيده طبق تفاح غراتان، كان أوصله إلى فرّان الحي (لم يكن في المنزل، لا غاز، ولا موقد طبخ، فالطعام كان يُطهى على سخان كحولي، وبالنتيجة لا يوجد فرن في المنزل، وعندما يُراد تحضير طبق يحتاج إلى فرن، كان يُحمل جاهزاً إلى فرّان الحي، الذي يضعه في الفرن، ويراقب نضوجه لقاء بضعة

قروش)، وكان البخار يتصاعد أمام جاك من خلال الورق الذي غُطي به، ويفيد في حمايته من الغبار في الطريق، ويسمح كذلك بإمساك الطبق من الطرفين. وعلى ساعد ذراعه الأيمن، وضع الشبكة المليئة بالمؤونة التي اشتراها بكميات كبيرة قليلة (ربع كيلو سكر، ونصف ربع كيلو من الزبدة، وبخمسة قروش جبن مبشور...الخ.). ولم تكن ثقيلة، وكان جاك يشمّ رائحة الغراتان اللذيذة، ويمشي بخطىً حذرة متجنباً زحمة الشارع، الذي كان المارة فيه يذرعون الرصيف، جيئة وذهاباً، في تلك الساعة، وقعت من جيبه المثقوب في تلك اللحظة قطعة نقود من فئة الفرنكين سُمع رنينها على الرصيف، فالتقطها جاك ووضعها في جيبه الآخر، وفكر فجأة. - «كان يمكن أن تضيع مني». ومباراة كرة القدم في اليوم التالي، والتي كان قد طردها من تفكيره، عادت تراوده ثانية.

ولا أحد في الحقيقة علّم الولد ما هو الخير والشر.. فبعض الأمور كانت ممنوعة، ومخالفتها تستحق العقاب بفظاظة أما بعض الأمور الأخرى، فلم تكن كذلك، وحدهم معلميه، وحين يسمح لهم وقت البرنامج المدرسي، كانوا يتحدثون عن الأخلاق، ولكن حتى في هذا، كانت المحظورات أكثر دقة ووضوحاً من الشروحات.

إن الشيء الوحيد الذي استطاع جاك أن يراه ويختبره في موضوع الأخلاق ، كان ببساطة هو الحياة اليومية لعائلة عاملة، حيث لا أحد فيها قد فكر على ما يبدو أن هناك طريقاً سوى العمل المضني لكسب المال اللازم للحياة، ولكن في هذا درس عن الشجاعة وليس عن الأخلاق. بيد أن جاك يعرف أن إخفاء هذين الفرنكين. هو أمر سيء، ولم يكن يريد أن يفعل ذلك، وماكان ليفعل ذلك. قد يتمكن ربما كما في المرة السابقة، أن ينسّل من بين لوحين في الملعب العتيق في حقل المناورات ويتمكن من حضور المباراة دون أن يدفع. ولهذا السبب لم يفهم هو نفسه لماذا لم يُعِدْ النقود المتبقية في الحال، ولماذا بعد ذلك بلحظات، ولدى رجوعه من المرحاض، أعلن عن فقدانه قطعة نقود من فئة الفرنكين، وقعت منه في الحفرة، عندما كان يرفع سرواله الداخلي، إن عبارة المرحاض كانت كلمة رفيعة للغاية، لوصف مكان صغير تمَّ تخصيصه في بناء صحن الدرج المؤدي إلى الطابق الوحيد في المبنى، ليس فيه مجرى هواء، ولا ضوء، أو صنبور ما ، وكان المرء يقوم بما عليه القيام به على دكّة مرتفعة قليلاً محصورة بين الباب والجدار الداخلي في ثقب يجب سكب صفائح من الماء فيه بعد الاستخدام، ولكن لا شيء يمكنه أن يمنع الرائحة الكريهة من الوصول إلى الدرج.

كان تفسير جاك للواقعة قابلاً للتصديق[1] وكان يجنبه العودة إلى الشارع بحثاً عن قطعة النقود الضائعة، وكان التفسير يختصر أي تطور للموضوع، وببساطة، كان قلب جاك يعتصر، وهو يعلن الخبر السيء، وكانت جدته في المطبخ، تفرم الثوم والبقدونس على لوح خشبي مقعر ومخضر لكثرة الاستخدام، توقفت عن العمل ونظرت ناحية جاك، الذي ينتظر انفجار غضبها، ولكنها كانت صامتة، وتتفحصه بعينيها الثاقبتين والجلديتين. قالت أخيراً:

- «أنت متأكد من ذلك؟».

- «نعم، لقد أحسست بها وهي تقع..».

وقالت: - «حسناً جداً، سوف نرى ذلك...».

وجاك المرعوب، رآها تشمّر كم ساعدها الأيمن، وتخرج ذراعها الأبيض، والمتجعد، وتذهب إلى صحن الدرج أما هو فقد رمى بنفسه إلى غرفة الطعام، وهو على وشك التقيؤ، عندما نادته وجدها أمام مغسلة الصحون وذراعها تغطيها كمية من الصابون رمادي اللون، وتغتسل بكمية كبيرة من الماء، وقالت:

- «لم يكن هناك شيءٌ، أنت كاذب..». وتأتأ هو قائلاً:

- «ولكن قد تكون سُحبت ربما».

[1] لأنه زعم مرة أنه فقد نقوداً في الشارع، كان مجبراً على إيجاد تفسير آخر.

وترددت قائلاً: - «ربما.. ولكن إن كذبت فلن يكون الخبز الذي تأكله مباركاً.. لا لم يكن خبزاً مباركاً، لأنه فهم في اللحظة ذاتها ، أنه ليس البخل، هو من دفع جدته للبحث في القاذورات، ولكنها الحاجة المرعبة ، التي تجعل من فرنكين مبلغاً هاماً في هذا المنزل، لقد فهم ذلك، وكان يرى أخيراً، وبصورة واضحة، وخجل اجتاحه، أنه قد سرق فرنكين من جهد وتعب ذويه..».

واليوم، لم يستطع جاك الذي ينظر إلى والدته أمام النافذة أن يجد تفسيراً كيف استطاع ألاّ يعيد مع ذلك الفرنكين وجد متعة في حضور مباراة كرة القدم في اليوم التالي.

إن ذكرى الجدّة كانت مرتبطة أيضاً بمواقف مخجلة أقلّ مشروعية، كانت تتمسّك بإعطاء دروس على الكمان لِ «هنري» شقيق جاك الأكبر..

أما جاك فقد انقطع عنها بسبب تفوقه في دراسته، وزعمه أنه من المستحيل أن يحافظ على سويته الدراسية مع هذا العمل الإضافي.. وبذلك تعلّم شقيقه أن يطلق بعض الألحان المريعة على هذا الكمان البارد ، وكان يمكنه على كل حال، أن يعزف مع أخطاء في العلامات الموسيقية بعض الأغاني الرائجة حينذاك، وعلى سبيل التسلية، فإن جاك الذي يملك صوتاً

رخيماً، تعلّم الأغاني ذاتها دون تبصّر النتائج الفاجعة لهذا الأمر البريء..

ذات يوم أحد، عندما كانت جدته تستضيف بناتها المتزوجات[1]، وكانت الاثنتان أرملتي حرب، وكذلك أختها التي مازالت تسكن مزرعة الساحل، وتتحدث طوعاً اللهجة العامية الماهونية أكثر من الإسبانية، وبعد أن قُدمت فناجين القهوة المرّة على طاولة مغطاة بقماش كتاني مشمع دَعَتْ حفيديها لإقامة حفلة موسيقية مرتجلة..

جاء الولدان مذهولين ، ويحملان حاملة النوتة المعدنية والتوليفة الموسيقية على صفحتين، إذ يجب تنفيذ ذلك، وجاك غنى بطريقة أو بأخرى، وهو يتتبع عزف هنري أغنية رامونا:

- «حلمت حلماً رائعاً يا رامونا ، لقد ذهبنا نحن الاثنين».

أو - «ارقصي، هذا المساء، أريد أن أحبك». أو أيضاً حتى نظل في أجواء الشرق - «ليالي الصين، ليالي لطيفة، ليلة حب، ليلة نشوة، ليلة حنان...».

وفي مرات أخرى أغنية واقعية تطلب منهما خصيصاً للجدة، وكان جاك يغنيها، وتقول: - «هل هو أنت يا رَجُلي أنت الذي أحببته بشدة، أنت الذي أقسمت أن الله يعرف كيف لا يجعلني

[1] بنات أخيها..

أبكـي مطلقـاً». كـانت هـذه الأغنيـة هـي الوحيـدة الـتي اسـتطاع جـاك أن يغنيهـا بشـعور صـادق لأن بطلـة الأغنيـة تسـتعيد لازمتهـا الحزينـة في النهايـة، وسـط جمهـور غفـير كـان يحضـر مشـهد إعدام عشيقها المشاكس. ولكن الجدة كانت تذهب أبعد مـن ذلـك في الأغـاني الـتي تفضـلها إلى أغنيـة تحـب فيهـا الكـآبـة والحنان بلا شك، واللتان تبحـث عنهمـا عبثـاً في طبعهـا الخـاص. إنها أغنية «سيرينادا توسيللي» والـتي يقـوم هنـري وجـاك بإتقانهـا وأدائها بكثير من الحماس..

رغم أن اللكنة الجزائرية لا تناسب حقاً طبيعة الأغنية الفاتنة في فـترة بعـد الظهـر المشمسـة أربـع أو خمـس نسـاء كـن يرتـدين الأسود، وكن قد نزعن جميعهن الوشاح الإسباني، عدا جدتـه، وكن يتحلقن في أنحاء الغرفة قليلة الأثاث، والموزّع على جدران طليـت بـاللون الأبـيض، كانـت النسـوة تشـجع بإيمـاءات هـادئـة بالرأس الألحان والكلمات إلى أن قاطعت الجدة الـتي مـا عرفـت يومـاً التمييـز بـين «دو» و«سـي»، ولم تكـن تعـرف حتـى أسمـاء العلامات الموسيقية..

قاطعـت الأغنيـة باقتضـاب: - «لقـد ارتكبـت خطـأً».، وهـو مـا قطع حماسة الفنانين. ويكرران المقطع - «هنـا».، تقـول الجـدة مشيرة إلى الخطـأ، وبعـد أن يـتم تـدارك المقطـع الصـعب بطريقـة مرضية، وعلى هواها كانت تومئ برأسها علامـة الموافقـة، وفي

النهايــة، كانــت النســوة تصــفقن للفنــانين الموهــوبين اللــذين يفككان على عجل أدواتهما ليذهبا للقاء رفاقهما في الشارع، كانت كاثرين كورمري، وحدها تقبع في الزاوية، ولا تنبس ببنت شفة، ومازال جاك يتذكّر فترة ما بعد ظهر ذلك الأحد، حين همَّ بالخروج حاملاً ألحانه، وسمع إحدى العمّات تهنئ والدته عليه، وهي أجابت: - «نعم، لقد كان ذلك جيداً، إنه ذكي».، وكما لو أن الملاحظتين يربطهما شيء ما. لكنه حين التفت فهم العلاقة. كانت نظرة والدته مرتجفة، عذبة، ومضطربة، وحين وقعت عليه، جعلت الولد يتراجع، ويفرّ، ويقول في نفسه حين نزل الدرج: - «هي تحبني، إنها تحبني إذاً».، وكان يعرف في الوقت نفسه، أنه يحبّها بجنون، وتمنّى بكل جوارحه أن تحبّه ، وهو الأمر الذي كانت لديه شكوك إزاءه..

وكانت جلسات السينما تحمل بهجة أخرى للطفل... كانت حفلات السينما يوم الأحد بعد الظهر، وفي بعض الأحيان، أيام الخميس. وسينما الحي كانت على بعد بضع خطوات من المنزل، وهي باسم شاعر رومانسي، مثل اسم الشارع الذي تقع فيه. وقبل دخول السينما، كان ينبغي تجاوز عقبات من البسطات التي يقوم عليها باعة عرب، ويبيعون فستق العبيد، وحمصاً مجففاً، ومملحاً، وترمساً، وسكر الشعير الملوّن بألوان

فاقعة، وكذلك أنواعاً من المقرمشات الحامضة، واللزجة.. وبائعون آخرون، يبيعون حلويات شهية، من بينها حلويات على شكل أهرامات محززة بالكريمة، ومغطاة بالسكّر زهري اللون، وآخرون يحملون فطائر تقطر زيتاً وعسلاً. وحول تلك البسطات كان هناك سحابة من الذباب والأطفال يجذبهم السكر ذاته، وكانوا يئزون، أو يزعقون، تلحقهم سباب الباعة، الذين كانوا يخشون فقدان توازن بسطاتهم بين أيديهم، فيهشّون بالحركة نفسها الذباب والأولاد. بعض الباعة استطاعوا أن يحتموا بمظلة السينما التي تمتد على إحدى الجنبات، وبعضهم الآخر، وضع ثروته اللزجة تحت الشمس الحارقة، والغبار الذي يثيره لعب الأولاد. وكان جاك يواكب الجدّة، التي وبهذه المناسبة، فردت شعرها الأبيض، وزينت ثوبها الخالد بمشبك فضي. كانت تُبعد بوقار الجمهور الصغير الزاعق الذي يسّد المدخل، وتتقدم إلى الكوة الوحيدة لتحصل على الحجوزات. والحق يقال: إنه لا يوجد خيار إلاَّ بين حجوزات إما على كراسٍ خشبية، كان مسندها عند الجلوس يحدث صريراً، أو على مقاعد يتنازعها الأطفال الذين يتشاجرون عليها، بعد أن يفتح لهم باب جانبي في اللحظة الأخيرة.

وعلى طرفي المقاعد معتمد يحمل سوطاً «عصب الثور» مهمته حفظ النظام في قطّاعه، وليس من النادر أن تراه يطرد ولداً أو

مراهقاً كثير الحركة. كانت السينما تعرض حينها أفلاماً صامتة، وتبدأ أولاً بعرض أحداث الساعة، فيلماً كوميدياً قصيراً، والفيلم الكبير، وفي النهاية، فيلم ذو أجزاء، يعرض جزء منه أسبوعياً، والجدة كانت تحب هذه الأفلام ذات الحلقات خصوصاً، حيث تنتهي كل حلقة بمشهد تشويق، مثلاً، البطل ذو العضلات المفتولة، يحمل بين ذراعيه الفتاة الشقراء الجريحة، وهو يسير على جسر مصنوع من النباتات المعترشة المتسلقة، وفي الأسفل، مدفع صاخب. والصورة الأخيرة، من الحلقة الأسبوعية، تُظْهِرُ يداً موسومة بوشم، وتحمل سكيناً بدائية، تحزّ النبات المعترش للجسر، والبطل يتابع سيره بأعجوبة رغم التحذيرات الزاعقة للجمهور، الذي يقبع في المقاعد، والسؤال هنا ليس معرفة ما إذا كان الاثنان سينجوان، فالشك في ذلك ليس مسموحاً، وإنما فقط هو معرفة كيف سيتمكنان من النجاة، وهو الأمر الذي يوضح أن الكثير من المتفرجين العرب والفرنسيين، كانوا يعودون في الأسبوع التالي ليشاهدوا الحبيبين في سقطتهما المميتة، وقد أوقفتهما شجرة، بعثتها العناية الإلهية، وكان يرافق المشهد على طوله مرافقة موسيقية على البيانو، تقوم بها عانس، كانت تواجه سخرية جمهور المقاعد بهدوء جامد، بظهرها النحيف الذي يشبه زجاجة مياه معدنية، ذات سدادة، وهي ياقة الدانتيلا في فستانها.

وكـان جـاك يـرى علامـة فارقـة في أن الآنسـة المميـزة، تلـبس قفـازات في يـديها في حـرارة الجـو الخانقـة، ودورهـا لم يكـن سـهلاً، كمـا يُعتقـد، فـالتعليق الموسـيقي علـى الأحـداث، كـان يجبرها على تغيير اللحـن، وفقـاً للحـدث الـذي يـتم عرضـه، فهـي تنتقل دون مقدمات من موسيقى رقص ممتع هدفه مرافقة تقديم عروض أزياء الربيع إلى مسيرة جنائزية لشوبان بمناسبة فيضـان في الصـن، أو جنـازة شخصـية هامـة في الحيـاة الوطنيـة، أو في الساحة الدولية.

فمهما كـان نوع القطعة الموسيقية، كـان عزفها لا يُشـوش عليـه في كل الأحوال، كمـا لـو أنَّ عشـر أصـابع ميكـانيكيـة جافـة، كانت تُنجز على ملامس البيانو المصغّرة، منـاورة، يقودهـا منـذ الأزل جهاز غاية في الدقة.

وفي الصـالة ذات الجـدران العاريـة، والأرضـية المغطـاة بقشـور الفسـتق، تخـتلط روائـح مـادة الكـريـزل المطهـرة برائحـة بشـرية نفاذَّة..

وعلـى كـل حـال، فقـد كـانـت هـي مـن يوقـف الضـجة العاليـة، عندما تهـاجم بدواسـات البيـانو لتعـزف مقدمـة موسـيقية لإضـفاء جوٍّ يعلن بدء الحفلة الصباحية، وكـان أزيـز قـوي يعلـن أن جهـاز العرض قد بدأ في الحركـة، وعنـدها كـانت تبـدأ محنـة جـاك،

فالأفلام كانت صامتة، وتحتوي في المواقع على العديد من النصوص المكتوبة، التي تشرح الحدث.

وبما أن الجدة لم تكن تعرف القراءة ، كان دور جاك، هو أن يقرأ لها، ورغم تقدمها في السن، لم تكن الجدة صمّاء، ولكن في البداية، كان يجب التفوق على ضجة البيانو، وكذلك ضجة الصالة، حيث كانت ردود فعل الجمهور وافرة، وفوق ذلك، فرغم البساطة الشديدة لهذه النصوص، فكثيراً من المفردات، لم تكن مألوفة، بالنسبة للجدة، والبعض منها كان غريباً، بالنسبة له، هو بالذات. ومن جهته، فإنَّ جاك كان حريصاً على عدم إزعاج جيرانه، وحريصاً خصوصاً ألاَّ يعلن للصالة برمتها أن جدته لا تعرف القراءة: - (هي نفسها أحياناً، وعندما يأخذها الخجل، كانت تقول له بصوت مرتفع في بداية العرض: «سوف تقرأ لي لأني نسيت نظارتي في المنزل».).

وكان جاك لا يقرأ النصوص بصوت مرتفع، وبكامل قوة صوته عادة، وتكون نتيجة ذلك، أن الجدَّة التي لا تفهم إلاَّ نصف الكلام، تطالبه بإعادة النص، وكان يعيده بصوت أقوى، وكانت ردود الفعل المتمثلة بـ - «صه»... تجعله يخجل خجلاً فظيعاً، وكان يتلعثم بينما تقوم الجدّة بتوبيخه، وفي الحال، يظهر نصّ آخر أكثر غموضاً، بالنسبة للعجوز المسكينة، التي لم تفهم النص السابق حتى، وكان الغموض

يتصاعد إلى أن يجد جاك قدراً كافياً من الحضور الذهني ليلخص بكلمتين لحظة مفصلية من «إشارة زورو»، على سبيل المثال.

بطولة «**دوغلاس فيربانكس**[لخ] **الأب**» الشرير أراد أن يخطف منه الفتاة، هكذا تلفظ جاك بوضوح، وحزم، مستفيداً من توقف البيانو عن العزف، أو توقف جلبة الصالة. وكان كل شيء قد توضح ،ويستمر الفيلم، ويتنفس الصبي الصعداء، وبصورة عامة، كانت الإزعاجات تتوقف عند هذا الحدّ. لكن بعض الأفلام من نوع اليتيمان، كانت معقدة أشد التعقيد، ومُحاصراً بين متطلبات جدته، واحتجاجات الجيران التي كانت تتزايد باضطراب، كان ينتهي به الأمر بأني بقى صامتاً، ومازال يذكر أحد الأفلام حين غضبت الجدة، وخرجت من الصالة، بينما لحقها هو باكياً. وكان منزعجاً من فكرة أنه أفسد إحدى أعز مُتعِ الجدة التعسة، وكذلك خسارة النقود التي تم دفعها..

أما والدته فلم تكن تذهب إلى هذه الجلسات، فهي لا تعرف القراءة، كذلك الأمر ، وفوق ذلك، فقد كانت شبه صمّاء،

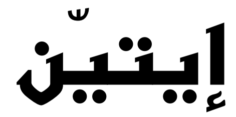
[1] دوغلاس فيدبانكس هو ممثل ومخرج وسيناريست أمريكي، ولد عام 1883، وتوفي عام 1939، أهم أدواره كانت في أفلام إشارة زورو والفرسان الثلاثة.

وكـان تعبيرها ـ في الـكـلام، أقـل منـه مقارنـة بوالـدتها ، وكـانـت حياتهـا لا تسـلية فيهـا حتـى اليـوم، فخـلال السـنوات الأربعـين الماضـية، ذهبـت إلى صـالة السـينما مـرتين أو ثلاثـاً ، ولم تفهـم هنـاك شـيئاً ، ولكـي لا تـزعج الأشـخاص، الـذين دعوهـا إلى هناك، كانت تقول فقط:

- «إنَّ الفسـاتين الجميلـة ، أو أن صـاحب الشـارب، كـان يبـدو شـريراً».، ولم يكـن بمقـدورها الاسـتماع إلى المـذياع كـذلك الأمر، أما بالنسبة للجرائد ، فكانت تتصفح أحياناً تلك التي فيها صور يتم شرحها على لسان ولديها أو حفيداتها ، وهـي تعلق بـالقول: - «إن ملكـة إنكلـترة، كانـت حزينـة»، ثـم تـدع الجريـدة، وتعـاود النظـر مـن النافـذة نفسـها إلى حركـة الشـارع ذاته، والذي قضت نصف عمرها ـ في تأمله لخ. بر

[1] استدعاء الخال ارنست العجوز، في السابق كانت صورته في الغرفة حيث يقف جاك وأمه أو جلبه فيما بعد.

[2] الرواية لم تأخذ شكلها النهائي، والكاتب يحاول ترتيب أفكاره.. المترجم.



بمعنى ما كانت أقل اختلاطاً بالحياة من أخيها إرنست[1] الذي كان يعيش معهم، فهو الأصم تماماً، والمعبِّر أكثر بواسطة محاكاة الصوت، والإشارات أكثر من التعبير بواسطة الكلمات التي يمتلك حوالي المئة منها. لكن إرنست الذي لم يستطيعوا أن يجعلوه يعمل في صباه، كان قد تردد إلى مدرسة استطاع تعلم فك الحرف فيها. وكان يذهب أحياناً إلى السينما، ويعود منها بملخصات مدهشة لأولئك الذين حضروا الفيلم سابقاً، لأن غنى مخيلته كانت تُعوض جهله. وكان مرهف الحس، وماكراً، فيما عدا ذلك، وكان ذكاؤه الفطري يسمح له أن يتجه إلى عالم كانت كائناته بالنسبة له صامتة صمتاً عنيداً، والذكاء نفسه، كان يسمح له أن يغوص في الجريدة كل يوم كي يكتشف العناوين العريضة مما كان يعطيه معرفة سطحية على الأقل بقضايا العالم.

كان يقول لجاك عندما بلغ هذا الأخير سن الشباب:

---

[1] تارة يُدعى إرنست، وتارة أخرى، يُدعى إيتين، الأمر يتعلق بالشخصية نفسها: إنه خال جاك..

- «هتلر ليس جيداً، ها، لا لم يكن جيداً، الألمان كلهم متشابهون..». وكان يضيف: - «لا، الأمر ليس كذلك، نعم، هناك منهم طيبون».، كان الخال يقرّ بهذا، - «لكنَّ هتلر ليس طيباً». وبعد ذلك كان مزاج التسلية لديه يتغلب: - «ليفي (تاجر الأقمشة في الجهة المقابلة) خائف». ثم كان يقهقه، وكان جاك يحاول أن يشرح، ثم يأخذ الخال هيئة الجدية: - «نعم، لماذا يريد إيذاء اليهود؟! إنهم مثل الآخرين».

لقد أحبّ جاك دوماً على طريقته الخاصة، وكان معجباً بتفوقه في المدرسة، وكان يمسح على جمجمة الصبي بيده القاسية التي جعلتها الأدوات وقساوة العمل يداً ذات جلد قاسٍ، وهو يقول: - «هاهنا رأس جيد، هذا الرأس، عنيد (ويضرب رأسه بقبضته الكبيرة)، ولكنه جيد».. وكان أحياناً يضيف قائلاً: - «مثل أبيه....». في أحد الأيام استفاد جاك من الفرصة السانحة ليسأله إن كان أباه ذكياً.

- «أبيك، الرأس قاس، كان يفعل ما يريد دوماً، أمك، نعم، نعم، دوماً». ولم يستطع جاك أن يحصل على المزيد.

وعلى كل حال، فقد كان إرنست يصطحب الصغير معه. لقد كانت قوته وحيويته اللتين لم تعبرا عن نفسها لا في الأحاديث، ولا في العلاقات المعقدة للحياة الاجتماعية، كانتا تنفجران في حياته البدنية والحسية، فعند الاستيقاظ، عندما يعمدون إلى

هزّه، ويسحبونه من نوم ثقيل لرجل أصم، كان ينتصب ضائعاً وتائهاً: «ها، ها، مثل حيوان من حيوانات ما قبل التاريخ»، يستيقظ كل يوم في عالم مجهول، ومعادٍ له، ولكن في إحدى المرات، على العكس من ذلك، استيقظ، وكان جسده، وآلية عمل جسده، على ما يرام، ورغم طبيعة مهنته القاسية، كصانع براميل، كان يحب السباحة والصيد..

وكان يصطحب جاك عندما كان طفلاً إلى شاطئ الرمال، ويجعله يتسلق إلى ظهره ثم ينطلق به إلى عرض البحر في سباحة على البطن، لكنها سباحة بدائية ومجهدة، وكان يطلق صيحات مغمغمة تترجم أولاً برودة الماء ثم المتعة لوجوده فيها، أو سخطه من موجة معاكسة، وفي فترات متباعدة، كان يقول لجاك: - «ألست خائفاً؟!..».

- «بلى».

- بلى لقد كان خائفاً، ولكنه لم يكن يقرّ بذلك، وهو المبهور بهذه العزلة التي وجدا بها بين السماء والبحر متناهي الاتساع، وعندما كان يعود، كان الشاطئ يبدو لناظريه مثل خط لا مرئي، وكان خوف لا متناه، يجتاحه، ويشعر به في منطقة البطن، ويتخيل مع بداية شعوره بالرعب، الأعماق السحيقة والمظلمة تحته، حيث يمكن أن يغرق مثل حجر إن

تركه خاله فقط. عندها كان الطفل يشدّ بقوة أكبر الرقبة القوية للسبّاح الذي يقول له حالاً:

- «أنت خائف»..

- «لا، ولكن ارجع». وكان الخال المطواع ينعطف ثم يتنفس قليلاً في المكان، وينطلق بالثقة نفسها كما لو أنه على أرض قاسية، وعلى الشاطئ، وما أن يسترد أنفاسه، كان يفرك جاك بعنف، وسط قهقهة عالية، ثم يدير ظهره.

حتى يتبولا وسط قهقهة وضحكات، ثم يهنئ نفسه، بحسن سير عملية إفراغ المثانة، وهو يضرب على بطنه قائلاً: حسناً، حسناً.. وهي العبارة المصاحبة لديه لكل الإحساسات الممتعة التي لا يميز فيما بينها، إن كانت تغوطاً أو غذاءً مؤكداً أيضاً، وبالبراءة نفسها، على المتعة التي يحصل عليها من ذلك، وراغباً على الدوام في مشاركة هذه الرغبة مع المقربين منه، مما كان يستدعي احتياجات الجدة على طاولة الطعام. الجدة التي كانت تتقبل الحديث عن هذه الأمور، دون شك، وتشارك في الحديث عنها، ولكن - «ليس على طاولة الطعام». كما كانت تقول، وكانت تتسامح فيما يخص عدد البطيخات، وهي الفاكهة ذات الصيت، فيما يخص إدرار البول، الفاكهة التي يعشقها إرنست، وكان يبدأ أولاً بالامتصاص مع إطلاق الضحكات، والغمزات واللمزات الماكرة اتجاه الجدة ثم

أصوات مختلفة من المصّ والشفط والتجشؤ المتكاسل، وبعد القضمات الأولى من شريحة البطيخ تبدأ الإيماءات، حيث تشير اليد مرات عديدة إلى مسار سائل الفاكهة الجميلة الأبيض والوردي من الفم باتجاه العضو، بينما تظهر سعادة عارمة على الوجه، تتمثل بتكشيرات،وقفزات، في نظرات العيون مترافقة بعبارة:

- «طيب، طيب، هذا يَغْسِل، طيب، طيب، ». وهي العبارة التي لا يمكن مقاومتها ، وتجعل الجميع يقهقهون ضاحكين. والبراءة الآدمية نفسها تجعله يعلّق أهمية متفاوتة على عدد من الآلام العابرة التي كان يعاني منها، مقطب الحاجب ، ونظراته منطوية تحو الداخل، كما لو أنه يستقصي الليل الغامض بواسطة أعضائه، كان يصرّح بأنه يعاني من «نقطة» ألم تُغيّر موضعها بسرعة، وأن لديه كتلة دائرية في جسده، تتجول في كل مكان فيه. وفيما بعد، وعندما بدأ جاك يتردد على المدرسة الثانوية، وعندما اقتنع بأنَّ العلم واحد، وهو نفسه للجميع كان يستنطق جاك، ويشير إلى تجويف الكلى قائلاً:

- «هنا ، إن الألم يشتد ، هل هذا سيئ؟».

- «لا ، ليس هناك ما يضير..».

وكان يذهب مرتاحاً، وينزل الدرج بخطىً سريعة لملاقاة رفاقه في مقاهي الحي ذات الأثاث الخشبي، وطاولات التوتياء والتي

كان يفوح منها روائح اليانسون، ونشارة الخشب.. حيث كان جاك يبحث فيها عنه، أحياناً، ساعة العشاء، ولم يكن الطفل ليفاجأ بوجود هذا الأطرش، الأبكم، جالساً إلى الكونتوار محاطاً بحلقة من الرفاق، ويتكلم بحماس يكاد يخمد أنفاسه، وسط قهقهات لم تكن ساخرة، لأنَّ ارنست كان محبوباً من رفاقه لروحه المرحة وكرمه[1] a b c d.

---

[1] a – النقود التي وضعها جانباً، والتي أعطاها لــ جاك.

b – قامة متوسطة، ساقاه مقوستان قليلاً، وظهره محني قليلاً تحت وطأة درع من العضلات، ورغم نحافته، كان يعطي انطباعاً بقوة رجولية فائقة. غير أن وجهه كان وظلَّ زمناً طويلاً، وجه مراهق مرهف ومتناسق [كلمة مشطوبة].

عيناه عسليتان مثل أخته، مستقيم الأنف، وأقواس الحاجبين عارية، وذقنه متناسق، وشعره جميل وكث متموج قليلاً. جمال هيئته وحدها كانت، رغم عاهته ، كانت تبرر وجود بعض المغامرات النسائية، التي لم توصله للزواج، وكانت بالضرورة قصيرة ومختصرة، ولكنها تصطبغ قليلاً بما اتفق على تسميته، الحب كتلك العلاقة مع زوجة تاجر فـــي الحي. وهو الأمر الذي كان يقود جاك، مساء السبت إلى حفل ميدان برسون المشرف على البحر، وحيث كانت الأوركسترا العسكرية تعزف فـــي الكشك موسيقا «أجراس كورنفيل»، أو أنغاماً من مسرحية لاكمي ....LoKmé فيما يتدبر أمره وسط حشد يسير فـــي الليل حول [ ] بحيث كان إرنست الذي يرتدي أجمل ثيابه، يلاقي زوجة صاحب المقهى التي ترتدي ثياباً من الحرير الهندي، وكانا يتبادلان ابتسامات ودية، وكان الزوج يوجه جُملاً قصيرة، ودودة أحياناً إلى إرنست الذي لم يكن بالنسبة له منافساً محتملاً على الإطلاق.

c – مغسل الثياب مونا [كلمات أحاطها الكاتب بدائرة n,d,e]

d – الشاطئ السدادات، كسرات الخزف المتآكلة، فلين.

كان جاك يشعر بذلك جيداً حين كان خاله يرافقه إلى الصيد مع رفاقه، فهم صانعو براميل أو عمالاً في الميناء أو في مصلحة السكك الحديدية..

كان عليهم الاستيقاظ فجراً، كان على جاك إيقاظ خاله الذي ينام في غرفة الطعام، ولا يمكن لأي منبه أن يوقظه من نومه، أما جاك، فكان يستيقظ مع الرنين، وأخوه كان يستدير في سريره، وهو يبرطم، أما أمه فكانت في السرير الآخر تتحرك بهدوء دون أن تستيقظ، كان ينهض متلمساً ما حوله، ويحك عود ثقاب ليشعل المصباح البترولي الصغير الموجود على طاولة الهندام المشتركة بين السريرين (آه، إن أثاث هذه الغرفة عبارة عن سريرين حديديين، أحدهما في مكان تنام الأم فيه، والثاني مخصص لاثنين حيث ينام الطفلان، وطاولة هندام بينهما يقابلها خزانة لها مرآة، وللغرفة شباك يطل على الباحة أمام سرير الأم، وأسفل الشباك هناك صندوق كبير مغطى بغطاء مشبّك. وجاك الذي بقيت قامته قصيرة زمناً لا بأس به، كان مجبراً على الركوع عليه ليقفل الأباجور في النهاية ليس هنالك كرسي).

كلمة مشطوبة.

ثم يتوجه إلى غرفة الطعام، ويهزّ الخال الذي كان يزمجر، وينظر بذعر إلى المصباح فوق عينيه، ثم يعي ما حوله. وكانا يلبسان ثيابهما، ويقوم جاك بتسخين ما بقي من القهوة، على سخّان كحولي صغير، بينما يجهز الخال أكياساً مليئة بالمؤونة مثل الجبنة والسوبراسادا[لخ]، البندورة والملح والفلفل ويصف قطعة من الخبز مقسومة إلى جزأين دسّ فيها عجّة بيض كبيرة الحجم. كانت الجدة قد جهّزتها. ثم يقوم الخال أخيراً، بالتأكيد من البندقية ذات الطلقتين والخرطوش واللتين قامت العائلة بالاحتفال حولهما. ليلة البارحة. فبعد العشاء تمّ رفع المائدة، وتنظيف شرشف الطاولة الكتّاني المشمّع بكل عناية. وجلس الخال على إحدى أطراف الطاولة ووضع أمامه بكل وقار، وعلى ضوء المصباح البترولي الضخم الذي أُنزل من مكان تعليقه أجزاء البندقية المفككة، والتي شحّمها بعناية فائقة. وكان جاك جالساً في الجهة الأخرى ينتظر دوره، وكذلك يجلس الكلب بريان لأنه يوجد كلب وهو هجين من نوع ساطِر Seiter شديد الطيبة، ولا يمكن أن يؤذي ذبابة، والدليل هو أنه حين يلتقط إحداها وهي تطير يسرع يلفظها باشمئزاز، وذلك حين يدفعها بلسانه الخارج من فمه، وتمطق شفاهه..

---

[1] طبق لحم خنزير من جزر البليار في إسبانيا ويقدم على شكل سجق. —المترجم.

إرنست وكلبه كانا لا ينفصلان ، وكان التفاهم بينهما كاملاً، ولا يمكن للمرء منع نفسه من التفكير بالزوجي (وينبغي عدم معرفة أو حب الكلاب حتى يكون في الأمر ما يثير السخرية). وكان الكلب يُكنّ الحنان والطاعة للرجل، بينما قَبِلَ الرجل ألاّ يكون له إلاّ همّ وحيد. كانا يعيشان معاً ، ولا يفارقان بعضهما أبداً ، وينامان معاً (الرجل على الديوان في صالة الطعام) والكلب على سجادة السرير المهترئة حتى حبكتها). ويذهبان معاً إلى العمل (كان الكلب يستلقي في سرير من نشارة الخشب جُهِّزَ خصيصاً له تحت منضدة العمل). وكانا يذهبان معاً إلى المقاهي، فينتظر الكلب بصبر من ساقي سيده حتى يفرغ من كلامه، وكانا يتحدثان إلى بعضهما بمحاكاة الصوت، ويستمتعان كل منهما برائحة الآخر. ولا يجب القول لإرنست - «إن لكلبه الذي نادراً ما يستحم رائحة نفّاذة خصوصاً بعد أن يتعرض للمطر».

- «هو، لا رائحة له ». ثم يشتمّ بحبّ باطن أذني الكلب الكبيرتين المرتجفتين..

وكان الصيد يعدُّ عيداً لدى الاثنين، وكذلك نزهة للدوقين الكبيرين، وكان إخراج إرنست لكيس البندقية كافياً حتى يبدأ الكلب بالقفز والركض الجنوني في صالة الطعام الصغيرة موقعاً الكراسي بمؤخرته وضارباً بذيله جانب الخزانة، وكان

إرنست يضحك قائلاً: - «لقد فهم، لقد فهم»... ثم يهدّئ الحيوان، الذي يضع خطمه على الطاولة، مراقباً التحضيرات الدقيقة، ومتثائباً بحذر من وقت لآخر، دون أن يترك هذا المشهد الجميل قبل إتمامه[لخ]. وعندما يركب البندقية، كان إرنست يعطيها لِ جاك الذي يستقبلها باحترام، وبواسطة خرقة قديمة من الصوف، كان يلمّع السبطانة.

وخلال ذلك كان الخال يجهز الخرطوش. كان يضع أمامه أنابيب كرتونية، ذات ألوان فاقعة وقعر نحاسي موضوعة في جراب، وكان يسحب منه أيضاً قوارير معدنية ذات شكل يشبه المطرة، وفيها بارود ورصاص وحشوات من اللبّاد بنية اللون، ويملأ الأنابيب بالبارود والحشوة بعناية كبيرة، ثم يخرج آلة صغيرة حيث يضع فيها الأنابيب، وبواسطة عتلة يضع غلافاً على مستوى حشوة البارود في رأس الأنابيب الكرتونية. وعندما يصبح الخرطوش جاهزاً، يقوم إرنست بتمريره إلى جاك، الذي يضعه بورع في حقيبة الخرطوش الموضوعة أمامه.

وفي الصباح تكون إشارة الانطلاق، عندما يلفّ إرنست حول بطنه الذي زاد انتفاخاً بفعل سماكة كنزتين صوفيتين، جعبة الخرطوش الثقيلة. وكان جاك يربطها له في ظهره.

---

[1] الصيد؟ يمكن أن يتم حذفه.

أما بريان والذي كان يقضي وقته جيئة وذهاباً منذ استيقاظه، فكان ينتصب محاولاً التغلّب على فرحه العارم، حتى لا يوقظ أحداً، وكان ينفّس عن هيجانه لكل ما يقع في متناوله من أغراض، وينتصب على قائمتيه أمام سيده، وقائمتاه الأماميتان على صدره، محاولاً مط رقبته، وجسده حتى يلعق هذا الوجه المحبوب على وسعه، وبعنف.

وفي الهزيع الأخير من الليل، حيث مازالت تتضوع رائحة التين الطازج، كانا يسرعان نحو محطة الآغا. وكان الكلب يسبقهم راكضاً بأقصى سرعة نحو اليمين واليسار، وينتهي به الأمر أحياناً بزحلقة على الأرصفة التي بللتها رطوبة الليل، ثم كان يقفل راجعاً ليس بسرعة أقل وينتابه جنون ظاهر لفكرة أنه أضاعهما..

كان إيتين يحمل البندقية المقلوبة في جرابها المصنوع من كتّان خشن، وكذلك الجراب، وكيس الصيد، أما جاك الذي يضع يديه في سرواله القصير، فكان مكلّفاً بالحمّالة.

وفي المحطة، كان الأصدقاء هناك مع كلابهم التي لم تترك أسيادها إلاّ لبرهة، حيث تستقصي بسرعة، ما يوجد تحت أذيال مثيلاتها. كان هناك دانييل وبيير[1]، وهما أخوان ورفاق في

[1] انتباه، تغيير الأسماء.

مشغل إرنست، وكان دانييل ضاحكاً على الدوام، ومفعماً بالتفاؤل، أما بيير فكان منطوياً على نفسه، وأكثر جدية، ولديه على الدوام وجهة نظر تدل على الفطنة والذكاء، فيما يخص البشر والأمور الاخرى، وكان هناك جورج الذي يعمل في مصنع الغاز، والذي كان يخوض من وقت لآخر نزالات في الملاكمة، حيث يكسب منها بعض النقود. وغالباً كان هناك اثنان أو ثلاثة آخرون أيضاً، وكلهم كانوا فتية طيبين على الأقل في مناسبة كهذه. سعداء لانسحابهم يوماً واحداً من الورشة، أو الشقة الضيقة المزدحمة بالأغراض، أو الزوجة أحياناً، مفعمين بعدم الاكتراث والتسامح المسلي الخاص بالرجال حين يكونون له وحدهم، من أجل الحصول على متعة قصيرة وعنيفة.

وصعدوا بحيوية إلى إحدى العربات حيث لكل مقصورة لها موطئ، ويتم تناول الجعب، ومساعدة الكلاب على التسلق، ثم يصعدون أخيراً، ويجلسون جنباً إلى جنب سعيدين بتدفئة بعضهم البعض. وتعلم جاك في أيام الآحاد هذه، أن مرافقة الرجال هو أمر جيد، ويغذي الروح. اهتز القطار، وبدأت سرعته تزداد مع لهاث قصير، وكلما ابتعد أكثر كانت صافرة ناعسة تنطلق.

تم اجتياز قسم من الساحل، ولدى الوصول إلى أول الحقول، وبصورة غريبة، صمت هؤلاء الرجال الأشداء والصاخبين،

ونظروا إلى بزوغ النهار على الأراضي التي حُرثت بعناية فائقة، حيث كان ضباب الصباح يسحب وشاحاً على سياجات القصب الكبيرة الجافة التي تفصل بين الحقول.

ومن وقت لآخر، كانت تنزلق أغصان الأشجار التي تحمي مزرعة مطلية بالكلس، وتنعم بالسكون إلى الداخل عبر النافذة، وكان عصفور خارج من مكمنه في الحفرة المحاذية للردم، يرتفع فجأة إلى مستوى الأشجار، ثم يطير في الاتجاه نفسه، حيث يسير القطار، كما لو أنه يحاول أن يسبقه في سرعته، حتى يأخذ فجأة منحىً عمودياً مع اتجاه القطار كأنه يُقلِعُ فجأة من الواجهة الزجاجية، وأنه قد رُمِيَ إلى الخلف بفعل الهواء المرتد من السرعة.

وكان الأفق الأخضر يتورد ثم يتحول فجأة إلى اللون الأحمر، والشمس تبزغ وترتفع بصورة محسوسة إلى كبد السماء، وكانت تطارد الضباب في مدى الحقول، ويزداد صعودها، وبغتة يصبح الجو حاراً في المقصورة، فينزع الرجال الكنزة والصوفية الأولى، ثم الثانية، وينومون الكلاب التي بدأت تتحرك هي أيضاً، ويتبادلون المزاح. ويروي إرنست على طريقته قصصاً عن الأكل والمرض وعن الشجارات، التي كانت له الغلبة فيها على الدوام، ومن حين لآخر، كان أحد الرفاق يطرح سؤالاً على جاك، يسأله فيه عن المدرسة، ثم يتحدثون في

موضوع آخر، أو يأخذون جاك بمثابة شاهد على إيماءة، يقوم بها إرنست، ويقال: «خالك، إنه بطل!»، ويتغير المنظر ليصبح كثير الحصى، ويحلّ البلوط مكان البرتقال، وكان القطار الصغير ينفث بفواصل قصيرة، ويطلق دفعات كبيرة من البخار. وازدادت برودة الجو فجأة لأن الجبل حجب الشمس عن المسافرين، ولوحظ أن السرعة لم تكن قد أصبحت بعد السابعة صباحاً، وأخيراً، صفر القطار للمرة الأخيرة، وأبطأ السرعة، وأخذ ببطء شكل منعطف ضيق، ينتهي بمحطة صغيرة، ومعزولة في وادٍ، لأنها كانت تؤمن الوصول إلى المناجم البعيدة، كانت مقفرة وصامتة، فيها أشجار الكينا ذات الأوراق المنجلية، وهي ترتعش في هواء الصباح الخفيف. وتمّ النزول في الحالة نفسها من الضجيج، فقد نزلت الكلاب بسرعة دون أن تطأ درجتي المقصورة، فيما قام الرجال بالخطوات ذاتها فيما يخص الأكياس والبنادق، ولكن بعد خروجهم من المحطة التي تنفتح مباشرة على أولى المنحدرات، طغى صمت الطبيعة البرية على صيحاتهم وصرخاتهم. وبدأت المجموعة الصغيرة تَسلُقْ المنحدر بصمت، فيما تقوم الكلاب برسم أنشوطات لا تتعب حولهم. ولم يبتعد جاك عن رفاقه الأشداء، وأخذ منهم دانييل وهو المفضل لديه الكيس، رغم احتجاجاته، ولكن يجب حثّ الخطى للوصول إلى المجموعة،

وكن نسيم الصباح البارد يحرق رئتيه. وفي النهاية، وبعد مضي ساعة من الزمن، انتهوا إلى حافة سهل تغطيه أشجار البلوط القزمة، وأشجار العرعر[1] وتموجات أرضية واضحة تمتد فوقها سماء صافية مشمسة بعض الشيء.

إنها أرض الصيد، وكما لو أنَّه قد تم إخبارها بذلك، عادت الكلاب للتجمع حول الرجال، وتوافقوا على التلاقي ساعة الغداء في الثانية، بعد الظهر، عند تجمعٍ لأشجار السرو، حيث يوجد نبع صغير، يقع في مكان مناسب عند حافة السهل، ومنه، يمكن الإشراف على الوادي والسهل. وتم ضبط جميع الساعات وتجمع الصيادون بواقع اثنين في كل مجموعة وصفّروا لكلابهم، وانطلقوا كلّ في اتجاه مختلف.

كان إرنست ودانييل، يشكلان فريقاً، وتلقّى جاك كيس الصيد ثم توشح به بعناية، وأعلن إرنست أنه سوف يصطاد أبر عدد من الأرانب والحجل، ضحكوا وتصافحوا ثم اختفوا...

حينئذٍ، كانت النسوة تجتاح جاك حيث مازال يحتفظ بها في قلبه. وكان يفضل الرجلين الواقفين على نفس المستوى، متران فقط، يتقدمهما الكلب، أما هو ففي الخلف، وكان الخال يتفحص بنظرة فجائية وماكرة، أنه يحتفظ بالمسافة نفسها على

[1] عرعر: شجرة من الفصيلة الصنوبرية.

الدوام، وكان المسير الطويل يبدأ بين الأشجار، حيث ينطلق أحياناً طير لا قيمة له، وكانوا ينزلون في منحدرات صغيرة لها رائحة قوية، منها يصعدون إلى الأعلى نحو سماء مشعة تزداد حرارة، وكان ارتفاع درجة الحرارة السريع، يجفف الأرض التي كانت رطبة عند انطلاقهم.

وتسمع أصوات إطلاق النار من الجهة الأخرى للمنحدر، واصطفاق جاف لأجنحة رف من فرخ الحجل، بلونها المغبر، حيث كان الكلب قد أفرغها من مكمنها، وإطلاق نار مزدوج تكرر حالاً، وهروب الكلب إلى الأمام، حيث يعود وعيناه مليئتان جنوناً، وفمه مملوء بالدم، وحفنة من الريش الذي يقوم إرنست ودانييل بنزعه، وبعد ذلك بلحظة، كان جاك يبحث عن ضحايا أخرى، وهو واقع تحت تأثير مزيج من الإثارة والرعب، فعندما تُرى وهي تسقط، كان نباح إرنست يختلط أحياناً، بنباح بريان، وكان يستمر المسير إلى الأمام مجدداً. وكان جاك منهكاً هذه المرة تحت أشعة الشمس، بالرغم من قبعة القش التي يعتمرها، فيما كانت الهضبة المحيطة، بدأت بالاهتزاز دون ضجة مثل سندان تحت مطرقة الشمس، وفي بعض الأحيان، كان يسمع دوي طلقة أو اثنتين لا أكثر، لأن أحد الصيادين كان رأى أرنباً، قد انسحب، أرنبٌ حُكِمَ عليه مسبقاً، إن وقع في مرمى إرنست الذي كان ماهراً مثل القرد، والذي كان

يعدو حينها بسرعة تقارب سرعة كلبه، وهو ينبح مثله، ليلتقط الحيوان الميت من قائميته الخلفيتين، ويُريه من بعيد لـ «دانييل وجاك» اللذين يصلان مبتهجين، وهما يلهثان.
وكان جاك يفتح كيس الصيد على وسعه، ليتلقى الغنيمة الجديدة، قبل أن يغادر مترنحاً تحت أشعة الشمس. وهكذا خلال ساعات لا حد لها، وفي أرض لا حدود لها، كان رأسه تائهاً في ضياء لا يُحدُّ ومساحات واسعة من سماء فسيحة، وكان جاك يشعر بنفسه، أغنى طفل بين الأطفال.
عند العودة إلى موعد الغداء، كان الصيادون مازالوا يترقبون الفرصة، ولكن لم يعد الأمر كذلك في دواخلهم، كانوا يجرّون أقدامهم، ويمسحون جباههم، لقد كانوا جائعين.
كانوا يصلون الواحد تلو الآخر، يشيرون من بعيد إلى الغنائم التي حصلوا عليها، ويسخرون من الخائبين مؤكدين أنهم الخائبين أنفسهم في كل مرة، ويروون في اللحظة نفسها معاً، كيف حصلوا على مغانمهم. وكان لكل منهم تفصيلاً إضافياً يمكن له أن يضيفه.
ولكن المنتصر الكبير كان إرنست الذي احتفظ بكلماته، وتحدث بلغة الإشارة، بإشارات فيها دقة فائقة، حيث كان جاك ودانييل يلعبان دور الحكم الجيد، ويتذكر أيضاً انطلاق طيور فرخ الحجل، وكذلك الأرنب الذي قفز قفزتين على شكل

قوسٍ منحنٍ، وتدحرج بجسده مثل لاعب الركبي الذي سجّل محاولة خلف خط المرمى.

أثناء ذلك، كان بيير النظامي يسكب شراب اليانسون في أكواب معدنية، كان أعدّها لكل واحد منهم، وذهب ليملأها ماءً عذباً من النبع، الذي يتدفق ضعيفاً أسفل شجر السرو، ومُدَّت طاولة طعام، هي عبارة عمّا يشبه ورق الرسم، وأخرج كلٌّ منهم زوادته. لكنَّ إرنست الذي كانت لديه مواهب في فن الطبخ «خلال رحلات صيد السمك، كان يبدأ دوماً بإعداد طبق البوياييز[1] في المكان، وكان يشكو من قلة المطيبات التي لا يمكنها أن تحرق لسان سلحفاة.

كان إرنست قد أعدَّ قضباناً نحيلة على شكل قرون، ويُدخلها في قطع من السوبرساد[2] الذي سبق أن أعدّه ، ويشويها على نار من الحطب، حتى تنفتح ويخرج منها عصير أحمر على الجمر، حيث يفرقع ، ويشتعل، ثم يضع ما صنعه بين قطعتي خبز، ويقدّم السوبرساد الساخن، والمطيّب الي يستقبله الجميع

---

[1] البويابيز: طبق من مرسيليا يرتكز على السمك ، ويتكون من السمك الذي يؤكل مع الثوم والبطاطا والخبز.

[2] السوبر ساد: طبق من لحم الخنزير، من جزر البليار فـــي إسبانيا ، ويقدم على شكل سجق.

بالهتاف، والإعجاب ويلتهمونه بعد أن يضيفوا إليه النبيذ الوردي الذي برّدوه في النبع.

وبعد ذلك، كان يبدأ الهزل ، وقصص عن العمل والمزاح الذي كان جاك يتابعه بالكاد، لأنَّ النعاس قد بلغ منه مبلغه، وهو وسخ، دبق اليدين والفم وخائر القوى.

ولكن في الحقيقة، كان النعاس قد سيطر على الجميع، وبعد بعض الوقت، كانوا ينامون، وهم ينظرون إلى السهل البعيد المغطى بوشاح من الحرارة، أو مثل إرنست كانوا ينامون، ووجوههم مغطاة بالمناديل.

وفي الساعة الرابعة، كان ينبغي النزول حتى يستقلوا القطار الذي كان يمرُّ عادة في الخامسة والنصف.

ثم كانوا يتكومون في المقصورة خائري القوى، والكلاب المتمددة تنام بين المقاعد، أو بين أرجلهم نوماً ثقيلاً تتخلله أحلام دموية.

وعلى أطراف السهل، كان النهار يبدأ بالانسحاب، ثم يحلّ الغسق الإفريقي سريعاً، وبعده الليل المقلق دوماً على تلك الامتدادات دون وجود مرحلة انتقالية فيما بينها.

وبعد ذلك، وفي المحطة، كانوا يستعجلون العودة للنوم باكراً استعداداً ليوم عمل، في اليوم التالي، كانوا يفترقون سريعاً في الظلام دون أن يتبادلوا الكلام ، لكنهم كانوا يضربون

أيديهم بعضها بالبعض الآخر علامة الصداقة. وكان جاك يسمع جلبتهم، وهم يبتعدون، يسمع أصواتهم الخشنة والدافئة، ويُحيهّم. ثم يلحق إرنست المقام دوماً، بينما هو متراخي الخطى، وبالقرب من المنزل، وفي ظلمة الطريق، يلتفت خاله إليه قائلاً: «هل أنت سعيد؟!».. لم يكن جاك يرد على السؤال، وكان إرنست يضحك، ويصفّر لكلبه ولكن بعد بضع خطوات، كان الطفل يدسُّ يده الصغيرة في يد خاله الخشنة، والقاسية، والذي يضغط عليها بشدّة، ثم يدخلان هكذا صامتين...

ومع ذلك، فإن إرنست كان قادراً على الغضب سريعاً، بقدر ما كان قادراً على البهجة، إن عدم إمكانية نُصحه، أو مناقشته، تجعل نوبات غضبه هذه ظاهرة طبيعية، فهي مثل عاصفة تتشكل، ويُنتظر أن تثور، فلا يمكن عمل شيء إزاء ذلك.

ومثل كثير من الطرشان، كانت حاسة الشمّ متطورة لدى إرنست (إلاَّ إذا كان الأمر يتعلق بكلبه)، وهذه الميزة كانت تُعطيه الكثير من المتعة حين يحتسي شوربة الحمّص، أو يتذوق الاطباق التي يفضلّها، مثل الكالاماري بحبره والعجة بالسجق، يخنة المعلاق المحضّرة مع كبد ورئة العجل، وهي تُعدُّ برغونية [1]

[1] برغونية: لحم بقر متبل بالنبيذ، والبصل.

الفقير، وكانت مأثرة من مآثر الجدّة على بساطتها، وكان هذا الطبق يتكرر غالباً..

وحين يتعطر يوم الأحد بماء الكولونيا رخيص الثمن، أو اللوسيون المسمّى بومبيرو، والذي تستخدمه أم جاك أيضاً، وعطره العذب والثابت، الذي يغشاه عطر الليمون كان يتضوع في صالة الطعام وفي شعر إرنست، وكان يشمّ زجاجة العطر منتشياً. لكن حساسيته في هذا المجال، كانت تسبب له المتاعب، فقد كان غير متسامح، حين يشمّ بعض الروائح التي لا تستطيع الأنوف العادية أن تشمّها ، فعلى سبيل المثال، اعتاد أن يشمَّ صحنه قبل أن يتناول وجبته، وكان يغضب بشدة حين يكتشف ما يدّعي أنه رائحة بيض في صحنه. وكانت الجدة تتناول بدورها الصحن المشكوك بأمره، وتشمّه، وتعلن أنه لا رائحة له، ثم تعطيه لابنتها لتأخذ رأيها.

كانت « كاترين كورمري» تمرر أنفها الحسّاس على البورسلين، ودون أن تشمّ تعلن بصوت عذب أنه لا رائحة في الصحن. ثم يعمدون إلى شمّ بقية الصحون، لتثبيت الحكم النهائي باستثناء صحون الأولاد الذين يأكلون في صحون معدنية (لأسباب مازالت غامضة، قد تكون قلة الأواني، كما ادّعت الجدّة في أحد الأيام، أو لتحاشي كسر الأواني، وفي الواقع فلا هو ولا أخيه، كانا أرعنين، ولكن التقاليد العائلية ليس لها

غالباً أسس قوية، وكثيراً ما أضحك من علماء الأعراق البشرية الذين يبحثون عن الكثير من الطقوس الغريبة، فاللغز الحقيقي في كثير من الحالات أنه ليس هناك سبب لكل ذلك).

ثم كانت الجدَّة تنطق بالحكم النهائي: ليس له رائحة، وفي الحقيقة، ما كان لها أن تحكم بغير ذلك خاصة، إن كانت هي من قامت بتنظيف الأواني في الليلة السابقة. ولم يكن لها أن تتخلى عن سمعتها كمدبرة منزل، وحينها، كان غضب إرنست الحقيقي، ينفجر، وكلّما أمعن في محاولة إيجاد كلماته ليعبّر عن قناعته[1] كلّما ازداد غضبه. وكان يجب ترك العاصفة تمرّ، إن كان بمقاطعته لطعام العشاء، أو أن يأكل بامتعاض نتفاً قليلة من الصحن الذي قامت الجدّة بتبديله، أو أن يترك المائدة، ويرتمي خارجاً معلناً أنه يريد الذهاب إلى المطعم، وهو المكان الذي لم يضع قدمه فيه مطلقاً ولا أي أحد من العائلة أيضاً.

وعلى الرغم من أن الجدة عندما يسري امتعاض أثناء الطعام، كانت تنتهز الفرصة لتقول جملتها المصيرية: -«اذهب إلى المطعم»..

[1] مأساته الصغيرة.

ومنذ ذلك الحين، بدا المطعم بالنسبة للجميع كأحد الأماكن الآثمة ذات الإغراء الكاذب، ويمكن الحصول فيه على أي شيء حين ندفع المال، ولكن أيضاً سوف تدفع المعدة ثمناً باهظاً في أحد الأيام لقاء أولى الملذات الآثمة هناك..

وفي كل الأحوال، لم تكن الجدّة تردّ أبداً على انفعالات أصغر أبنائها الغاضبة، لأنَّها تعلم أن لا فائدة من ذلك أولاً، ثم أنها تميل دوماً وبصورة غريبة نحوه إلى درجة أن جاك، ومنذ اللحظة التي أصبح يقرأ فيها، عزا ذلك إلى واقع: أن إرنست كان ذا عاهة (ولدينا العديد من الأمثلة، وخلافاً للأحكام المسبقة حيث يصبّ الأهل اهتمامهم على الطفل المستضعف)، وهو قد فهم هذا الأمر فيما بعد، وبصورة أفضل، حين ضبط فجأة جدته بنظرتها الواضحة، وقد رقّت فجأة بحنان لم يسبق له أن رآه، والتفت، ورأى خاله الذي كان يلبس سترة بذلته التي يلبسها عادة يوم الأحد، وقد أضفى عليه القماش، غامق اللون، مزيداً من النحافة، وكان وجهه دقيق الملامح، فتياً، وقد حلق ذقنه منذ قليل، وسرح شعره بعناية، وارتدى بشكل استثنائي ياقة وربطة عنق وله مظهر راعٍ يوناني بأجمل حلّةٍ، وبدا له إرنست على ماهو عليه أي جميلاً جداً..

وفهم إذاً، أنَّ الجدَّة كانت تحبّ ابنها بصورة ماديّة، وكانت مغرمة مثل الآخرين بلطافة، وظُرف وقوة إرنست، وأن ضعفها

الاستثنائي أمامه، كان في النهاية أمراً مألوفاً، وأنه يضعفنا كثيراً، أو قليلاً، وبصورة فيها عذوبة، وأنه يسهم في جعل العالم أكثر احتمالاً إنه الضعف أمام الجمال.

وكان جاك يتذكر أيضاً نوعاً آخر من غضب الخال إرنست، وكان هذا أشدّ خطراً، لأنه كاد أن يوصل إلى شجار مع الخال جوزفان ذلك، الذي يعمل في مصلحة السكك الحديدية.

ولم يكن جوزفان يبيت في منزل والدته (حيث هل كان يمكن أن يبيت فيه في الحقيقة؟!).. كان عنه غرفة في الحي(غرفة لم يكن يدعو إليها أي فرد من عائلته، وجاك مثلاً، لم يسبق له أن رآها قط).. ولكنه كان يتناول طعامه عند والدته مقابل نفقة صغيرة يعطيها لها.. وكان جوزفان مختلف تمام الاختلاف عن أخيه. وهو أكبر منه بحوالي عشر سنوات، وله شاربين قصيرين، وشعر جَعِد، وكان أضخم، وأكثر انطواءً ومادياً أكثر على وجه الخصوص.

وكان إرنست يتهمه بالبخل كالعادة، والحق يقال إنه كان يعبّر ببساطة أكبر عن نفسه: «إنّه مُزابي». والمزابيين بالنسبة له هم بقّاليي الحي، الذين كانوا يأتون من المزاب، ويعتاشون من العدم لسنوات عديدة، وليس لهم نساء في دكاكينهم الخلفية التي تفوح منها روائح الزيت والقرفة، وذلك حتى يعيلون عوائلهم في مدن المزاب الخمس في عمق الصحراء، حيث استقرت هناك

عشيرة من الهراطقة، وهم نوع من المتزمتين المسلمين الذين اضطهدهم باقي المسلمين، استقرت هناك منذ عدة قرون في مكان اختاروه بعناية، بحيث لا يمكن لأحد أن ينازعهم عليه، وانتظروا حتى لم يعد هناك سوى الحصى، وبعيدون كل البعد عن العالم شبه المتحضر في الساحل بحيث أن الأرض تصبح كوكباً ذا قشرة لا حياة فيها، وهناك استقرّوا، حتى يخلقوا خمس مدنٍ حول ينابيع ذات تدفق شحيح، ويعتقدون أنه من غرائب الزهد إرسال رجال إلى مدن الساحل قادرين على ممارسة التجارة لرعاية إبداع الروح والروح فقط، حتى يتم استبدالهم برجال آخرين، ويعودون للاستمتاع والتريض في مدنهم المحصّنة بالتراب، والوحل ثم في النهاية يتم اجتياحهم بسبب عقائدهم.

وإنَ قلة الحياة، وخشونة هؤلاء المزابيين لم يكن ليُحكَم عليها إلاَّ بناءً على أهدافها العميقة. لكن الشعب الكادح في الحي، والذي كان يجهل الإسلام وهرطقاته، لم يكن يرى إلاَّ ظاهر الأمور، وبالنسبة لإرنست، كما الآخرون، كلّهم، فإن مقارنة أخيه مع المزابي، تعود إلى مقارنته بـ «هارباغون»[1]، في الواقع، كان جوزفان شديد الولع بالمال على العكس من إرنست الذي «كان قلبه على يده»، على حد تعبير الجدّة، (والحقيقة، إنها

[1] هارباغون: بطل مسرحية البخيل لموليير، وهو أرمل غني شديد البخل.

عندما تكون غاضبة منه، تتهمه بأنَّ لديه يداً «مثقوبة»). ولكن عدا عن اختلاف الطبائع هناك واقع أن جوزفان كان يكسب نقوداً أكثر بقليل من إيتيين.

وأن التبذير يسهل أكثر مع وجود الفاقة والحاجة. وقلّة من الناس يستمرون في التبذير والإسراف بعد أن تتوفر لهم السبل لذلك. أولئك هم ملوك الحياة الذين ينبغي توجيه التحية البالغة إليهم، وجوزفان لم يكن بالتأكيد وافر الغنى، ولكن عدا عن أجره الذي يتقاضاه ويديره بعناية (كان يمارس ما يمكن تسميته منهج الظروف، ولكنه كان شديد البخل ليشتري ورق ظروف حقيقي، لقد كان يصنع ظروفاً من ورق الجرائد أو ورق البقالة)، وكان يؤمن لنفسه دخلاً إضافياً بتدابير صغيرة، فكر بها ملياً، ولكونه يعمل في مصلحة السكك الحديدية، كان يحق له ركوب القطار مرة واحدة مجاناً، كل خمسة عشر يوماً، فكان يوم الأحد، كلّ أسبوعين يستقل القطار للذهاب إلى ما نسميه «الداخل» أي البلد، وكان يمرّ في المزارع العربية ليشتري بأسعار زهيدة بيضاً ودجاجاً أو أرانب، ويحمل تلك البضاعة ليبيعها لجيرانه، مع هامش ربح معقول.

لقد كانت حياته منظّمة على كافة المستويات، لا يُعرف له امرأة، وكان يفتقر بالتأكيد إلى أوقات الفراغ التي تتطلبها ممارسة الشهوة الحسيّة، لكنَّه كان يعلن على الدوام، أنه

سيتزوج من امرأة ذات شأن في الأربعين من عمره. وحتى ذلك الحين، سيظلّ في غرفته يجمع المال، ويستمر في العيش جزئياً عند أمه، وكم بدا غريباً، أنه مع ملاحظة افتقاره للجاذبية، قد حقق مع ذلك خطته، كما حكى، وتزوج مدرِّسة بيانو بعيدة كل البعد عن القبح، وجلبت له السعادة على المستوى المادي لبضع سنوات، إضافة إلى ما حملته معها من الأثاث، وفي النهاية، فإن جوزفان احتفظ بالأثاث، وليس بالمرأة، ولكن تلك قصة أخرى، والأمر الوحيد الذي لم يأخذه بالحسبان وبعد مشاجرته مع إيتين هو عدم استمراره في تناول وجباته عند أمه، وإجباره على تناول وجبات المطعم باهظة التكاليف، هناك مشاجرات غامضة، تشتت شمل العائلة، ولا يقدر أحد على معرفة أسبابها في الحقيقة، وعلى أية حال، فالمرء لا يحتفظ دوماً بكل الذكريات، فهم لم يعودوا يتذكرون أسباب النزاع، ويكتفون بمناقشة النتيجة التي يقبلونها، ويجترونها اجتراراً.

وبالنسبة لذلك اليوم، كان يتذكر فقد إرنست منتصباً أمام مائدة الطعام الذي لم ينتهوا منه بعد، وكان يتلفظ بشتائم لم يفهمها أحد سوى «المزابي»، أخيه، الذي بقي جالساً إلى الطاولة، متابعاً طعامه. ثم عمد إرنست إلى توجيه صفعة لأخيه، الذي نهض، وارتمى إلى الخلف، قبل أن يهجم عليه، ولكن

الجدّة مالبثت أن تشبثت بإرنست، وأم جاك التي اصفرَّ لونها من الانفعال شدّت جوزفان من الخلف. كانت الجدة تقول: «دعه، دعه»، والابنان شاحبا الوجه، وفاغرا الفاه، ينظران دون حركة، ويستمعان إلى كيل من الشتائم، واللعنات الغاضبة التي تطلقها الوالدة، حتى قال جوزفان بهيئة عابسة:

- «إنَّه حيوان، متوحش، لا يمكن فعل شيء معه».، ثم قام بدورة حول الطاولة، فيما كانت الجدّة مازالت ممسكة بإرنست الذي أراد الركض وراء أخيه. وفي الحال، وبعد أن صُفق الباب، كان إرنست يحاول التملص دوماً، ويقول لوالدته: «اتركيني، دعيني، سوف أؤدبك»..ولكنها أخذته من شعره، وهزته، قائلة: - «هل سوف تضرب والدتك؟!..».. وسقط إرنست على كرسيه باكياً: - «لا، لا، لست أنت، أنت مثل الله بالنسبة لي!». كانت أم جاك، قد ذهبت لتنام، دون أن تنهي طعامها، وفي اليوم التالي، أصيبت بألم في الرأس، ومنذ ذلك اليوم، لم يعد جوزفان يتردد إلى المنزل، اللّهم إلاَّ في بعض الأحيان، عندما يتأكد أن إرنست لم يكن في المنزل، فقد كان يأتي لزيارة أمه.

وهناك نوع آخر من الغضب، لا يحب جاك أن يتذكره، لأنَّه لا يتمنى أن يعرف السبب فيه. خلال فترة ما حدث أن كان السيد أنطوان يأتي مساء بصورة منتظمة، وقبل العشاء إلى المنزل، وهو

أحد معارف إرنست، وتاجر سمك في السوق، وهو مالطي المنشأ، ذو وقار، هزيل، وطويل القامة، ويلبس دوماً قبعة غريبة الشكل، ذو لون قاتم مثل وشاحه، ذو المربعات، الذي يربطه حول رقبته، وداخل قميصه. وحين فكر جاك بالأمر ملياً، في وقت لاحق، لاحظ أمراً، لم يكن قد أذهله في بادئ الأمر، وهو أن أمه كانت ترتدي ملابس أنيقة بعض الشيء، وتضع مئزراً فاتح اللون، ويشك بأنها تتبرج بقليل من الحمرة على خديها. وكانت تلك الفترة تتميز بأن النساء قد بدأن بقصّ شعرهن، وبارتداء الفساتين الطويلة، وكان جاك يحب مشاهدة والدته أو جدته عندما تبدأان بطقوس تسريحة الشعر، الفوطة على الكتفين، والفم ملآن بالدبابيس، كانتا تسرحان شعرهما الطويل الأبيض، أو البني ثم ترفعانه وتشدّان ربطات الشعر بقوة، وصولاً إلى كعيكة الشعر على الرقبة، والتي تغرزان فيها بكثافة، دبابيس الشعر، التي تخرجانها واحداً تلو الآخر من الفم ذي الشفاه المتباعدة، والأسنان المصرورة، وتغرزانها واحداً تلو الآخر في كتلة الكعيكة الكثيفة. وكانت الموضة الجديدة تبدو مضحكة وآثمة بالنسبة للجدة التي كانت تحط من شأن القوة الحقيقية للموضة، وتؤكد دون أن تهتم بالمنطق أن النساء وحدهن «واللواتي يعطين الحياة»، يقبلن جعل أنفسهن عرضة للسخرية بهذا الشكل، وأم جاك، كانت هي المقصودة

بهذا الكلام، ومع ذلك، وبعد مضي سنة وتقريباً في فترة زيارات أنطوان، دخلت أم جاك ذات مساءٍ وقد قصت شعرها، استعادت نضارتها وشبابها، وأعلنت ببهجة زائفة يشوبها قلق أنها تريد أن تفاجئهم.

وفي الواقع، لقد كانت مفاجأة للجدّة التي قاستها بالنظر من رأسها إلى قدميها، وهي تتأمل هذه الكارثة التي لا يمكن إصلاحها، فاكتفت بالقول أمام الابن: - «إنَّ شكلها قد أصبح مثل أشكال العاهرات»، ثم استدارت، وذهبت إلى المطبخ. وكفّت «كاترين كورمري» عن الابتسام، وارتسم على وجهها كل البؤس، والتعب في هذا العالم. ثم التقت عيناها بعيني ابنها المثبتة اتجاهها، وحاولت أن تبتسم مرة ثانية، لكن شفتيها كانتا ترتجفان، وأسرعت باكية إلى غرفتها، إلى السرير الذي ظلَّ ملجأً لراحتها، ووحدتها، وآلامها. واقترب جاك المذهول منها، وكانت تدفن وجهها في الوسادة، وخصلات شعرها القصيرة كانت تكشف رقبتها، وظهرها النحيل الذي يهتز بفعل نحيبها.

قال جاك، وهو يلمس يدها بخجل: - «أمي.. أمي... أنت جميلة جداً على هذه الصورة »، لكنها لم تسمع، وأشارت له بيدها أن يدعها وحدها، وتراجع إلى الباب واضعاً يده على إطاره، وشرع

هو أيضاً بالبكاء، بسبب عجزه وحبه لها، ولم توجه الجدّة كلامها إلى ابنتها لعدة أيام متتالية.

وفي ذات الوقت، كان أنطوان يُستقبل بفتور أكبر، عندما يأتي للزيارة، وكان وجه إرنست (على وجه الخصوص) جامداً، وأنطوان الذي كان متبجحاً ومتكلماً بارعاً كان يشعر بذلك جيداً. ماذا حدث؟!..

رأى جاك مراراً آثار البكاء في عيني أمه الجميلتين، وكان إرنست يلوذ بالصمت غالباً، ويدفع عنه بعيداً، حتى الكلب بريان. وفي أمسية صيفية لاحظ جاك أن إرنست بدا يراقب شيئاً ما على الشرفة، سأله الطفل: «هل سيأتي دانييل؟!»..

فتأفف منه. وفجأة رأى جاك أنطوان الذي وصل بعد انقطاع أيام عديدة. فأسرع إرنست وبعدها بثوان سُمع ضجيجاً قوياً على السلالم، وهرع جاك، ورأى الرجلين يتصارعان دون أن ينبسا ببنت شفة في الظلمة، وإرنست الذي لم يشعر بوقع الضربات، كان يضرب، ويضرب بكلتي قبضتيه القاسيتين كالحديد، وبعدها تدحرج أنطوان إلى أسفل الدرج، وعندما نهض كان فمه دامياً، فأخرج منديلاً ليمسح الدم دون أن يترك بنظره إرنست الذي ذهب كالمجنون، وعندما عاد، وجد جاك أمه جالسة في غرفة الطعام ساكنة وجامدة القسمات. وجلس هو أيضاً دون أن ينطق بكلمة، ثم عاد إرنست وهو يتلفظ

بالشتائم، وألقى نظرة غاضبة صوب أخته. وتمَّ العشاء كالعادة، عدا أن والدته لم تتناول طعامها، كانت تقول ببساطة لأمها التي ألّحت عليها: - «لست جائعة».

انتهى العشاء، فذهبت إلى غرفتها، وخلال الليل، كان جاك المستيقظ يراها تتقلب في فراشها..

واعتباراً من اليوم التالين عادت إلى فساتينها السوداء أو الرمادية وإلى رداء الفقر الصارم. جاك كان يراها جميلة دوماً بل أكثر جمالاً نتيجة العزلة والشرود المتزايدين وهي القابعة الآن وإلى الأبد في الفقر والعزلة والشيخوخة القادمة[1].

وحقد جاك على خاله زمناً طويلاً دون أن يعلم بالضبط مايمكن أن يأخذه عليه، ولكنه في الوقت نفسه، كان يعلم أنَّه لا يمكنه الحقد عليه، وأنَّ الفقر والعاهة والحاجات الأساسية، التي كانت تعيشها أسرته، كانت تمنع على كل حال الحكم على أولئك الذين هم ضحاياها حتى لو لم يصفحوا. كانوا يسببون الألم بعضهم لبعض، دون قصد، ولأنهم ببساطة يمثلون كل واحد للآخر، العوز والحاجة والقسوة التي يعيشون فيها.

---

[1] لأنَّ الشيخوخة آتية، وفـــي ذلك الحين، رأى جاك أن أمَّه قد كبرت، وكان لديها عمر بالكاد هو عمره الآن، لكن الشباب هو أولاً، لقاء الإمكانيات ، وهو كانت الحياة كريمة معه.... [مقطع محذوف].

وعلى كل حال، فهو لا يشك بالحب، والتعلق شبه البهيمي الذي يكنه خاله للجدّة أولاً، ثم لوالدة جاك وطفليها.

لقد شعر بذلك بنفسه، يوم الحادث في ورشة صناعة البراميل[لخ]، كان جاك يذهب إلى ورشة صناعة البراميل كل يوم خميس، فإن كان لديه فروض مدرسية ، كان ينهيها بسرعة كبيرة، ويهرع بسرعة إلى الورشة، وبالبهجة نفسها التي يحسّ بها مرات أخرى حين يلتقي رفاقه في الشارع.

وتقع الورشة بالقرب من حقل المناورة، وهي عبارة عن باحة مليئة بالأنقاض والحلقات الحديدية، وخبث الحديد، المخلفات النارية، وفي إحدى الجهات بُني نوع من السقف القرميدي المرفوع على أعمدة حجرية تفصلها مسافات منتظمة.

ويعمل العمال الخمسة، أو الستة، تحت ذلك السقف، ولكل مكانه من حيث المبدأ، أي طاولة عمل أمام الحائط فيها مساحة فارغة حيث يمكن إعداد البراميل، والبردويا ت[بر] ويفصلها عن المكان التالي، مقعد دون مسند، صُنع فيه شقٌّ واسع، بما يكفي لوضع قعر برميل، وشحذه يدوياً بواسطة أداة

---

[1] يمكن وضع مقطع ورشة البراميل قبل غضب إرنست أو ربما في بداية وصف إرنست الخلقي.

[2] بردوية: برميل كبير يستخدم لخزن النبيذ في بوردو ويحوي مابين (225– 230) ليتراً.

تشبه السكين[لخ]، لكن حدّها المسنون كان من جهة الرجل الذي يمسك بها من المقبضين.

والحق يقال، إنَّ هذا التنظيم في العمل لم يكن محسوساً للوهلة الأولى، وبالتأكيد فإن تقسيم العمل كان على هذا الشكل في البداية، ولكنّ مع مرور الوقت، نُقِلَتْ المقاعد من أماكنها، وتكدست ا لحلقات بين مناضد العمل، وكانت صناديق المسامير المثنية ، تنتقل من مكان لآخر، ويلزم التمتع بملاحظة طويلة، وبتكرار التردد إلى هناك للتأكد من أن حركات كل عامل كانت تتطور دوماً في المنطقة نفسها. وقبل وصوله إلى الورشة، التي يحمل إليها فطور خاله، كان جاك يميز ضجيج المطارق على المقصّات التي تصنع الحلقات الحديدية حول البراميل التي تمَّ جمع أضلاعها في ناحية المقص، بينما كان يتم تمرير الطرف الآخر، برشاقة حول الحلقة، أو أنَّه كان يتعرف إلى الضجيج الأقوى، والمتباعد زمنياً، حين يتم شد الحلقات التي يتم تمريرها في ملزمة منضدة العمل.

وحين كان يصل إلى الورشة إلى خضم ضجيج المطارق، كان يتم استقباله بتحيات جذلة، ثم تعود المطارق إلى رقصها.

[1] يجب التأكد من اسم الأداة.

وكان إرنست الذي يرتدي سروالاً عتيقاً، ومرثياً أزرق اللون فلانيلة رمادية دون أكمام، وشاشية حائلة اللون، تحمي شعره الجميل من برادة الحديد والغبار كان يقبّله، وكان جاك يعرض عليه المساعدة.

وكان جاك يمسك في بعض الأحيان الحلقة المنتصبة على السندان بينما كان يقوم خاله بطرقها على الجوانب من اجل تثبيت المسامير المثنية، وكانت الحلقة ترتجّ بين يدي جاك ، فمع كل ضربة مطرقة، كانت تنغرس الحلقة في باطن يده، أو أنه حين يجلس إرنست القرفصاء على طرف مقعد يفعل جاك الشيء ذاته على الطرف الآخر من المقعد، وهو يضغط قعر البرميل الذي يفصلهما، بينما يقوم إرنست بشحذه، لكن الأمر المستحب لديه ، كان حمل أضلاع البرميل إلى وسط الباحة، حيث كان إرنست يجمعها بغلاظة بوساطة حلقة يمررها فيما بينها.

وفي وسط البرميل المفتوح من الطرفين، كان إرنست يجمع برادة الحديد، التي كان على جاك أن يوقد النار بها، وكانت النار تعمل على تمدد الحديد، أكثر من تأثيرها على الخشب، ويستفيد إرنست من هذا الأمر، ليغرس الحلقة أكثر من ذي قبل، بضربات قوية من إزميله، ومطرقته، وسط الدخان الذي يعمي العيون دموعاً، وعندما كانت تغرس الحلقة، يجلب جاك

دلاءً من الخشب مملوءة بماء المضخة في الباحة، ويبتعد قليلاً مفسحاً المجال لإرنست، لكي يقذف الماء بعنف على البرميل، ويتم بذلك تبريد الحلقة الحديدية، التي تنقبض لتطبق أكثر على الخشب المبلل بالمياه، بينما تنطلق سحابة من البخار[1].

وكانت هذه الأمور تجري فيما يجتمع العمال ليأكلوا شيئاً ما حول نار برادة الحديد أو الحطب، خلال الشتاء، أو في ظل سقف أيام الصيف. وكان بينهم أبدير[2] العامل العربي، الذي يرتدي سروالاً عربياً فضفاضاً، ذو ثنيات في سرجه، وسترة قديمة فوق كنزة صوفية ممزقة، وكذلك يلبس شاشية على رأسه، وهو الذي يناديه بلكنة مضحكة «زميلي» « mon collégue» لأنه كان يقوم بالعمل الموكل إليه نفسه، عندما كان يساعد إرنست.

والمعلم م [ ][3] والذي كان في الواقع صانع براميل قديم، وكان ينفذّ طلبيات تتم عن طريقه لصالح ورشات براميل أكثر أهمية ومغفلة الاسم.

---

[1] الانتهاء من صنع البراميل.

[2] أبدير: قد يكون الاسم مشوهاً، وتحريفاً لاسم «عبد الرحمن»، أو «عبد الرحيم»... المترجم.

[3] اسم لا يمكن قراءته.

وهناك عامل إيطالي دائم الحزن ومزكوم على الدوام، وهنالك على وجه الخصوص دانييل المرح، والذي كان يأخذ جاك دوماً إلى جانبه، ليمازحه، ويداعبه.

وكان جاك يتملّص منهم، ويذهب متسكعاً في الورشة بمئزره الأسود المغطى بنشارة الخشب، وبقدميه التي تندسّ بلا جوارب داخل حذاء مهترئ، له رباطات، فإذا كان الطقس حاراً، تلطّخ الحذاء بالتراب والبرادة، وكان يستنشق بكثير من اللذّة رائحة نشارة الخشب، ورائحة برادة الحديد الطازجة، أكثر منها، ويعود نحو النار ليستنشق رائحة الدخان اللذيذ المنبعث عنها، أو يجرب أداة الشحذ التي تستخدم لشحذ قعر البراميل، ويستخدمها بحذر على قطعة من خشب، يثبتها في الملزمة، ويستمتع بمهارة يديه، حيث يقوم العمال بمدحه على مهارته.

وفي إحدى جلسات الاستراحة تلك، حدث له أن قفز، وجثم بغباء على المقعد، وحذاؤه مبلل، وتزحلق فجأة إلى الأمام، بينما انقلب المقعد إلى الخلف، فوقع بكامل ثقله على المقعد، بينما علقت يده اليمنى تحت ذلك الأخير، وأحسَّ بألم خفيف في الحال بيده، لكنه نهض بسرعة ضاحكاً، أمام العمال الذين هرعوا إليه.

وقبل أن ينتهي من الضحك، كان إرنست ارتمى إليه، وأخذه بين ذراعيه، وانطلق به خارج الورشة، وهو يركض بسرعة تقطع الأنفاس، وهو يتأتئ: «عند الطبيب، عند الطبيب...»،

حينها رأى أن الجزء الأكبر من يده في قسمها الأعلى، قد هُرِسَ، وكانت يده تشبه قطعة عجين وسخة ومشوهة، ويسيل الدم منها. وبغتة.. فَقَدَ الوعي، لأنه لم يحتمل المنظر، وبعد خمس دقائق، كانوا عند الطبيب العربي الذي يسكن في الجهة المقابلة، وكان إرنست يقول: «الأمر ليس سيئاً دكتور، الأمر ليس سيئاً أليس كذلك؟!»... وكان ممتقع اللون كقطعة قماشية.

- «اذهب، وانتظرني جانباً، سيكون الطفل شجاعاً»..قال الطبيب.

نعم، يجب أن يتحلى بالشجاعة، تشهد بذلك إصبع جاك الوسطى، غريبة الشكل، والتي تم تقطيبها، بقيت شاهداً إلى اليوم على تلك الحادثة.

ولكن بعد الانتهاء من وضع الكلّابات، والضّماد، منحه الطبيب شهادة شجاعة عن طيب خاطر، ولكن ذلك لم يمنع إرنست من حَمْلِهِ من جديد لاجتياز الطريق، وعلى درج المنزل، شرع يعانق الصبي، وهو يئنُّ، ويضمّه إليه، لدرجة جعلته يتألم.

قال جاك: «أمي، أحد ما يطرق الباب...»...

قالت الأم: « - إنَّهُ إرنست، اذهب وافتح الباب، سوف أغلق الباب خوفاً من اللصوص..».

أطلق إرنست صرخة من شدة المفاجأة على عتبة الباب، عندما اكتشف وجود جاك، صرخة تشبه «how» الإنكليزية، وعانقه، وهو يتطاول بقامته، ورغم الشيب الذي غزا شعره كاملاً، فقد حافظ وجهه على شباب مدهش، كانت تقاسيمه متناظرة، ومتناغمة، لكنَّ الساقين المقوستين ازداد تقوسهما، وانحنى ظهره، بصورة كاملة، وكان إرنست يمشي ، وقد باعد ذراعيه وساقيه. قال له جاك: «كيف الحال؟!».. - «لا، لديه نقاط من الألم، إنه روماتيزم، لقد كان الوضع سيئاً، وما هو وضع جاك؟!»، - «نعم كل شيء على ما يرام، إنه قوي».. - «وهي(وأومأ إلى كاترين بإصبعه)؟!»، - «إنها مسرورة لرؤيته»..

منذ وفاة الجدة، ورحيل الطفلين، عاش الأخ، والأخت سوياً، ولم يكن أحدهما يستغني عن الآخر، هو يحتاج أحداً ليعتني به، ومن هذه الزاوية، فهي تُعدُّ امرأته، فهي تحضِّر وجبات الطعام، وتغسل ثيابه، وتعتني به، حين يمرض.

لم تكن هي تحتاج نقوداً ، لأن أولادها يؤمنون لها ما تحتاجه، ولكنها كانت تحتاج لرجل يسهر على راحتها بطريقته الخاصة، طوال السنوات الماضية التي عاشاها معاً. نعم عاشا مثل زوج وزوجة، ولكن ليس جسدياً، بل بسبب رابطة الدم، كان كل منهما يساعد الآخر على الاستمرار في الحياة، في

حين كانت العاهة تجعل حياتهما بالغة الصعوبة، كانت حواراتهما خرساء، يتم إيضاحها على فترات ببعض الجُمل المجتزأة، لكنهما كانا أقرب لبعضهما، وأكثر خوفاً أحدهما على الآخر، مقارنة بالأزواج الطبيعيين.

كان إرنست يقول: - «نعم، نعم، جاك، جاك، مازالت تتكلم؟!»، وكان يجيب جاك: - «نعم، هذا هو الأمر؟!»..

وهاهو في الحقيقة، موجود بين الاثنين، كما في الماضي، ولا يستطيع أن يقول لهما شيئاً، ولا يكفّ عن التعلق بهما أبداً، إن استمراره في حبهما سمح له أن يستمر في حالة الحب، بينما هو قد فشل في أن يحب الكثير من الفتيان اللواتي تستحققن أن تعشقن.

- «كيف حال دانييل؟».

- «إنَّهُ بحال جيدة، إنه عجوز مثلي، بييرو أخيه في السجن..».

- «لماذا؟!».

- «بسبب العمل النقابي، أنا أعتقد أنه موالٍ للعرب».

وفجأة وبهيئة قلقة يقول:

- «قل، العصابات، هكذا جيد؟! ».

قال جاك: - « لا ، العرب الآخرون، نعم، أما العصابات فلا..».

- «حسناً، قلت لأمك أن أرباب العمل قساة القلب كثيراً. إن الأمر مثير للجنون، ولكن العصابات... إنه أمر غير معقول».

- «هو ذاك..».قال جاك، ولكن يجب القيام بشيء مامن أجل بيبيرو.

- «حسناً، سأتحدث بذلك إلى دانييل».

- «وكيف حال دونات؟». (إنَّه مستخدم شركة الغاز وهو الملاكم)..

- «لقد مات بمرض السرطان، لقد هَرِمنْا جميعاً»...

- «نعم، لقد مات دونات، والخالة مارغريت أخت والدته، ماتت هي الأخرى، وهي المرأة التي كانت جدته تجرّه إليها يوم الأحد في فترة بعد الظهر، وهناك كان يشعر بملل فظيع، باستثناء أن يأتي العم ميشيل الحوذي، والذي كان يملّ هو الآخر تلك الأحاديث، في صالة الطعام العاتمة حول فناجين القهوة المرّة، الموضوعة على شرشف الطاولة المشمّع، كان يأتي لاصطحابه إلى اصطبله القريب، وهناك في الفيء، وفي حين كانت شمس مابعد الظهيرة تلهب الشوارع في الخارج، كان يشمّ في البداية رائحة شعر الأحصنة والتبن والروث، ويسمع صليل لجام الخيل، وهي تحتك بالمعالف.. الخشبية، وكانت الأحصنة تستدير لتنظر إليهما بأعينها ذات الأهداب الطويلة، وخاصة إلى العم ميشيل الطويل، والجامد، ذو الشاربين الطويلين، والذي كان هو أيضاً، يشمّ رائحة التبن، وكان يرفع الصبي ليضعه على أحد تلك الأحصنة المسالمة، التي كانت تعود

إلى معالفها لتجرش الشوفان من جديد، بينما كان العم يحضر نبات الخروب للصبي، الذي يمضغها، ويمصها بتلذذ، لقد كان يكن مشاعر الصداقة لذلك العم المرتبط بذهنه بالخيل، ومعه كان أثناء أيام اثنين الفصح يذهب مع العائلة، من أجل تحضير فطيرة منى[1] في غابة سيدي فرج، كان يستأجر إحدى عربات الترام التي تجرّها أحصنة، والتي كانت تقلّ الناس من الحي الذي يسكنون فيه إلى وسط العاصمة الجزائر، وهي نوع من الأقفاص الكبيرة المجهّزة بفتحات للإضاءة، ومقاعد متعاكسة الاتجاه، يتم ربطها إلى أحصنة يقوم ميشيل باختيار قائد الأحصنة من اصطبله، ومنذ الصباح الباكر، يتم تحميل سلات الغسيل المليئة بفطائر حلوى منى، والمليئة كذلك بالمعجنات الهشة الرقيقة المسماة «أذينات»[2]، والتي تقوم النسوة بتحضيرها عند الخالة مارغريت قبل يومين من النزهة، لقد كنَّ يفرشن العجينة على غطاء الطاولة المشمع، حتى يغطينه تماماً، ثم يتم تقطيعه بواسطة دويلب خشبي إلى أجزاء، يقوم الأولاد بجلبها إلى القلي في صحون خاصة، وكانت تنزّلُ في أحواض مملوءة بالزيت المغلي، ثم تنشل وتُصفُّ بعناية في سلات غسيل حيث

[1] فطيرة حلوة من الدقيق والخبز والبيض تصنع في عيد الفصح – المترجم.

[2] أذينات: حلوة من طحين وزبدة وبيض وزهر البرتقال مشهورة في فرنسا – المترجم.

تتصاعد منها رائحة الفانيلا اللذيذة، التي كانت ترافقهم مسافة الطريق إلى سيدي فرج، وتختلط برائحة رذاذ البحر الذي كان يصل إليهم في الطريق الساحلي والذي كان يزعج الأحصنة الأربعة بمرارة، وكان ميشيل يفرقع بسوطه فوقها، ويعطي السوط أحياناً لجاك الجالس إلى جانبه، وجاك الذي كان يذهله منظر الأرداف الضخمة للخيول متهادية تحته، ومحدّثة ضجة عارمة، بأجراسها، وحين ترفع الأحصنة أذيالها، كان يرى كيف يتشكل الروث الفاتح للشهية في مؤخرتها، ثم يسقط على الأرض، بينما كانت الحدوات تشعّ، والاجراس يتسارع رنينها، عندما كانت الخيل تهزّ رؤوسها صعوداً، ونزولاً..

وفي الغابة، بينما كان الآخرون ينزلون السلال ، ومناشف الأطباق بين الأشجار، كان جاك يساعد ميشيل في ملاطفة الخيل، وتعليق معالف قماشية حول رقابها، حيث يبدأ الفكّان عملهما وعيونها تُغمض وتُفتح أو تقوم بطرد ذبابة بأرجلها بعد نفاذ صبرها..

كانت الغابة تغصُّ بالناس، كانوا يأكلون وسط الزحام ويرقصون في أماكن متعددة على أنغام الأكورديون أو الغيتار، والبحر يزمجر بالقرب منهم، ولم تكن درجة الحرارة مرتفعة بما فيه الكفاية لتسمح بالنزول إلى البحر، ولكنها كانت

كافية لتسمح بالمشي حفاةً على الموجات الأولى للبحر، فيما كان الآخرون، يستمتعون بالقيلولة، بعد أن خفّت حدّة الضياء بصورة تدريجية، مما جعل مساحات السماء تبدو أكثر اتساعاً، بل كانت واسعة للغاية إلى درجة أن الطفل كان يشعر بالدموع تتجمع في عينيه، وفي الوقت ذاته، أحسّ بصرخة جذلى وامتنان كبير اتجاه الحياة الرائعة.

ولكن الخالة مارغريت قد ماتت، ويقال إنها، وهي الجميلة للغاية، كانت ترتدي ملابساً مبالغ في أناقتها، ولم تكن مخطئة في ذلك، فقد أقعدها مرض السكر، حيث بدأ جسدها يتورم في معتزلها داخل الشّقة، وأصبحت ضخمة الجثة، ومتورمة إلى درجة أنها بالكاد تستطيع التقاط أنفاسها، وأضحت بشعة بصورة مخيفة، محاطة ببناتها، وابنها الأعرج صانع الأحذية، والذين كانوا يرقبون، والألم يعتصر قلوبهم، إن كانت قادرة على التقاط أنفاسها[لخ] [بر]. ومازالت تتورم بسبب الأنسولين، حتى فقدت القدرة على التنفس ورحلت[تر].

---

[1] الكتاب السادس فـــي الجزء الثاني.

[2] وفرنسيس كان قد مات أيضاً(انظر الملاحظات الأخيرة).

[3] دينيز تتركهم فـــي سن الثامنة عشرة لتشق طريقها وتعود فـــي الحادية والعشرين، وقد أصبحت ثرية، وتبيع مجوهراتها لترمم اصطبل أبيها، ثم تموت بسبب جائحة.

لكن الخالة جان قد رحلت هي الأخرى، وهي أخت الجدّة تلك التي كانت قد حضرت حفلة بعد الظهر يوم الأحد، والتي قاومت داخل مزرعتها البيضاء المطلية بالكلس، وسط بناتها الأرامل الثلاثة، وهي تتحدث عن زوجها الراحل منذ زمن بعيد..

أما الخال جوزيف الذي كان لا يتكلم إلاّ اللغة الماهونية، والذي كان يثير إعجاب جاك، بسبب شعره الأشيب المنسدل، فوق وجه جميل، وردي اللون وقبعة صغيرة سوداء لا يتخلّى عنها، حتى وهو يجلس إلى المائدة بمظهره النبيل، الذي لا يمكن تقليده، فكان يحدث أن يترك وجبة الطعام، ليطلق كلاماً فظاً بصورة صاخبة، يعتذر عنه بلطف أمام الملامات المستسلمة التي تطلقها زوجته.

وأفراد عائلة ماسون ماتوا جميعاً، المرأة العجوز ماتت أولاً، ثم أختها الكبرى الكسندرا الكبيرة، و[ ]لخ، الأخ ذو الأثنين المشنفتين، والذي كان بهلواناً، ويغني في الحفلات الصباحية التي تقيمها سينما القصر.. نعم ماتوا جميعاً، حتى صغرى الفتيات مارت، والتي كان أخوها هنري يتودد إليها بل أكثر من ذلك..

---

[1] اسم لا يمكن قراءته...

ولم يعد أحد يتحدث عنهم. لا أمه ولا خاله لم يعودا للتحدث عن الأقرباء الراحلين، ولا عن هذا الأب الذي كان يقتفي أثره، ولا عن الآخرين. كانا يتابعان حياة العوز رغم أنهما لم يعودا في عَوزٍ، ولكن بحكم العادة وبسبب الحذر الخاضع لأهواء الحياة التي يحبانها بطريقة بهيمية، مع خبرتهما بحكم التجربة، أنَّ الحياة تخلق المآسي بصورة منتظمة دون أن تعطي سابق إنذار.[1]

وبوضعهما الراهن، هما الاثنان، وهما حوله صامتين، ومنطويين على نفسيهما، خاليين من الذكريات، ومخلصين فقط لبعض الصور الغامضة، كانا يعيشان الآن على مقربة من الموت، بمعنى أنَّهما يعيشان في الحاضر دوماً. قد لا يتمكن أبداً من معرفة أبيه منهما، وحتى لو كان حضورهما وحده يفتح في نفسه منابع طازجة قادمة من طفولة بائسة وسعيدة، فهو لم يكن على ثقة أن هذه الذكريات الغنية، والمتدفقة في ذاته، كانت حقاً مخلصةً لذلك الطفل الذي كان في الماضي..

وعلى العكس، فقد كان متأكداً أن عليه استبقاء صورتين أو ثلاث، متميزات، تربطه بهما، وتذيبه فيهما، وتلغي ماكان يحاول أن يكون عليه، خلال عدة سنوات، وتُحيليهُ إلى كائن

---

[1] فـــي الواقع كانا غريبي الأطوار؟(لا هو من كان غريب الأطوار).

مغفل الاسم، وأعمى، عاش سنوات عديدة، بفضل عائلته التي كانت سبب نُبلِهِ.

مثل هذه الصورة، في إحدى الأمسيات الحارّة، حيث كانت العائلة كلّها تُنزِلُ الكراسي إلى الممر أمام باب المنزل، حيث الهواء العابق بالحرارة والغبار، يهب على الشجر، فيما أهل الحي، يمرّون أمامهم في رواحهم وغدوهم..

وكان جاك [لخ] يضع رأسه على كتف أمّه النحيل، وقد أمال كرسيه قليلاً إلى الخلف، ناظراً إلى نجوم السماء الصيفية عبر الأغصان..

أو صورة ثانية لأمسية عيد الميلاد حين قَفَلَ راجعاً من منزل مارغريت دون إرنست بعد منتصف الليل. لقد شاهدا أمام المطعم قرب البيت رجلاً ممدّداً، ورجلاً آخرَ يرقص حوله، والاثنان، كانا قد ثملا، ويريدان المزيد، لكن صاحب المطعم، وهو شاب أشقر، هزيل الجسم، قام بطردهما، فبدأا يضربان بأرجلهما زوجة صاحب المطعم الحُبلى، فقام صاحب المطعم بإطلاق النار، واستقرت الرصاصة في صدغ الرجل الأيمن، فانثنى رأسه باتجاه الجرح، أما الرجل الآخر، الذي أسكره الخمر والذهول، فقد شرع بالرقص حول زميله، وبينما كان

[1] مَلِكٌ متواضعٌ وفخور بجمال الليل.

المطعم يقفل أبوابه، كان الزبائن يهرولون هاربين قبل وصول الشرطة..

وفي هذه الزاوية البعيدة من الحي، كانوا يجلسون متلاصقين بعضهم بالبعض الآخر، المرأتان تشدّان الولدين إليهما، والنور الخفيف ينعكس على البلاط بعد زخّة مطرٍ، انتهت لتوها، وكذلك تُسمعُ انزلاقات طويلة لسيارات بفعل البلل، ويُلحظ وصول حافلات الترامواي الصاخبة، والمضاءة بين الفينة والأخرى، حافلات ملأى بالركاب المبتهجين، وغير المكترثين، لهذا المشهد القادم من عالم آخر، كل ذلك كان يطبع في ذهن جاك المرتعد صورةً، فاقت كل الصور الأخرى: الصورة العذبةن والمُلحّة لهذا الحي حيث عاش كل النهار بكامل براءته، وحنينه، ولكن نهايات تلك النهارات، كانت تجعل الحي يصبح غامضاً ومثيراً للقلق، عندما تمتلئ شوارعه بالعتمة، أو بالأحرى بعتمة واحدة مغفلة الاسم، يُشار إليها بهرولة خفيفة، وضجيج أصوات غامضة، كانت تنبعث أحياناً، يشوبها مجدٌّ دامٍ، يختلط بضوء أحمر، منبعث من الكرة المضيئة للصيدلية. والطفل الذي امتلأ قلقاً على حين غرّة، كان يركض نحو المنزل البائس ليجد فيه ذويه.

القسم الرابع – المدرسة

هو لم يعرف أبيه، لكنه كان يحدثه عنه غالباً بصورة أسطورية، وبكل الأحوال، وفي لحظة محددة، عرف كيف يستبدل هذا الأب، ولهذا فإن جاك لم ينسه قط، وكأنه لم يعان حقيقة من غياب أب، لم يعرفه أبداً، وقد اعترف بصورة غير مدركة، ولكونه طفل أولاً، ثم خلال حياته التالية، بأنَّ الحركة الأبوية الوحيدة المدروسة، والحاسمة، التي حصلت له في حياة الطفولة، كانت على يد السيد «**برنار**»، معلم صفه الابتدائي، فقد وضع هذا المعلم كامل ثقله كرجل في لحظة ما، ليغيّر مصير هذا الطفل، حيث أخذه بعهدته، وقد غيّره فعلاً.

والآن، فإنَّ السيد «**برنار**» كان يقف بمواجهة جاك، داخل شقته الصغيرة الواقعة في منعطف روفيغو على عتبة حي القصبة، الذي يشرف على المدينة والبحر، ويسكنه صغار التجار، من كل الأجناس والأديان حيث تفوح منه روائح التوابل والفقر.

لقد كان هناك، وقد طعن في السن، وأصبح خفيف الشعر، وتظهر على جلده بقع الشيخوخة، خاصة في الوجنتين، وقد باعد يديه عن جسده، أكثر من الأيام السابقة، ويبدو أنَّه كان يسعد حين يستطيع أن يحلق ذقنه على كرسي القصب قرب النافذة المطلّة على الشارع التجاري، وحيث يغرّد الكناري الذي انخفض صوته أيضاً، بسبب تقدمه في السن. وقد أفسح معلمه المجال لانفعالاته، الأمر الذي لم يحصل سابقاً، لكن ظهره مازال مستقيماً، وصوته قوياً وحازماً، كما في الماضي، حين كان يقف أمام صفه، ويقول: «هيا إلى الاصطفاف، كل طالبين معاً أنا لم أقل كل خمسة معاً».. وكان التدافع يتوقف، فالسيد برنار، يخشاه الطلبة، ويحبونه في آن واحد، إذ كانوا يصطفون على طول الحائط الخارجي، للصف في ممر الطابق الأول، وحين ينتظم الصف ويصبح ساكناً، ويصمت الطلبة حين يأتيهم نداء: «**ادخلوا الآن يا عصبة الترمس..**»، كان هذا النداء يحررهم، ويعطيهم إشارة الحركة والاندفاع، ولكن بصورة أقل عنفاً، لأن السيد برنار القوي والأنيق بوجهه، الذي تعلوه خصل من شعره الأملس، وتفوح منه رائحة ماء الكولونيا، كان يراقب ببهجة وحزم ذلك المشهد.

تقع المدرسة في الجزء الحديث من هذا الحي العتيق، تحدّها منازل ذات طابق أو اثنين، بنيت بعد حرب السبعين[1]، وتحدها مستودعات أكثر حداثة، وصلت إلى الشارع الرئيسي حيث منزل جاك في الميناء الخلفي للجزائر، حيث توجد أرصفة الفحم.

كان جاك يذرع الطريق ذهاباً وإياباً بين المدرسة والمنزل مرتين يومياً، منذ أن بدأ يذهب إليها في سن الرابعة حين كان في قسم الحضانة، وهي الفترة التي لا يتذكرها، اللهم، إلاّ المغسلة الحجرية الغامقة التي تشغل عمق ساحة مفتوحة حيث حصل له أن وقع يوماً على رأسه، لينهض دامي الوجه، وقد شُجَّ حاجبه، وسط ذعر المعلمات، وحينها، تعرّف إلى القُطَبْ، التي ما أن أزيلت حتى انتقلت إلى الحاجب الآخر، حين أراد شقيقه أن يزينه بنصف قشرة بطيخ أصفر على الرأس، ومعطف قديم أربك قدميه، بحيث أنه سقط على أحد الأحجار المنتزعة من الأرضية المبلّطة، وغرق ثانية في دمه.

---

[1] – حرب السبعين: وقعت بين بروسيا وفرنسا عام 1870، حين أعلن نابليون الثالث الحرب على بروسيا، وقد خسرت فرنسا هذه الحـــرب – «المترجم».

كان يذهب إلى الحضانة برفقة بيير، الذي يكبره بعام واحد، ويسكن في شارع قريب من منزله، مع والدته أرملة الحرب، التي أصبحت موظفة في مصلحة البريد، ومع خاليه اللذين يعملان في السكك الحديدية، ويربط نوع من الصداقة بين العائلتين، كما هو الحال بالنسبة لعائلات الحي الأخرى، بمعنى أنَّهما تُقدّران بعضهما دون أن تحصل زيارات عائلية تقريباً، وكانتا مستعدتين لمساعدة بعضهما البعض، دون أن تحصل مناسبة لإظهار ذلك.

الطفلان وحدهما، أصبحا صديقين حقيقيين، فمنذ اليوم الأول، حين كان جاك يرتدي فستاناً، وعُهد به إلى بيير المدرك لحالة سرواله ولواجبه، على أنَّه الأكبر سناً، كان الطفلان يذهبان معاً إلى الحضانة، واجتازا بعدها كل الصفوف إلى صف الشهادة الابتدائية، حيث أصبح عمر جاك تسع سنوات، وخلال خمس سنوات، كانا يقومان بالمشوار ذاته، أربع مرات يومياً.

فالأول كان أشقر اللون، والآخر أسمره، والأول هادئ، والآخر كثير الحركة، لكنهما أخوين في المنشأ، والمصير، وكانا طالبين مجدّين، وكذلك الأمر، لاعبين لا يتعبان..

كان جاك لامعاً أكثر في بعض المواد، ولكن سلوكه وطيشه وحب الظهور أيضاً، كل ذلك، يدفعه إلى ارتكاب آلاف

الحماقات، وكان ذلك يعطي تميزاً أكثر لـِ «**بيير**» **العاقل والكتوم**. وهو الأمر الذي جعلهما قدوة الصف، بالتناوب، دون أن تصيبهما لذة الغرور، على عكس عائلتيهما، فاللذة بالنسبة لهما كانت مختلفة كل الاختلاف...

في الصباح، كان جاك ينتظر بيير امام المنزل، كانا يذهبان إلى المدرسة، قبل مرور عمال النظافة، وبالتحديد أبكر من الوقت الذي تمرُّ فيه عربة يجرها حصان متوّج الرأس، ويقودها عجوز عربي، وكان الرصيف مبللاً من رطوبة الليل، والهواء القادم من جهة البحر، يحمل معه طعم الملح. وكان الشارع الذي يسكنه بيير مليء بالقمامة التي نبشها عرب، أو مغاربة جوعى، أو أحياناً متسكع إسباني، علّهم يجدون شيئاً يؤكل مما ازدردته وعافته هذه العائلات الفقيرة، بحيث أقدمت على رميه بين الفضلات.

كانت أغطية حاويات القمامة مغلقة عموماً، وفي هذه الساعة المبكرة، كانت قطط الحي الشرسة والنحيلة، هي من تقوم بدور المتسكعين، وكانت اللذّة بالنسبة للطفلين، هي الوصول بهدوء، وصمت كافيين، خلف تلك الحاويات لإغلاق أغطيتها، فجأة، لتطبق على القطة الموجودة في الداخل. لم تكن هذه المأثرة مريحة، لأن القطط التي ولدت وكبرت في حي فقير،

كان لديها الكثير من اليقظة والرشاقة، حتى تدافع عن حقها فـي الحياة.

ولكن يَحصل أحياناً أنَّ قطة ما، وقعت على ما يثير الشهية، وقد أبهرها المشهد، وصعب عليها الحصول على جزء منه، فتقع فريسة للمفاجأة. وكان غطاء الحاوية يطبق محدثاً ضجيجاً، وتطلق القطة صوتاً مرتعباً، وينتفض ظهرها، وتظهر مخالبها، وتستطيع أن ترفع سقف سجن التوتياء، وتتملص منه، بينما يتقفف شعرها رعباً، وتنسحب، كما لو أن عصبة من الكلاب تلاحقها، وسط ضحك جلاّديها، اللذين لا يدركان حجم قساوتهما.

والحق يقال: إنَّ هذين الجلادين ، كانا غير منطقيين، لأنهما يكرهان صيّاد الكلاب، الذي يسميه أطفال الحي «**غالوفا**» (وهي كلمة إسبانية)،موظف البلدية، هذا كان يعمل فـي الفترة ذاتها، ولكن حسب الحاجة، وكان يقوم بجولات فـي فترة ما بعد الظهر أيضاً. إنَّهُ **رجل عربي** يرتدي ملابسه على الطريقة الأوربية، وهو يقبع عادة خلف عربة غريبة، يجرّها حصانان، ويقودها رجل عربي مسن، عديم الإحساس، وكان جسم العربة على شكل مكعب خشبي، وضع على طوله من الجهتين صفّان مزدوجان من الأقفاص متينة القضبان، والمجموع هو ستة عشر قفصاً، يمكن أن يحتوي كل واحد منها كلباً،

يتم احتجازه بين القضبان، وقعر القفص. أما الصيّاد فيقف على درجة خلف العربة، وأنفه على مستوى سطح الأقفاص، مما يمكنه من مراقبة أرض صيده.

كانت العربة تسير ببطء عبر الشوارع المبلّلة التي بدأت تزدحم بالأطفال الذاهبين على طريق المدرسة، وربات البيوت الذاهبات لشراء الخبز أو الحليب، وهنَّ يرتدين قمصان حمّام قطنية مزينة بأزهار فاقعة اللون، وكذلك بالتجار العرب المتوجهين إلى السوق، بأطباق عرض البضاعة على أكتافهم، ويحملون قففاً ضخمة من القش، باليد الثانية قففاً مجدولة يضعون بضاعتهم داخلها.

وفجأة ، وبعد نداء الصيّاد يقوم العجوز العربي بشد اللجام إلى الخلف، فتتوقف العربة، وبذلك يكون الصيّاد قد نبّه إحدى ضحاياه التعسة، التي تنبش بعصبية في القمامة، وهي ترمق بانتظام، بنظرات خائفة ، ما وراءها، أو تقفز بسرعة، وتمشي قرب الجدران، بصورة مستعجلة، وقلقة، وهي حالة الكلاب التي تعاني من الجوع. كان غالوفا يتناول سوطاً موضوعاً في مقدمة العربة، وهو سوط ينتهي بسلسلة حديدية مجهزة بمزلاق له حلقة تنزلق على طول المقبض، ويتقدم بخطىً مرنة نحو الحيوان، ويصل إليه، فإن كان لا يحمل قلادة تدل على أنه يخص إحدى العائلات يركض نحوه بسرعة عظيمة، ومفاجئة،

ويضع له حول رقبته سلاحه، الذي يعمل كأنشوطة حديدية، وجلدية، والحيوان الذي يكاد يختنق، يكافح بجنون للإفلات ، مطلقاً شكوى يائسة، لكن الرجل يجرّه إلى العربة، ويفتح أحد الأبواب، ويرفع الحيوان، ويشدّه على رقبته خانقاً إياه أكثر فأكثر، ثم يرميه في القفص ، آخذاً بعين الاعتبار، تمرير مقبض أنشوطته عبر قضبان القفص..

يقوم الصياد بتحرير رقبته من السلسلة الحديدية، بعد وضعه وراء القضبان، لقد أصبح الكلب أسيراً.. على الأقل ، كانت الأمور تسير بهذا المنحى عندما لا يحظى الكلب بحماية أولاد الحي، لأنَّ الجميع كانوا متحدين ضد غالوفا، ويعلم الجميع أن الحيوانات الأسيرة، تؤخذ إلى مكان تشرف عليه البلدية، وتبقى ثلاثة أيام هناك، فإن لم يأتِ أحد للسؤال عنها، يتم قتلها، وحتى لو إنه لم يحصل لهم أن يعرفوا ذلك الأمر، فإن المشهد المثير للشفقة لعربة الموت، العائدة من دورتها الناجحة، والمحملة بحيوانات تعسة مختلفة الأشكال والألوان، تقبع مرعوبة وراء القضبان، تاركة وراء العربة سيلاً من الأنين، والنباح القوي، كان هذا المشهد كافياً، ليثير سخط أولاد الحي.

وما أن تصل العربة الزنزانة إلى الحي حتى ينبه الأولاد بعضهم البعض، وينتشرون في الشوارع لملاحقة الكلاب، بدورهم، ولكن بهدف طردها إلى أماكن أخرى في الحي بعيدة عن أنشوطة الصياد. وإن حصل مرة، وعلى الرغم من هذه الاحتياطات، واكتشف الصياد وجود كلب ضالٍ بحضور بيير وجاك، وهو ما حصل عدة مرات، فإن التكتيك، يبقى على حاله، إذ يبدأان بالصراخ، قبل أن يتمكن الصياد من الاقتراب بصورة كافية من طريدته: «غالوفا، غالوفا»، وذلك بصوت حاد، وهائل، تجعل الكلب يطلق ساقيه للريح بعيداً عن متناول الصياد، وذلك في بضع ثوانٍ، وبعد ذلك يتوجب على الولدين، إثبات جدارتهما في مجال الهروب، لأنَّ البائس غالوفا، الذي يتلقى علاوة على كل كلب يأسره، كان يجنّ غضباً، ويعتبرهما هدفاً، ويلاحقهما ملّوحاً بسوطه. أما الأشخاص الكبار ، فكانوا يمدّون يد المساعدة نحوهما إما بمضايقة غالوفا، أو بتوقيفه، والطلب إليه الاهتمام بالكلاب. أما عمّال الحي، فهم يمارسون الصيد، وكانوا يحبون الكلاب بالطبع، ولكن ليس لديهم أي اهتمام بهذه المهنة الغريبة.

ومع كل هذا الاضطراب الذي يحصل كان العجوز العربي ، سائق العربة، يبقف صامتاً، ههادئ الأعصاب، وحين كان يطول الجدل، يبدأ بلف لفافة تبغه بكل هدوء، وإن كان

الولدان قد أسرا قططاً، أو أنقذا كلاباً، فقد كانا ينطلقان بعدها نحو المدرسة، والجد في الدراسة، ويقومان بإلقاء نظرة خاطفة على بسطات الفواكه، حين يجتازان السوق، ويشاهدان أكواماً من الزعرور، والبرتقال، والمندرين، والمشمس، والدراق، والشمام، والبطيخ، حسب الموسم، وكانا لا يتذوقان منها إلاَّ لماماً، وبكمية محدودة، وتلك التي تكون أقل ثمناً، ثم يثبان مرتين أو ثلاثاً على حصان التدريب الخشبي، دون التخلي عن الحقيبة المدرسية، ثم يركضان على طول شارع المستودعات المسمى تيير، ويتلقفّان رائحة البرتقال التي تخرج من المعمل، حيث يتم تقشير البرتقال من أجل تحضير خمرة البرتقال المحلاة والمعطرة، ثم يصعدان إلى شارع صغير، فيه حدائق وفيلات ويصلان أخيراً، إلى شارع أوميرا الذي يعجّ بجمهرة من الأطفال الذين أخذتهم الأحاديث، وينتظرون فتح أبواب المدرسة.

ثم يبدأ الدرس: كان الدرس مع السيد برنار هاماً دائماً، لسبب بسيط، وهو حبّه لمهنته. في الخارج، كانت الشمس تشتد على الجدران السمراء المائلة إلى اللون الأصفر، بينما كانت الحرارة تحدث أثراً رهيباً على صالة الصف نفسها، رغم الظلّ الذي تسدله عليها الستائر المخططة باللونين الأصفر والأبيض. وكان المطر يهطل مدراراً، كما هو الحال في عموم الجزائر، محدثاً سيولاً لا تنتهي، الأمر الذي يجعل الشارع مثل بئر قاتم، ورطب،

ويتشتت ذهن طلاب الصف، كان الذباب وحده، هو الذي يثير الاهتمام أحياناً. وكانت الذبابات تؤسر، وتوضع في المحابر، حيث تموت بصورة بشعة غارقة في السائل البنفسجي، الذي يملأ محابر الصيني الصغيرة، ذات الجذع المخروطي المغروزة في ثقوب المقعد. لكن أسلوب السيد برنار المتضمن عدم الانصياع لسلوك الطلاب، وجعل تعليمه لهم مسلياً، وحيّاً، ينتصر حتى على الذباب، إنه يعرف دوماً، متى يمكنه أن يسحب من خزانته، ثروته من مجموعات المعادن، والأعشاب، والفراشات، والحشرات المصبّرة، والبطاقات.... الخ.. والتي تثير اهتمام الطلاب، وتقنعهم، لقد كان الوحيد في المدرسة، الذي يحصل على الفانوس السحري، ويقوم مرتين شهرياً بتقديم مواضيع من التاريخ الطبيعي، أو الجغرافي، وفي علم الحساب، قام بمسابقة للحساب الذهني، تجبر الطلاب على سرعة التفكير. لقد أطلق في الصف مسابقة، تتضمن عمليات قسمة، وضرب وأحياناً عمليات جمع معقدة، وكان الأولاد يجلسون مكتوفي الأيدي. كم تساوي (1267 + 691)، وأول من يجيب على هذا السؤال يستحق علامة جيدة، تُحسب في التصنيف الفصلي.. وفيما تبقى من المواد، فهو يستخدم المراجع بكل كفاءة ودقة....

والمراجع هي ذاتها تلك المستخدمة في البلد الأم، وهؤلاء الأولاد الذين لا يعرفون إلاَّ رياح الخماسين، والغبار، والأمطار السيلية

والقصيرة، وكذلك رمل الشواطئ الملتهبة تحت أشعة لا الشمس، كانوا يقرؤون بكل مثابرة، مميزين بين الفاصلة، والنقطة، يقرؤون قصصاً تبدو لهم أسطورية، حيث فيها يعود الأطفال الذين ينتعلون القباقيب، ويرتدون القلنسوة، والأوشحة الصوفية إلى منازلهم، في طقس قارس، وهم يسحبون حزماً من الأغصان، على الدروب المغطاة بالثلج، إلى أن يلمحوا سقف المنزل المغطى بالثلج، حيث ينطلق العصافير بين مدخنته، فيعرفون أن الحساء يطهى على الموقد، أما بالنسبة لجاك، كانت هذه القصص غريبة، لقد كان يحلم بتلك المشاهد، وتزخر بها مواضيع الإنشاء، التي يكتبها عن عالم لم يرَهُ مطلقاً، ولا يتوقف عن تكرار السؤال على جدته حول هطول الثلج، الذي حدث في ساعة فقط، قبل عشرين عاماً، في منطقة الجزائر، كانت تلك القصص بالنسبة له تشكل جزءاً من شاعرية حياة المدرسة، التي تغذيها كذلك رائحة المسطرة، والمقلمة، ورائحة حمالات حقيبة المدرسة، التي كان يلوكها بأسنانه مثابراً على فعلته، وكذلك رائحة الحبر البنفسجي، خصوصاً، عندما يحين دوره في تعبئة المحابر حين يستخدم الزجاجة القاتمة، الضخمة، التي جُهِّزَت سدادتها بأنبوب زجاجي معقوف، فكان جاك يستنشق بكل سرور، فتحة الأنبوب، وكذلك يسّر بملامسة لطيفة لصفحات بعض الكتب

حيث تفوح منها رائحة الطباعة، والمواد اللاصقة، أما في الأيام الماطرة، فكان يستمتع برائحة الصوف المبلل المتصاعد من المعاطف الصوفية، القابعة في آخر الصالة، وكان كل ذلك مثل رؤية مسبقة لعالم الجنة، حيث يركض الأطفال فيه على الثلج، نحو البيت الدافئ، وهم ينتعلون القباقيب، ويرتدون القلنسوات الصوفية.

كانت المدرسة هي وحدها التي تُعطي لجاك وبيير، هذه المُتع ، وبالطبع، فإنَّ أكثرَ ما يحبانه فيها، هو مالا يجدانه في منزليهما، حيث يخيم الفقر، والجهل، بظلالهما، مما يجعل الحياة أكثر قسوة وكآبة، متقوقعة على ذاتها، إنَّ البؤس ، هو قلعة لا باب لها.

ولكن، لا يتوقف الأمر عند هذا ، بما أن جاك كان يشعر أنَّه الأشد فقراً بين الأطفال، ففي إجازات الصيف، وحين كانت الجدة تريد التخلص من الولد، الذي لا يتعب كانت ترسله إلى مخيم صيفي، برفقة خمسين آخرين، وبضعة موجهين إلى جبال زكّار في مليانة، حيث كانوا يقيمون في المدرسة المجهزة بمهاجع للنوم ، وكانوا يأكلون جيداً، وينامون نوماً مريحاً، وكانوا يلعبون ، أو يتنزهون طوال النهار، بإشراف ممرضات لطيفات، ومع كل هذا، فعندما يأتي الليل، وتخيم العتمة بسرعة، على سفوح الجبال، ويبدأ صوت البوق بالوصول إلى

مسامعه من الثكنة، ملقياً في الصمت الهائل الذي يلف القرية الصغيرة الضائعة في الجبال، على بعد ما لا يقل عن خمسين كيلو متراً من أي مكان مأهول، ملقياً أنغاماً حزينة لخطر التجول حينها، كان يغشاه يأس لا حدود له، ويشتاق لمنزل طفولته، ذلك المنزل الفقير ، المحروم من كل شيء..

لا لم تكن المدرسة، تتيح لهم فقط الهروب من حياتهم العائلية، ففي صف السيد برنار على الأقل، كانت تغذي لديهم نزوعاً إلى الطفولة، بشكل أساسي، أكثر مما هو نزوع نحو النضوج، إنها الحاجة إلى الاكتشاف. ففي الصفوف الأخرى، كان الأولاد يتعلمون الكثير، ولكن بطريقة تشبه إلى حدٍّ ما، إطعام الإوز، إذ كان يقدّم لهم طعام جاهز، ويُدْعَوْنَ إلى تناوله وابتلاعه. أما في صف السيد جيرمان[1]، فقد شعروا بوجودهم للمرة الأولى، وكانوا مركز الاهتمام الأول، فقد حُكِمَ بأنهم جديرون باكتشاف العالم، وأستاذهم لم يكرس نفسه فقط لتعليمهم، على قدر ما دفعوا مالاً، لقد كان يستقبلهم ببساطة، في حياته الشخصية، فقد كان يعيشها معهم، ويروي لهم طفولته، وقصص الأطفال الذين تعرَّف عليهم، ويعرض ملاحظاته، وليس أفكاره، لأنَّه كان مثلاً معادياً لرجال

[1] – هنا يعطي الكاتب للمعلم اسمه الحقيقي.

الدين، مثل كثير من زملاء العمل، ولكنه لم يتلفظ بكلمة واحدة ضد الدين في الصف، ولا ضدَّ ما يمكن أن يكون خياراً ، أو اعتقاداً، لكنَّهُ كان ينتقد مالم يكن محل جدال مثل: السرقة، والنميمة، والفظاظة، والقذارة.

وكان يحدثهم خصوصاً عن الحرب، التي كانت ماتزال قريبة، والتي خاض غمارها خلال أربع سنوات، ويتكلم عن عذابات الجنود، وشجاعتهم، وصبرهم، ومدى سعادتهم بالهدنة.؟ وقبل أن ينتهي الفصل، وقبل إرسالهم إلى الإجازة الصيفية، ومن وقت لآخر، حين يسعفه الوقت، اعتاد أن يروي لهم، مقاطع طويلة من رواية «الصلبان الخشبية» للكاتب «**دور جوليه**»[1].

بالنسبة لجاك، كانت تلك القراءات تفتح له أبواب التغريب مرة أخرى، تغريب يطوف عبره الخوف، والمصيبة معاً، على الرغم من أنَّه لم يقم بأي مصالحة بينهما، اللّهم إلاَّ نظرياً فيما يخص موضوع أبيه، الذي لم يعرفه أبداً..

لقد كان يصغي فقط بقلبه إلى قصة يرويها أستاذه، من كل قلبه، ويتحدث فيها من جديد عن الثلج، وعن الشتاء، الذي

---

[1] – رواية نشرها دور جوليه عام 1919، وهي تجربة عاشها الكاتب خلال الحرب العالمية الأولى، روى فيها حياة الجنود الفرنسيين، أثناء الحرب العالمية الأولى.

يحب، ولكن أيضاً يتحدث عن الرجال الاستثنائيين، الذين كانوا يلبسون ملابس ثقيلة، أعطاها الوحل صلابة كبيرة، ويتكلمون بلهجة غريبة، ويعيشون في حُفر، تطير فوقها القنابل، والصواريخ، والرصاص، كان هو وبيير، ينتظران على أحر من الجمر، القراءة تلو الأخرى، تلك الحرب التي مازال الناس كلهم يتحدثون عنها، وجاك يصغي بصمت، ولكن بكل جوارحه إلى دانييل، عندما كان يروي بأسلوبه معركة المارن، التي شارك بها، والتي لا يعرف كيف عاد منها سالماً، عندما وضعه الجنود مع الرماة، وفي مرحلة الهجوم كانوا ينزلون على سفح وادٍ، ولا يوجد أحد أمامهم، وفيما هم يمشون على السفح، وفي منتصفه تدحرجوا فجأة إلى عمق الوادي الممتلئ دماً، وتكدسوا فوق بعضهم البعض، وتعلو صيحات البعض منادية أمهاتهم، كان ذلك مريعاً، أما الناجون فلا يمكنهم النسيان.

وكان جو تلك القصة يخيم عليهم جميعاً، ويبدو أكثر جاذبية وفتنة من قصص الجنيات التي تُقرأ في صفوف أخرى، والتي كانوا يمكن أن يصغوا إليها بخيبة أمل وملل، مما جعل السيد برنار يغير برنامجه، ولكنه كان يتابع رواية المشاهد المثيرة المتوالية، بوصف مخيف، وشيئاً فشيئاً، يتابع الأولاد الأفارقة معلمهم للأحرف، التي تشكل جزءاً من مجتمعهم، الذي

يتحدثون عنه، كأصدقاء قدامى، حاضرون ويعيشون لدرجة أن جاك على الأقل لم يتخيل لحظة واحدة أنهم بالرغم من حياتهم في الحرب، يمكن أن يكونوا ضحية لها.

وذات يوم، في نهاية العام الدراسي حين وصل إلى نهاية الرواية، قرأ السيد برنار بصوت مكتوم مشهد موت دانييل، وعندما أغلق الكتاب، وهو غارق في انفعالاته وذكرياته، ولدى نظره إلى الصف الغارق في ذهوله وصمته، رأى جاك في الصف الأول ، يحدق فيه بصمت بوجه تغطيه الدموع، ويهتز جسده بفعل النشيج المتواصل الذي بدا لا نهاية له..

«وهيا يا صغيري، هيا يا صغيري..»، وقال السيد برنار ذلك بصوت لا يكاد يُسمع، ونهض لوضع الكتاب في الخزانة، وظهره إلى الصف.

- «انتظر يا صغيري».. قال السيد برنار، ونهض بصعوبة، ومرر ظفر سبابته على قضبان قفص الكناري الذي يغرد بطريقة جميلة : «آه، كازيمير أنت جائع، سنسأل والده».. ثم اتجه إلى مكتب صغير في عمق الغرفة، قرب المدفأة، وبحث في أحد الأدراج، ثم أقفله وفتح آخر، وسحب منه شيئاً ما، وقال: «خذ هذا لك..».. وتلقف جاك كتاباً ملفوفاً بورق بقالية بني اللون، ودون كتابة على غلافه، ودون أن يفتحه عرف أنها رواية

«الصلبان الخشبية»، وهي النسخة ذاتها التي كان السيد برنار يقرأ فيها في الصف..

«لا، لا هذا... ..» لقد أراد القول: «هذا رائع جداً...».. لكنه لم يجد الكلمات المناسبة، فهز السيد برنار رأسه قائلاً:

- «أنت بكيت في آخر يوم، ألا تتذكر ذلك؟!.. ومنذ ذلك اليوم أصبح الكتاب ملككم..»، واستدار حتى يخفي عينيه، التي احمرّت فجأة، وراح باتجاه مكتبه، ويداه وراء ظهره، وعاد إلى جاك، وهو يحمل عصاً حمراء قوية وقصيرة، وقال له ضاحكاً:

- «هل تذكر سكر النبات؟!»

- «آه، سيد برنار، قال جاك، هل احتفظت بهذا!.. أنت تعلم أنه ممنوع الآن..»

- «لقد كان ممنوعاً في ذلك الوقت، لقد كنت شاهداً أنني كنت أستخدمه.»

لقد كان جاك شاهداً لأن السيد برنار كان مع العقوبات الجسدية، فالعقوبة العادية كانت تتضمن حذف بعض النقاط المستحقة من سجل الطالب الشهري ما يجعله يتراجع في التصنيف العام. ولكن في الحالات الخطيرة، لم يكن السيد برنار يهتم أبداً، كما كان يفعل زملاؤه، حين يعمدون إلى

إرسال المخالف إلى المدير، بل كان يباشر العقوبة بنفسه وفق تقليد ثابت.

«روبير، أيها المسكين، يتوجب عليك الخضوع لتجربة السكر نبات».. كان يقول ذلك بهدوء، مع الاحتفاظ بمزاجه المازح، ولم يكن أحد في الصف يستطيع الحركة أو الاعتراض (اللهم إلاَّ إلى الضحك بينه وبين نفسه، إذ إنَّ الطبيعة البشرية، تنصُّ على أن العقوبة التي تطال بعض الأولاد، كانت تعدّ متعة بالنسبة للآخرين).. وكان الطفل ينهض شاحب الوجه، ويجهد طوال الوقت أن يحتفظ برباطة جأشه (كان بعض الأولاد يخرجون من مقاعدهم، وهم يكفكفون دموعهم، ويتوجهون إلى المكتب الأسود الذي يقف السيد برنار جانبه)..

ووفقاً للتقليد المتبع، وهنا نقطة سادية، يتناول بيير أو جوزيف «سكّر النبات» من سطح المكتب، ويناولانه بنفسيهما إلى المعلم، وسكر النبات هي مسطرة غليظة وقصيرة من الخشب الضارب إلى الحمرة، عليها بقع من الحبر تشوهها شقوق وخدوش ، قام السيد برنار بمصادرتها منذ وقت طويل من طالب نسي اسمه، وقد سلّمها الطالب إلى السيد برنار الذي تلقفها بهيئة مازحة، وباعد مابين ساقيه. كان على الطالب أن يدخل رأسه مابين ركبتي المعلم الذي يضغط بفخذيه مطبقاً عليه بقوة، وهكذا ينزل السيد برنار بمسطرته عدداً مختلفاً من

الضربات حسب الإساءة، يوزعها بالتساوي على الإليتين. وكانت ردود الأفعال على تلك العقوبة، تختلف بالنسبة للطلاب، فالبعض يبدأ بالبكاء، حتى قبل أن يتلقى الضربات، وكان المعلم الذي لا يعرف الخوف، يلاحظ ذلك مسبقاً، وآخرون يحاولون حماية مؤخراتهم بسذاجة بأيديهم التي يبعدها السيد برنار بضربة إضافية عليها. والبعض يرفس بشراسة تحت وقع الألم الذي تسببه المسطرة. وهنالك أيضاً، أولئك الذين يتحملون الضرب دون أن ينبسوا ببنت شفة، وجاك يعتبر أحدهم، فقد كانوا يرجعون إلى مقاعدهم محاولين كفكفة دموعهم، وعلى العموم، فقد كانت تلك العقوبة مقبولة دون الشعور بمرارة كبيرة، لأنَّ كل هؤلاء الأطفال، كانوا يتعرضّون للضرب في منازلهم، وتبدو لهم العقوبة، هي أمر طبيعي في مجال التربية، ثم إن عدالة المعلم، كانت مطلقة، وهم يعلمون، ماهي الأفعال التي تقتضي تطبيق هذه العقوبات، فكل أولئك الذين كانوا يتجاوزون حدودهم، وبعيداً عن إنقاص العلامات، كانوا يعرفون ما الذي يخاطرون به، وأن الجزاء، كان يطبق على أوائل الصف، كما على الآخرين، وذلك بعدالة مدهشة، جاك مثلاً، والذي كان السيد برنار يحبّهُ كثيراً، خضع كما الآخرون للعقوبة، حتى إنَّه تعرض للعقوبة غداة اعتراف المعلم علناً بتفضيله على الآخرين، ففي

إحدى المرات، كان جاك أمام السبورة، فقام السيد برنار بمداعبة خدّه بعد أن أجابه جواباً صحيحاً على أحد الأسئلة، فسمعت وشوشة كلمة «الأثير» في قاعة الصف، مما دعا السيد برنار لاعتبار ذلك هجوماً عليه، وقال بهيئة جدية: «نعم، أنا أفضّل كورمري كما أفضّل أي أحد بينكم، فقدَ أبيه في الحرب، أنا شاركت في الحرب مع آبائهم ولكني مازلت على قيد الحياة، وأحاول على الأقل أن أحلَّ مكان رفاقي الميتين، والآن، إن أراد أحدكم القول بأنه لدي «أثيرين» فليتكلَّم». واستقبلت تلك العظة بصمت مطبق..

أثناء الانصراف، سأل جاك عمّن ناداه بـ «الأثير». وفي الواقع فإن قبول تلك الشتيمة دون الرّد عليها تعدّ إهانة للشرف. قال مونوز: - «أنا»، وهو ولد كبير الحجم أشقر اللون، لكنه رخو، ونادراً ما يشارك في الصف، وغالباً ما يُظهر كرهه لجاك، «حسناً، إذاً أمك قحبة..»(ملاحظة: يفضل استخدام كلمة عاهرة – المنضدة)، قال جاك: لقد كانت تلك شتيمة تقتضي العراك على الفور، إذ إن شتم الأم أو الموتى كانت تعدّ من أخطر الشتائم على شواطئ المتوسط، لكن الطقوس هي الطقوس، فقال له الآخرون: «اذهب إلى الحقل الأخضر..».

والحقل الأخضر، هو ليس بعيداً عن المدرسة، فهو أرض جرداء، يوجد فيها قشور أعشاب هزيلة، وحلقات عتيقة، ومعلبات

فارغة، وخردة براميل. هذه هي إذاً، أرض «العراك». والعراك هو مبارزة تحلّ فيها القبضات، مكان السيوف، لكنها تخضع لطقوس مماثلة في روحها على الأقل. إن تلك المبارزات تهدف إلى عراك يكون فيه شرف أحد الخصوم على المحك، فإما أن يكون أحد أجداده قد شُتِمَ، أو تَعرضّ للسخرية، بسبب جنسه، أو عِرقه، أو أن أحداً قد دسَّ عليه، أو أن يُتهم بأنه دسَّ على أحد ما، أو أنَّه تعرَّض للسرقة، أو اتُّهم هو نفسه بالسرقة، أو أن يكون سبب النزاع، يعود لأسباب أكثر غموضاً ، وهو ما يحصل يومياً بين الأطفال.

فحين يعتبر الطلاب أو حين يعتبر أحد عنه (وهو لا يدرك ذلك)، أنه قد تعرَّض للإهانة، تنطلق العبارة المعهودة: «موعدنا في الرابعة في الحقل الأخضر»، وما أن ينطق أحد بتلك العبارة، حتى تتوقف الإثارة والتعليقات، ينسحب الخصمان متبوعين برفاقهما. وأثناء الحصص الدراسية المتوالية، كان الخبر ينتقل من مقعد إلى آخر مع ذكر اسم البطلين. حيث يقوم الرفاق بغمزهما بطرف العين، مما يؤثر بالنتيجة على الاثنين، من ناحية الاحتفاظ بالهدوء والعزيمة، وهما سمتان للرجولة. داخلياً، كان الأمر مختلفاً، فالأشجع بينهما كان شارداً عن الدراسة، منشغلاً باللحظة التي سيواجه فيها العنف، ولكن لا يجب ترك

الفرصة لمشجعي الطرف الآخر وتمكينهم من السخرية واتهام البطل بأنه وقع فريسة الفزع..

وجاك قام بما عليه فعله كرجل، حين أثار غضب مونوز، ولم يعد بالإمكان مناقشة أمر عودته عن قراره مطلقاً، إنه الترتيب الطبيعي للأمور، وكان يعرف أن ذلك الغثيان البسيط، الذي ينتابه سيزول لحظة بدء المعركة.

قُبيل المعركة مع مونوز جرت الأمور حسب الطقوس المعهودة، فالمقاتلان المتبوعان بمشجعيهما، الذين تحولوا إلى مُعالجين، وحملوا حقيبة البطل، وصلا أولاً إلى الحقل الأخضر، يتبعهما كذلك، أولئك الذين يحبون مشاهدة المشاجرات، ويحيطون بالخصمين اللذين يتخلصان من المريول والجاكيت، ويدفعونها إلى معالجيهم. الاندفاع خَدَمَ جاك هذه المرّة الذي تقدم أولاً دون كثير من القناعة، مما جعل مونوز يتراجع، وأثناء تراجعه الفوضوي ولدى صدِّه غير الفعَّال لضربات خصمه المباشرة، أصاب جاك على خدّه بضربةٍ أوجعته، وملأته بغضب أعمى، فاقمته الصرخات والضحكات، والتشجيعات، التي أطلقها الحضور، فاندفع ناحية مونوز، وأمطره بوابل من ضربات قبضته على جسده، فعطّل حركته، وكان سعيداً بما يكفي ليوجه إليه ضربة غاضبة مباشرة على عينه اليمنى، ففقد توازنه، وأقعى على مؤخرته، وهو يبكي بعين واحدة، أما

الثانية فتورمت في الحال، إصابة العين هي ضربة موجعة مطلوبة كثيراً، لأنَّ أثرها يبقى عدّة أيام، لقد أطلق انتصار البطل صيحات الجمهور، ولم ينهض مونوز عن الأرض في الحال، فما كان من بيير الطريق الحميم إلاَّ إعلان انتصار بيير بكل ثقة، ثم ألبسه سترته ومريوله، واقتاده معه متبوعاً بجمهرة من المعجبين بينما نهض مونوز، وهو يبكي وارتدى ملابسه، وسط حلقة صغيرة من المذهولين.

ومن أجل إكمال العملية التربوية، تمّ تعريفه دون إبطاء على المثل القائل مثلما تدين تدان، ففي اليوم التالي، وتحت ضغط كلام رفاقه اللاذع، وجد أنَّ عليه أن يأخذ مظهر المتبجح، والشجاع، وكما في بداية الدرس، لم يكن مونوز يجيب لدى تفقد الطلاب، فقام جيران جاك بالتعليق على هذا الغياب بسخريات مضحكة، وبغمزات من أعينهم موجهة لجاك، فَضَعُفَ جاك، وأظهر بحركة منه أن عينه كانت نصف مغلقة، وقد نُفِخَ خدّهُ، ودون أن يدرك أن السيد برنار، كان ينظر إليه، وكان استسلم لحركات إيمائية ساخرة، اختفت بلمح البصر، عندما رنَّ فجأة صوت السيد برنار في قاعة الصف الصامتة قائلاً: «يا أثيري المسكين، قال هذا الرجل الجدّي، لك حق مثل الآخرين بسكر النبات».. كان على المنتصر أن ينهض، ويبحث

عن أداة التعذيب، ويدخل في مجال هالة رائحة الكولونيا، حول السيد برنار، ثم يأخذ الوضعية المخزية للتعذيب.

ولم تنتهِ «قضية مونوز» عند درس الفلسفة العملية هذا، إذ إنَّ غياب الصبي امتد يومين، وكان جاك قلقاً بشكل غامض على الرغم من اتخاذه هيئة المتبجح، حين جاء في اليوم الثالث طالب كبير إلى صف السيد برنار، وأخطره أن المدير يريد التلميذ كورمري. وكان الطالب لا يستدعى إلى الإدارة إلاَّ إذا كان الأمر خطيراً، ورفع المعلم حاجبيه، وقال فقط:

- «استعجل أيتها البعوضة، أرجو ألاَّ ت كون قد ارتكبت حماقة ما..»

وَتَبِعَ جاك الذي ارتخت ساقاه الطالب الكبير عبر الممر، فوق السقف الإسمنتي المزين بنبات الفلفل الاصطناعي الذي لم يكن ظله ليحمي من الحرارة الهائلة، ووصل إلى غرفة المدير، الكائنة في نهاية الممشى، وكان أول ما رأى أمام مكتب المدير، هو «**مونوز**» تحيط به امرأة، ورجلٌ عابس الوجه، ورغم رؤية العين المتورمة، والمغلفة كليّاً، والتي تشوه وجه رفيقه، فقد اجتاحه شعور بالارتياح لرؤيته حيّاً. ولكن لم يكن لديه ما يكفي من القت ليتذوق طعم ذلك الارتياح:

- «هل أنت من ضرب رفيقه؟!»، قال المدير، وهو رجل صغير الحجم، أصلع الرأس، وجهه متورد، وصوته قوي.

أجاب جاك بصوت خائف: - «نعم..»..

قالت المرأة: - «قلت لك سيدي، إنَّ أندريه ليس أزعراً»...

قال جاك: - «لقد تعاركنا..».

أجاب المدير: - «لم أكن أعرف هذا، وأنت تعلم أني مَنَعْتُ أيَّ شجارٍ حتى خّارج المدرسة، لقد جرحت رفيقك، وكان يمكن أن يكون الجرح أخطر مما هو عليه، وكتبيه أولي، سوف تُحرم من الفرصة لمدة أسبوع، وإن كررتَ فعلتك، فسوف تطرد خارج المدرسة، وسوف أُخْطِرُ ذويك بهذه العقوبة، ويمكنك العودة إلى صفك..».

ظلَّ جاك المذهول جامداً ، فقال المدير: - «اذهب..».

وعندما رجع جاك إلى الصف، قال السيد برنار: - «هيا إذاً، أنا أسمعك..». وأعلن الطفل بصوت متهدّج عن العقوبة التي نالها، ثم أكدّ أن أهلب مونوز قد قدموا شكوى بحقه، وتحدث بعدها عن العراك الذي جرى بينهما..

- «ولماذا تعاركتما؟!..».

- «دعاني بـ الأثير».

- «مرة ثانية».

- «لا، لقد جرى ذلك في الصف..».

- «آه، لقد كان هو إذاً، وأنت تعتقد أنني لم أدافع عنك بما يكفي».

نظر جاك إلى السيد برنار بعين قلبه:

- «آه، بلى... بلى... أنتم...».

ثم انفجر ينتحب نحيباً حقيقياً..

- «اذهب، واجلس». قال السيد برنار.

- «هذا ليس عدلاً»،، قال الطفل، وهو يغرق في دموعه.

وفي اليوم التالي خلال الاستراحة، بقي جاك واقفاً وظهره للباحة، وهو يسمع صرخات رفاقه الفرحة، وكانت تجتاحه رغبة عارمة في الركض، هو أيضاًن وبدأ يبدل مابين ساقيه من التعب.

ومن وقت لآخر، كان يختلس النظر إلى الخلف، ويرى السيد برنار، الذي يتمشّى مع زملائه، في زاوية الباحة، دون أن ينظر هو إليه. وفي اليوم الثاني لم يره، وقد وصل خلفه ، وضربه بكفه على رقبته ضربة لطيفة، وهو يقول:

- «لا تحني رأسك كثيراً إلى الأرض، مونوز محروم هو أيضاً، سوف أسمح لك بالنظر هناك..».، وفي الجهة الثانية من الباحة كان مونوز وحيداً وكئيباً، - «رفض شركاؤك اللعب معه خلال الأسبوع الذي عُوقبت به». قال السيد برنار ذلك، وهو يضحك، ثم أردف: - «أترى ذلك، لقد عوقبتما أنتما الاثنان ، هذا طبيعي..»... ثم انحنى باتجاه الطفل، وهو يضحك بحنان، جعل موجة الحنان تطغى على قلب الطفل المعاقب: - «قل لي

أيتها البعوضة لا يعتقد المرء لدى رؤيتك أنك تستطيع تسديد تلك الضربة القوية!...».

هذا هو الرجل الذي يتكلم اليوم مع الكناري، والذي يناديه بـ «الصغير»، مع أنَّه رجل ، ويبلغ من العمر أربعين عاماً، جاك لم يتوقف أبداً عن حبه له، رغم السنين، والبُعد، والحرب العالمية الثانية، حين رآه مرة، ثم انفصلا من جديد، وانقطعت أخباره، لكنه كان سعيداً مثل طفل حين جاء جندي مسن يرتدي معطفاً عسكرياً، ليطرق بابه عام 1945، في باريس، لقد عاد إلى الجيش مجدداً: «ليس من أجل الحرب، ولكن ضد هتلر، وأنت يا صغيري، لقد كافحت أيضاً، أنا أعرف أنك طيب الأصل، أنت لم تنسَ والدتك على ما أعتقد، وهل هناك أفضل من الأم في العالم، والآن سأعود إلى الجزائر ، تعال لرؤيتي»، وكان جاك يزوره كل سنة، منذ خمس عشرة سنة. وفي مثل هذا اليوم، حيث يقبل هذا الرجل العجوز المتأثر الذي يمدّ يده على عتبة الباب. لقد كان هو من رمى جاك إلى هذا العالم متحملاً وحده مسؤولية اقتلاعه من جذوره، حتى يذهب إلى آفاق رحيبة..

بلغ العام الدراسي نهايته، وكان السيد برنار قد طلب لجاك وبيير وفلوري مكافأة ، وهم الذين نجحوا في كل المواد أيضاً. قال المعلم: - «سانتياغو أيضاً له عقل متعدد المواهب».

وسانتياغو هو طالب جميل، مواهبه أقل من الآخرين، لكنه كان يتفوق بفضل مثابرته على الدراسة.

وعندما خلا الصف من الطلاب، قال السيد برنار: - «أنتم أفضل طلابي، لقد قررت أن أقدمكم إلى منحة المدارس الثانوية، والجامعات، فإن نجحتم سيكون لكم الحق في منحة دراسية، بحيث يمكنكم متابعة دراستكم الثانوية حتى البكالوريا، إنَّ المدرسة الابتدائية هي أفضل المدارس، ولكنها لا تمنحكم شيئاً، أما المدرسة الثانوية فتفتح لكم كل الأبواب، وأنا أُفضِّل أن يحصل ذلك مع أولاد فقراء الحال مثلكم، حتى تدخلوا من تلك الأبواب، ولكن أحتاج إلى موافقة أهاليكم... انصرفوا..»..

غادروا المكان بسرعة، وهم مذهولون، وتفرّقوا دون أن يتشاوروا حتى، وجد جاك جدته وحيدة في البيت، منكبة على تنظيف العدس من الشوائب على غطاء الطاولة المشمع في صالة الطعام. تردد ثم قرر انتظار أمه. وصلت متعبةً على ما يبدو، فلبست مريول المطبخ، وأتت لمساعدة الجدّة في فرز الشوائب من العدس، وعرض جاك المساعدة، فدفعتا إليه صحناً من البورسلان الصيني الأبيض، حيث كانت عملية الفرز أسهل. أعلن عن الخبر الذي يحمله ، وعينه تحدق في الصحن، - «ما

القصة؟!» قالت الجدّة، «وفي أيِّ سنٍّ يصبح الطالب في البكالوريا؟!»..

- «بعد عشر سنوات»، قال جاك..

دفعت صحنها بعيداً: - «هل تسمعين؟!». قالت ذلك متوجهة إلى «كاترين كورمري» فلم تسمع، فكرر جاك ببطء على مسامعها ذلك الخبر.

- «آه، هذا لأنك ذكي..».

- «ذكي، أم لا، علينا وضعه في التدريب السنة المقبلة، أنتِ تعلمين أنه ليس لدينا مالاً، سوف يجلب لنا أجرته الأسبوعية..».

- «هذا صحيح». أجابت كاترين.

بدأ النهار والحرارة بالزوال في الخارج، وفي هذا الوقت من النهار، كانت الورش تعمل بجدٍّ فيما خلا الحي من الناس، وخيّم الصمت عليه. كان جاك ينظر إلى الشارع، لم يعرف ما الذي يريده، اللّهم إلاَّ رغبته في إطاعة السيد برنار، ولكن في سن التسع سنوات، لا يمكنه ألاَّ يطيع جدته. ومع ذلك، فقد كان متردداً بصورة واضحة:

- «ماذا ستفعل بعد ذلك؟!».

- «لا أعرف، ربما أصبح مدرساً مثل السيد برنار».

- «نعم، بعد عشر سنين..».

بدأت تنظيف العدس، ولكن ببطء.

- «لا ، نحن فقراء للغاية، سوف تقول للسيد برنار، إننا لا نستطيع ».

وفي اليوم التالي، أعلن الثلاثة الآخرون لجاك موافقة عائلاتهم.

- «وأنت؟!».

- «لا أعرف..».

وانتابه إحساس مفاجئ بأنه أشدّ فقراً من أصدقائه، وهو الأمر الذي جعل الضيق يجتاح نفسه، وبعد انتهاء الدرس، بقي الأربعة في الصف، وأعطى بيير وفلوري وسانتياغو أجوبتهم.

- «وأنت أيتها البعوضة..».

- «لا أعرف..».

ونظر السيد برنار نحوه، ثم قال للآخرين:

- «حسناً، ولكن علينا أن ندرس في المساء، بعض الدروس معاً، سوف أرتب ذلك ، يمكنكم الذهاب..».

وعندما خرجوا جلس السيد برنار على الكنبة، وجذب جاك ناحيته..

- «إذاً..».

- «إنَّ جدّتي هي من تتولى العائلة.».

- «أعرف ذلك..».

فكر ثم أخذ بيد جاك قائلاً:

- «اسمع عليك أن تتفهمها، فالحياة صعبة بالنسبة لها، بل بالنسبة لهما الاثنين معاً، لقد اهتما بتربيتك، أنت وأخوك، وجعلا منكما ولدين جيدين، هي خائفة، وهذا طبيعي، سيتوجب مساعدتك أيضاً بعض الشيء، حتى مع وجود المنحة، وفي كل الأحوال، أنت لن تجلب نقوداً إلى العائلة، خلال السنوات الست، هل تفهم ذلك؟!... (وهزَّ جاك رأسه من الأسفل إلى الأعلى، دون أن ينظر إلى معلمه..) حسناً، ولكن، ربما نستطيع أن نشرح لهما.. ». خذ حقيبتك.. سوف أذهب معك..».

- «إلى البيت؟!».، قال جاك..

- «نعم، سيكون من دواعي سروري لقاء والدتك مرة أخرى.. ».

وبعد ذلك، طرق السيد برنار باب المنزل، وجاك كان منذهلاً، جاءت الجدّة لفتح الباب، وهي تمسح يديها بمريول المطبخ. الذي كانت عقدته مشدودة قليلاً، مما جعل بطنها ينتفخ بعض الشيء.. وعندما رأت المعلم بدرت منها حركة نحو رأسها لتسوّي شعرها.

- «إذاً، الجدّة هي في خضم العمل كما هي العادة». قال السيد برنار، أدخلت الجدة الزائر إلى الغرفة التي كان ينبغي اجتيازها للوصول إلى قاعة الطعام، وأجلسته بالقرب من الطاولة، وأخرجت كؤوساً وشراب اليانسون.

- «لا تزعجي نفسك، أتيت هنا للدردشة معكم..»..

وكبداية سألها عن الأطفال، وعن حياتها في المزرعة، وزوجها، وتحدث عن أطفاله. في هذه اللحظة، دخلت كاترين كورمري، وذُعرت منادية السيد برنار بـ «السيد المعلم»، وقفلت عائدة إلى غرفتها لتمشط شعرها، وتلبس مريول مطبخ جديد، ثم أتت للجلوس على طرف كرسي يبعد قليلاً عن الطاولة..

- «أنت.. اذهب للتأكد أنني في الشارع ».، توجه السيد برنار بالحديث إلى الطفل.

- «أنتم تعرفون أنني سأقول فيه قولاً حسناً، وهو قادر على معرفة أنها الحقيقة».... توجه بحديثه إلى الجدَّة.

خرج جاك نازلاً السلالم بسرعة، وجلس على عتبة باب المنزل، وظل هناك ما يقرب من الساعة، وبدأ الازدحام في الشارع، وكانت السماء تميل إلى اللون الأخضر، عبر أغصان شجر التين حين نزل السيد برنار الدرج ، وظهر وراءه ، وحك له رأسه... «حسناً هذا مفهوم، إن جدتك امرأة شجاعة، أما بالنسبة لوالدتك، فلا تنسها أبداً..».

- «سيدي».، قالت الجدّة التي ظهرت فجأة في الممر، وكانت تحمل مريولها بيد، تمسح عينيها.

- «لقد نسيت، لقد قلت لي أنك سوف تعطي جاك دروساً إضافية».

- «بالتأكيد، ولن يتسلى بذلك صدقيني».

- «ولكننا لا نستطيع أن ندفع لك مقابل ذلك..».

ونظر السيد برنار إليها بانتباه، وأخذ جاك من كتفيه قائلاً..

- «لا تفعلوا ذلك..»..

وهزَّ جاك قائلاً: «لقد سدّد ذلك لي مسبقاً..»..

وذهب، وأخذت الجدّة بيد جاك لتصعد إلى الشقة، وللمرة الأولى في حياته، صافحته بقوة وحنان قائلة: - «صغيري، صغيري»... وعلى مدى شهر، وبعد انتهاء دروس المدرسة، كان السيد برنار يحتفظ بالأولاد الأربعة ساعتين إضافيتين من أجل الدراسة، ويعود جاك مساءً منهكاً ومستثاراً، ويشرع في كتابة الوظائف، والجدّة تنظر إليه، نظرة تمتزج بالحزن والفخر. كان إرنست يقول وهو مقتنع بذلك، ويضرب على جمجمة جاك بقبضته: - «له رأس جيدة».، وتقول الجدة: - «نعم، ولكن ما الذي سيحلّ بنا نحن؟!..».

وذات مساء، انتفضت قائلة: - «المناولة، مناولته».

القح يقال: إنَّ الدين لا يشغل أي مكان في العائلة، ولا أحد يذهب إلى الصلاة في الكنيسة، ويبتهل أو يعلّم التعاليم الإلهية، ولا أحد يلمِّح إلى الثواب أو العقاب في العالم الآخر.. وعندما يقال أمام الجدّة إن أحدهم قد توفي كانت تقول - «حسناً، سوف لن يتمكن من الضراط بعد ذلك». وإن كان الأمر يتعلق

بأحد تعرفه، وتُكن له المودّة، كانت تقول: «المسكين مازال شاباً»، حتى ولو كان الميت على أعتاب الموت، منذ وقت طويل. فالأمر ليس قلة إدراك، من جهتها، لأنها رأت الموت كثيراً حولها، فولديها وزوجها وصهرها، وكل أولاد أخوتها، قد ماتوا أثناء الحرب، ولكن الموت أصبح أمراً عادياً، بالنسبة لها، كما هو العمل أو الفقر، إنها لا تفكر به، ولكنها تعيشه على نحو ما. ثم إنَّ الحاجة للحاضر كانت أمراً ملحاً للغاية بالنسبة لها، أكثر مما كانت بالنسبة للجزائريين عموماً، المحرومين بسبب انشغالاتهم ومصيرهم الجمعي عن تلك التقوى الجنائزية، التي تُزهر على قمة الحضارات. بالنسبة لهم هو امتحان عليهم مواجهته، مثل من سبقوهم، ولم يتحدثوا عن ذلك مطلقاً، حيث توجب عليهم إظهار تلك الشجاعة التي تُشكل الفضيلة الرئيسية للإنسان. ولكن بانتظار ذلك يجب اللجوء إلى النسيان، والابتعاد، وإن أضفنا إلى ذلك حدّة الشفاء، والعمل اليومي، دون احتساب ما يخص عائلة جاك، والتأثير المريع للفقر، فمن الصعوبة بمكان إيجاد فسحة مناسبة للتدين، أما بالنسبة للخال إرنست الذي يعيش على المستوى الحسي، فكان الدين هو ما يراه بمعنى أنه كان الخوري، والموكب الجنائزي، مستفيداً من مواهبه الكوميدية، كان لا يفوّت فرصة إلاَّ ويقلّد فيها طقوس الصلاة، مزيّناً إياها بمحاكاته الصوتية، التي تقوم بدور اللغة

اللاتينية، إلى أن ينتهي بلعب دور المصلين الذين يخفضون رؤوسهم لدى سماع الأجراس، والكاهن الذي يستفيد من حركتهم، ويحتسي خلسة الخمر المخصص للصلاة، أما كاترين كورمري فقد كانت الوحيدة التي يمكن أن تجعل عذوبتها المرء يفكر بالإيمان، ولكن عذوبتها كانت هي كل إيمانها، فهي لم تكن كافرة، ولا مؤمنة، كانت تضحك قليلاً من مزاح أخيها، ولكنها تذكر عبارة «سيدي الخوري»، أمام رجال الدين الذين تصادفهم، ولا تتكلم مطلقاً عن الرب. والحق يقال إنَّ هذه الكلمة لم يسمعها جاك مطلقاً في طفولته، وهو بالذات لم تقلقه هذه الكلمة، فالحياة الغامضة والصاخبة كانت كافية لتملأ كيانه.

ومع كل هذا فإن كان هناك طقوس دفن ميتٍ على الطريقة المدنية، لم يكن من النادر أن يأسف الخال إرنست أو الجدّة على غياب الكاهن قائلين: «مثل الكلب»، لأن الدين كان أمراً هاماً بالنسبة إليهما في موقف كهذا، كما هو الأمر، بالنسبة لغالبية الجزائريين، الدين يشكل جزءاً هاماً من الحياة الاجتماعية فقط. وبما أن العائلة كاثوليكية، وهي فرنسية، هذا الأمر، كان يتطلب عدة طقوس، والحقيقة، إن تلك الطقوس، كانت أربعة بالضبط وهي: العمادة، والمناولة الأولى، ومناولة الزواج (إن كان هناك زواج)، والأسرار الأخيرة. وبين

هذه الطقوس المتباعدة زمنياً بالضرورة تنشغل العائلة بشيء آخر ، إنَّه أولاً البقاء على قيد الحياة.

ومن المسلم به، أن جاك ينبغي له أن يقوم بمناولته الأولى، كما فعل هنري الذي يحتفظ بأسوأ ذكرى ، ليس عن الطقس بحد ذاته، ولكن عن نتائجه الاجتماعية، وبشكل رئيسي الزيارات التي أُجبر عليها بعد ذلك، خلال عدة أيام، وهو يضع شريطاً على ذراعه، زيارات إلى الأصدقاء، والأهل، الذين توجب عليهم تقديم هدية صغيرة من الفضة إليه، والتي كان يتلقاها بانزعاج، وتقوم الجدّة باسترداد قيمتها فيما بعد بعد بيعها، وتترك جزءاً بسيطاً لهنري، فيما تحتفظ بالباقي، لأن المناولة قد «كلّفت الكثير»..

لكن هذا الطقس كان يتم عادة عندما يبلغ الطفل سنته الثانية عشرة، إذ كان عليه أن يخضع للتعاليم الدينية مدة سنتين، وجاك لم يكن بإمكانه القيام بمناولته الأولى، إلاَّ في سنته الثانية، أو الثالثة، في المدرسة الثانوية. هذه هي بالضبط الفكرة التي جعلت الجدّة تنتفض، كانت لديها فكرة غامضة، ومرعبة عن المدرسة الثانوية، مثل أنها مكان يجب الاجتهاد فيه عشرات الأضعاف، مقارنة بالمدرسة الابتدائية، بما أن الدراسة فيه تقود إلى فرص أفضل، وفي ذهنها أنه لا يوجد أي تحسن مادي يمكن الوصول إليه، دون بذل مزيد من العمل.

ومن جهة ثانية، فقد كانت ت تمنى بكل جوارحها أن ينجح جاك بسبب التضحيات التي قبلت بها مقدماً، وكانت تتصور أن الوقت اللازم للتعاليم المسيحية سوف يُؤخذ من الدراسة.

- «لا، أنت لا تستطيع أن تكون في المدرسة الثانوية، وفي التعليم الديني معاً..».

- «حسناً، لن أقوم بمناولتي الأولى، قال جاك هذا، وهو يأمل في التملص من سخرة الزيارات والإذلال الذي لا يطاق حين تُقدّم له الهدايا الفضية».

نظرت إليه الجدّة قائلة:

- «لماذا؟! يمكننا أن نرتب الأمر، البس ثيابك، سوف تذهب لرؤية الخوري..».

ثم نهضت ذاهبة إلى غرفتها بهيئة حازمة.

وعندما عادت، كانت قد نزعت قميصها القصير، وتنورة العمل، ولبست فستان الخروج الوحيد الذي تملكه، والذي كان مزرراً وصولاً إلى الرقبة، وكانت قد عقدت حول رأسها وشاحاً حريرياً أسود اللون.

وكانت خصلات شعرها الأبيض تحيط بالوشاح، وكانت عيناها الفاتحتان وفمها الذي زمته قد أعطاها هيئة عازمة ومصممة.

وفي غرفة الملابس في كنيسة سان شارل، وهي كنيسة بشعة، مبنيةعلى الطراز الغوطي الحديث، كانت تمسك يد جاك الواقف بجانبها أمام الخوري، وهو رجل ضخم يبلغ الستين من العمر، له وجه مستدير رخو بعض الشيء، وأنفه كبير، وفمه ممتلئ ذو ابتسامة جميلة تحت خصلات من الشعر الفضي، وكان يقف ويداه مضمومتين إلى ثوبه الذي شدّته ركبتاه المتباعدتين.

قالت الجدة:

- «أريد أن يقوم الصغير بمناولته الاولى».

- «هذا جيد، سيدتي، سوف نجعل منه مسيحياً صالحاً، ما عمره؟!».

- «تسع سنوات».

- «معك حق، أن تجعليه يخضع للتعاليم الدينية باكراً جداً، بعد ثلاث سنوات سيكون جاهزاً لهذا اليوم العظيم».

- «لا، عليه أن يقوم بذلك فوراً، ». قالت الجدة بلهجة جافة.

- «فوراً؟! لكن المناولات تتم في الشهر القادم، وهو لن يستطيع التقدّم للمذبح إلاّ بعد سنتين من اتباع التعاليم المسيحية».وقام باستحضار تجربته، وأعطى أمثلة... لكنَّ الجدَّة نهضت قائلة:

- «في هذه الحالة، لن يعمل مناولته الأولى، تعال يا جاك».

وسحبت الولد نحو باب الخروج، لكن الخوري لحق بهما..

- «انتظري سيدتي، انتظري». وأعادها برفق إلى مكانها، وحاول أن يعقّلها، لكنَّ الجدَّة هزَّت رأسها مثل بغلة عجوز حَرِنَة:

- «إمَّا في الحال، أو سوف يستغني عنها».. وفي النهاية، تخلَّى الكاهن عن موقفه، وتم الاتفاق أن يخضع لدورة تعاليم دينية مكثّفة ، يقوم جاك بعدها بمناولته الأولى. ورافقهما الخوري، الذي هزَّ برأسه موافقاً حتى الباب، حيث داعب خدَّ الطفل قائلاً: «اسمع جيداً ما يقال لك»، أما الطفل فقد نظر إليه بحزن. جمع جاك بالنتيجة مابين دروس السيد جيرمان[1] ودروس التعاليم الدينية ليومي الخميس والسبت مساءً، كان موعد فحص المنحة، وفحص المناولة الأولى يقتربان، وكانت الأيام مثقلة بالدراسة، لم يعد فيها وقت حتى للعب، وخصوصاً يوم الأحد، فحين يرخي بدفاتره، عنه كانت الجدّة تكلفه بأعمال منزلية، وتبضع مستحضرة التضحيات المستقبلية، التي وافقت العائلة على القيام بها، من أجل تعليمه، وتلك السنوات الطويلة التي لن يستطيع فيها أن يقدّم شيئاً للمنزل.

---

[1] برنار جيرمان.

«ولكن ربما أفشل فالامتحان صعب»، وحصل له أن تمنّى ذلك بصورة ما حين أدرك الحجم الثقيل الذي تشكله تلك التضحيات على كبريائه الفتي، والتي يتم تذكيره بها على الدوام.

نظرت الجدّة إليه بذهول، فهي لم تفكر بهذا الاحتمال، ثم رفعت كتفيها ودون أن تُلقي بالاً للتناقض في كلامها ، قالت:

- «سيلتهب قفاك ضرباً»..

تولّى الكاهن الآخر في الأبرشية مهمة الدروس الدينية، وهو رجل طويل، بل طويل جداً في ثوبه الأسود ، وهو جاف العود ، أنفه معقوف كمنقار النسر، وخدّاه غائران ، وبقدر طيبه، وسلاسة الخوري السابق، كان الثاني قاسياً للغاية، وكان الحفظ غيباً هو أسلوب تعليمه. وعلى قدر بدائية هذا الأسلوب، فقد كان ربما هو الأسلوب الوحيد النافع مع عالم الصغار الخام والعنيد. الذي أوكلت إليه مهمة تنشئته الروحية. وكان يتم تعليم الأسئلة والإجابة عنها مثلاً : «ماهو الرب؟!»

هذه الكلمات لم تكن تعني شيئاً بالنسبة للفتية الموعوظين، وجاك الذي يتمتع بذاكرة ممتازة، كان يستظهرها برباطة جأش دون أن يفهمها إطلاقاً. وعندما كان أحد آخر يستظهر ، فقد كان جاك يحلم أو يقوم بتكشيرات متنوعة مع رفاقه. وخلال إحدى تلك الحركات، فاجأه الخوري معتقداً أنَّ

الحركة كانت موجهة إليه، ورأى أنه من الضروري أن يجعله يحترم قداسة ما يقومون به، فنادى جاك، وأمام كل الأولاد، صفعه بيده الطويلة، وأوشك جاك على الوقوع لشدة الصفعة:

- «اذهب إلى مكانك الآن..».

ونظر الطفل إليه دون أن يدمع (لقد كانت الطيبة والحب هما الأمرين اللذين يجعلانه يبكي، وليس الألم، أو العذاب، فهما يقويان عزمه وتصميمه، وكان ذلك نهجاً في حياته). وعاد جاك إلى مقعده، وكان القسم اليساري من وجهه يؤلمه، وأحس على قطرة دم داخل فمه، وتحسّس بلسانه باطن وجنته التي جُرحت فابتلع الدم.

وأثناء باقي الدروس لم يكن حاضراً بذهنه، كان ينظر بهدوء وملامة، ودون مودّة، إلى الكاهن حين يكلمه مستظهراً، دون أي خطأ الأسئلة والأجوبة التي تتناول الذات الإلهية، وتضحية المسيح، وكان ذهنه بعيداً آلاف الأميال عن المكان الذي يستظهر فيه، كان يحلم بهذا الامتحان المزدوج الذي لم يكن في الحقيقة إلاّ امتحاناً واحداً. كان يغرق في العمل، كما في الحلم نفسه، حلم مستمر، وكان متأثراً فقط، ولكن بصورة غامضة من صلوات المساء التي تضاعفت في الكنيسة المريعة والباردة، حيث يُسمعه الأرغن موسيقا كان يسمعها للمرة الأولى، ولم يكن يسمع إلاّ لازمة حمقاء، ويحلم بعمق حلماً

مليئاً بوميض ذهبي، وسط العتمة الوسطية للأشياء، وللملابس الكهنوتية وصولاً إلى السرِّ الخفيِّ[لخ].

لكنَّهُ سرٌّ دون اسم، سرٌّ خفيٌّ حارٌّ وداخلي حيث يسبح ويوسّع فقط السرُّ اليومي لابتسامة والدته، أو لصمتها حين يدخل إلى صالة الطعام مساءً، بعد عودته، وتكون وحيدةً في المنزل. لم تكن تشعل المصباح البترولي تاركة الظلام يجتاح جنبات الغرفة رويداً رويداً..

هي ذاتها تصبح شكلاً أكثر غموضاً وأكثر كثافة، وهي تنظر متفكرة عبر النافذة إلى الحركات الحادة الصامتة بالنسبة لها في الشارع، ويتوقف الطفل عند عتبة الباب، وقلبه منقبض، ومليء بالحب اليائس اتجاه أمه.

ثم جاء موعد المناولة الأولى، حيث لم يحتفظ جاك منها إلاَّ بقليل من الذكريات، اللهّم إلاَّ اعتراف العشية، حيث أقرَّ فقط بالأفعال التي قيل له بأنَّها آثمة، بمعنى أنها تخص القليل من الأمور.

وعبارة:

- «أليس لديك أفكار آثمة؟!».

---

[1] سرٌّ من أسرار الدين يُعرف بالوحي ، ولا يُفهم فهماً كاملاً.

- «نعم، أبونا ». ردَّ الطفل على الرغم من جهله بمعنى كيف يمكن أن تكون الأفكار آثمة، وحتى اليوم التالي، عاش خوفاً من إمكانية إفلات تفكير آثم منه، دون إرادته، ولكن كان الأكثر وضوحاً بالنسبة له إحدى تلك الكلمات غير المستحبة التي تملأ قاموس ألفاظه المدرسية وبطريقة أو بأخرى فقد كان يحفظ تلك الكلمات، إلى فترة صباح الاحتفال، حيث كان يرتدي بذلة كحلية، وربطة ذراع مجهزّاً بكتاب صلوات ومسبحة ذات حبات بيضاء، وكل ذلك، كان مقدماً من الأقارب الأقل فقراً.. «العمة مارغريت.. الخ»، كان يحمل شمعة في الممر المركزي، وسط مجموعة من الأطفال الذين يحملون شموعاً، وسط نظرات منتشية للأهالي الواقفين في ردهات الكنيسة. لكن هدير الموسيقى، التي صدحت جمدته مكانه، وملأته فزعاً وحميّة، وللمرة الأولى، شعر بعودة قواه ، وقدرته اللامتناهية على الانتصار والحياة، تلك الحميّة التي ملأت جوارحه خلال الاحتفال جعلته منصرفاً عن كل ما يدور حوله بما فيه لحظة المناولة والعودة، والوجبة التي دُعِيَ الأهل إليها، وتحلَّقوا فيها، حول طاولة كانت أكثر غِنىً من المعتاد، أمام المدعوين غير المعتادين على الطعام والشراب بكثرة إلى اللحظة التي ملأ فيها الابتهاج الغرفة شيئاً فشيئاً هنا، وفي قمة الغبطة العامة انفجر باكياً:

سألت الجدّة:

- «ما الذي دهاك؟!».

- «لا أعرف؛ لا أعرف..».

ومن شدّة غضبها، وجهّت الجدّة صفعة من يدها قائلة:

- «هكذا سوف تعرف لماذا تبكي».

لكنه في الحقيقة، كان يعرف السبب، وهو ينظر إلى والدته التي ابتسمت له ابتسامة حزينة، وهي تجلس إلى الطاولة.

- «هل تمَّ الأمر على ما يرام... قال السيد برنار، حسناً إلى العمل إذاً» ، ومضت عدة أيام من العمل المضني، وكانت الدروس الأخيرة في شقة السيد برنار نفسه..

وذات صباح عند محطة الترامواي قرب منزل جاك تحلّق الأولاد الأربعة حول السيد برنار مزودين بسنادات، ومسطرة، ومقلمة. بينما كانت الجدّة والأم، قد انحنيتا إلى الأمام، وقامتا بالتلويح لهم.

وكانت الثانوية، حيث جرى الامتحان ، تقع في الجهة الثانية تماماً، وعلى قمة القوس الذي تشكله المدينة مع الخليج، ضمن حي كان في الماضي غنياً وكئيباً، وأصبح مع الهجرة الإسبانية أحد أكثر الأحياء شعبية، وحياة في مدينة الجزائر.

والثانوية بحد ذاتها، كانت عبارة عن بناء ضخم، مربع الشكل، يطل على الشارع، ويمكن الوصول إليه عبر زوج من

الأدراج، الأول في مقابل البناء، والثاني جانبي، والبناء ضخم، وواسع، تحدّه حديقتان صغيرتان على الجانبين، تزينهما أشجار الموز، ومحميتان من عبث الطلاب بسياج، كان الدرج المركزي، يؤدي إلى بهو يجمع الدرجين، وينفتح عليه باب ضخم، يستخدم للمناسبات الكبرى، وبجانبه باب أصغر يؤدي إلى حجرة البوّاب الزجاجية، وهو يستخدم بصورة اعتيادية..

في هذا البهو ووسط أوائل الطلاب الواصلين، ومعظمهم يخفي رهبته خلف مظهر مبتسم عدا البعض منهم، ممن اصفرّت وجوههم، وكشف الصمت مدى قلقهم، انتظر السيد برنار، وتلامذته أمام الباب المغلق في الصباح الباكر، ذي الطقس البارد، وأمام الشارع الذي مازال رطباً ، لكن الشمس ستغطيه تراباً بعد حين، لقد جاؤوا أبكر بنصف ساعة تقريباً، وكانوا صامتين، ومنقبضين، متحلقين حول معلمهم، الذي لم يجد شيئاً يُقال، والذي تركهم فجأة قائلاً: - «أنَّهُ سيعود».، وجاء بعد حين بمظهره الأنيق، وقبعته المستديرة، ولفافات الساقين التي ارتداها ذلك اليوم، وكان يحمل بكلتا يديه حزمتين من الورق ملفوفتين عند طرفيهما من أجل سهولة إمساكها، وعندما اقترب، رؤوا أنَّ الورق كان ملوثاً ببقع زيتية.

- «هاهو الكرواسان، كُلوا منه قطعة الآن، واتركوا، الأخرى لاستراحة الساعة العاشرة..».

ولكن اللقمة الممضوغة كانت صعبة البلع بالنسبة لهم.

- «لا تجزعوا.. واقرؤوا جيداً نص المسألة، وموضوع التعبير، اقرؤوهما مرات عدّة، لديكم ما يكفي من الوقت».

نعم، سيقرؤون مرات عدة، وسيطيعونه، وهو العارف بكل شيء، والذي بجانبه تكون الحياة بلا صعوبات، يكفي أن يدع المرء نفسه ينقادُ لهُ.

في تلك اللحظة، حدث ضجيج قرب الباب الصغير، ونظر الطلاب الذين يبلغ عددهم ستون طالباً في ذلك الاتجاه، حيث فتح الآذن الباب، وشرع يقرأ قائمة الأسماء، وتُلي اسم جاك مع آخرين، كانوا في أول القائمة، كان يمسك حينها يد معلمه، وتردّد..

قال السيد برنار: - «هيّا يا بني»... وجاك الذي كان يرتعد، اتجه نحو الباب، وفي اللحظة التي اجتازه فيها، التفت نحو معلمه، لقد كان هناك كبيراً، قوياً، ويبتسم لجاك بكل طمأنينة، وهو يهزّ رأسه علامة التشجيع.

عند الظهيرة، كن السيد برنار ينتظرهم عند باب الخروج، وقد عرضوا عليه مسوداتهم، وحده سانتياغو أخطأ في حل المسألة، وقال لجاك:

- «موضوع تعبيرك جيد جداً..»..

وفي الواحدة بعد الظهر، اصطحبهم مرة ثانية، وفي الرابعة، كان هناك أيضاً ، وكان يتفحص ما قدّموه من عمل، - « هيا بنا ، علينا أن ننتظر».

وسط الجلبة، لم يسمع جاك اسمه، لكنه تلقى صفعة فرحة على رقبته، وسمع السيد برنار يقول له:

- «مرحى أيتها البعوضة، لقد تمَّ قبولك».، وحده سانتياغو ا للطيف هو من رسب، وكانوا ينظرون إليه نظرة حزينة وشاردة.. وكان هو يردد: - «لا يهم، لا يهم»... ولم يعرف جاك ماذا حلَّ به، أو أين هو..

وعاد الجميع مستقلين حافلة الترامواي..

- «سوف أمرّ لرؤية أهلكم، ولكن سأمرّ أولاً إلى منزل كورمري، لأنه الأقرب».

وفي غرفة الطعام الفقيرة، الملأى بالنسوة ، حيث تجلس جدته، ووالدته التي طلبت إجازة بهذه المناسبة، وكذلك نساء عائلة ماسون جيرانهم، جلس إلى جانب معلمه مستنشقاً رائحة الكولونيا للمرة الأخيرة، وملتصقاً بدفء هذا الجسد القوي، وكانت الجدّة تتبختر أمام الجارات.

- «شكراً.. سيد برنار شكراً..».، قالت ذلك، بينما كان السيد برنار يداعب رأس الطفل ، وقال:

- «أنت لم تعد بحاجة إليّ، ستحظى بأساتذة أكثر علماً، ولكن أنت تعرف مكاني، تعال إليَّ إنْ كنتَ بحاجة للمساعدة».

ورحل، وبقي جاك وحيداً تائهاً بين هؤلاء النسوة، ثم هُرِعَ إلى النافذة، وهو ينظر إلى معلمه، الذي حيّاه للمرة الأخيرة، وتركه وحيداً بعدها، وبدلاً من فرحة النجاح، اعتصر الألم قلبه الصغير، كما لو أنَّه عرف مسبقاً أن نجاحه سوف يقتلعه من عالم الفقراء البريء والدافئ، العالم المنغلق على نفسه مثل جزيرة في هذا المجتمع حيث البؤس والتكاتف لهما مكانة مميزة في العائلة. سوف يقتلع ليُرمى في عالم مجهول ليس عالمه، حيث لم يستطع تصديق أن الأساتذة هم أكثر علماً من ذلك الذي يعرف قلبه كل شيء، وكان عليه أن يتعلم منذ ذلك الحين، وأن يفهم دون مساعدة كيف يصبح رجلاً دون مساندة من الرجل الوحيد الذي مدَّ له يد العون، وكيف عليه أن يترعرع ويكبر وحيداً في نهاية الأمر، ولكن بعد أن يدفع ثمناً باهظاً لقاء ذلك...

موندوفي[1]: الاستيطان والأب

والآن، وقد أصبح كبيراً... وهو في طريقه من بون[2] إلى موندوفي، كانت السيّارة تصادف سيارات جيب، تعلوها الرشاشات، تجول بتؤدة.

- «سيد فيارد».
- «نعم».

وعلى باب مزرعته الصغيرة، كان الرجل الذي ينظر إلى «**جاك كورمري**» قصيراً وسميناً ذا أكتاف مستديرة، وكان يمسك الباب بيده اليسرى، ويقبض باليمنى على إطار الباب المفتوح، بحيث أنَّهُ وعلى الرغم من فتحه للباب، فقد كان يعيق طريق الدخول إليه، ينبغي له أن يكون في الأربعين من العمر، إن خمنّا ذلك، من مظهر شعره القصير الضارب إلى الرمادي، والذي يعطيه مظهر رجل روماني، لكن لون وجهه متناسق القسمات،

---

[1] موندوفي: مدينة الذرعان حالياً.

[2] بون: مدينة عنّابة حالياً.

وعيناه الفاتحتان ، وجسمه الممتلئ دون شحوم، ولا كرش، في سرواله الكاكي، وكذلك حذاؤه ذو الرباط ، وقميصه الأزرق ذو الجيوب، كل ذلك يعطيه مظهر أكثر فتوةً وشباباً.

كان يصغي وهو يقف جامداً إلى شروحات جاك. ثم قال: «أدخل» واختفى.. وبينما كان جاك يتقدم في الممر الصغير، ذي الجدران المطلية بالكلس، وأثاثه فقط، هو عبارة عن صندوق بني اللون، وحاملة شمسيات من الخشب المقوّس، سمع صاحب المزرعة وهو يضحك خلفه قائلاً:

- «في المحصلة، هي رحلة حجّ، حسناً بصراحة، إنَّهُ الوقت المناسب»..

قال جاك: - «لماذا؟!».

- «ادخل إلى صالة الطعام»، ردَّ صاحب المزرعة، - «إنَّها الحجرة الأكثر برودة»..

كانت غرفة الطعام، هي عبارة عن نصف شرفة ، مظلاتها المصنوعة من القش المرن مرخية عدا واحدة، وباستثناء الطاولة والخزانة الخشبية الفاتحة، ذات الطراز الحديث، كانت الغرفة مجهزة بمقاعد من القصب، ومقاعد طويلة، وعندما التفت جاك لاحظ أنه يقف بمفرده، فتقدم نحو الشرفة، ورأى عبر المساحة الفارغة بين المظلات المرخية باحة شجيرات الفلفل، التي يلمع من بينها جراران زراعيان، لونهما أحمر قانٍ، ومن بعيد تحت

الشمس، التي مازالت حرارتها مقبولة في الحادية عشرة صباحاً، كان يرى صفوف أشجار الكرمة، وفي تلك اللحظة، عاد صاحب المزرعة حاملاً طبقاً وضع فيه زجاجة من شراب اليانسون، وكوبين وزجاجة ماء بارد..

ورفع المزارع كأسه المليء بالشراب ذي اللون الحليبي قائلاً:

- «لو تأخرت قليلاً، لما وجدت شيئاً هاهنا، وفي كل الأحوال، لما وجدت فرنسياً واحداً يمكنك أن تستفهم منه..».

- «إنَّهُ الطبيب العجوز، هو من قال لي بأن مزرعتك هي المزرعة التي ولدت فيها..».

- «نعم، لقد كانت جزءاً من أملاك «**سان أبوتر**» لكن أهلي اشتروها بعد الحرب».

ونظر جاك حوله فقال المزارع :

- «من المؤكد أنَّك لم تولد هنا، فقد أعاد أهلي بناء كل شيء في هذا المكان».

- «وهل كانا يعرفان والدي قبل الحرب؟!».

- «لا أعتقد ذلك، فقد استقرا قرب الحدود مع تونس، ثم إنهما كانا يريدان البقاء بالقرب من الحضارة، سولفرنيو بالنسبة لهما كانت هي الحضارة».

- «ألم يسمعا شيئاً عن الوكيل السابق؟!».

- «لا ، بما أنَّك من هذا البلد ، فأنت تعرف كيف كانت الحال، فهنا لا يحافظ المرء على أي شيء، إنهم يهدمون، ثم يعيدون البناء، يفكر المرء بالمستقبل، وينسى أي أمر آخر..».

- «حسناً ، لقد أزعجتك بلا فائدة».

- «لا ، لقد كان من دواعي سروري».، ردَّ المزارع ، وهو يبتسم، ثم قال:

- «هل بقي أهلك قرب الحدود؟!».

- «لا ، بل في المنطقة العازلة بالقرب من السد ، أرى أنك لا تعرف والدي». ورشف ما تبقى من كأسه أيضاً ، وكأنه وجد فيه مزيداً من النشاط الإضافي، فانفجر ضاحكاً ، - «إنَّه مستوطن قديم على الطراز العتيق، أولئك الذين يُشتمون في باريس كما تعرف، صحيح، لقد كان قاسياً على الدوام. على الرغم من بلوغه الستين من العمر، إلاَّ أنَّه كان طويل القامة، وخشناً برأسه العنيد الذي يشبه رأس الحصان. إنه رب عائلة صارم، وقد كان قاسياً مع عمّاله العرب، ولكنه كان عادلاً في ذلك، فهو صارم مع أبنائه أيضاً. وفي العام الماضي، حين كان ينبغي الإخلاء كان الأمر يشبه مصارعة الثيران، لقد أصبحت المنطقة هنا مكاناً لا يمكن العيش فيه، فالمرء كان ينام وفي يده بارودة. وعندما هوجمت مزرعة (راسكيل) أتتذكر ذلك؟!..».

ردَّ جاك:

- «لا ... ».

- «بلى، عندما ذُبح الوالد مع ولديه، واغتُصِّبت البنت ، وأمّها فترة طويلة، ثم لاقتا حتفهما... باختصار، كان يصعب على العمدة القول للمزارعين المجتمعين، إنه يجب إعادة النظر بالمسائل [الاستعمارية]، وطريقة معاملة العرب، وأنَّ هذه الصفحة قد طويت، وسُمع عن العجوز قوله إنَّ أحداً لا يمكنه في هذا العالم، لا يمكنه أن يصنع القانون في بلده. ولكن منذ ذلك الحين، امتنع عن الكلام، وكان يحصل له أن يستيقظ ليلاً ويخرج. وكانت والدتي تراقبه عبر النافذة، وتراه يمشي في أرضه. وعندما جاء أمر الإخلاء، لم يقل شيئاً، فقد كان قطاف العنب لديه، قد انتهى، وتم تخزين الخمور في القبو، فما كان منه إلاَّ أن فتح القبو، ثم ذهب باتجاه نبع الماء، الذي كان قد حول اتجاه مجراه فيما مضى، وأداره إلى الاتجاه الصحيح، أي نحو أرضه، ثم جهّز جراره بمحراث، وبقي ثلاثة أيام، خلف مقوده حاسر الرأس، ودون أن ينبس ببنت شفة، اقتلع كل أشجار الكرمة في أملاكه. تخيّل هذا، فالعجوز الذي جفّ عوده، وهو يركب الجرار كان يدفع عصا السرعة، عندما لا تقدر سكة المحراث أن تقتلع جذع شجرة كرمة أضخم من جذوع الكرمة الأخرى، وكان لا يتوقف عن العمل، حتى ومن

أجل الطعام، وكانت أمي تجلب له الخبز، والجبن، وطبق السوبرساد، وهو يأكل ذلك بهدوء، كما لو أنَّه قام بفعل كل شيء، كان يبتلع آخر قطعة خبز، ثم يزيد سرعته، وذلك منذ الفجر حتى المغيب، ودون أن ينظر إلى الجبال البعيدة في الأفق، أو إلى العرب الذين أُخبروا بالأمر، وهم أيضاً، لم ينبسوا ببنت شفة، بل كانوا يقفون على مسافة منه، ويشاهدون ما يفعل، وعندما وصل نقيب شاب لا نعرف من أخطره، طلب شرحاً، لما يحصل أجابه:

- «أيّها الشاب، بما أن الذي فعلناه هنا هو جريمة، إذاً، علينا محو ذلك». وعندما انتهى كل شيء عاد إلى مزرعته، واجتاز الباحة المبللة بالخمر، الذي تسرب من القبو، بدأ تجهيز أمتعته، كان العمال العرب ينتظرونه في الباحة (وكان هناك أيضاً دورية أرسلها النقيب، ولا نعرف لماذا كان يقودها ملازم ينتظر الأوامر.

- «يا معلم، ماذا سنفعل؟!».

وردَّ العجوز:

- «لو كنتُ مكانك لذهبت إلى رجال المقاومة، سوف يربحون، لم يعد هناك رجال في فرنسا».

وضحك العجوز قائلاً:

- «نعم بالضبط».

- «هل هم معك؟!».

- «لا.. لم يعد يريد أن يسمع شيئاً عن الجزائر، هو الآن في مرسيليا، يقطن في شقة حديثة، ووالدتي تكتب لي أنَّه كان يذرع غرفته جيئة وذهاباً طوال الوقت».

- «وأنت؟؟!».

- «أنا باقٍ حتى النهاية، مهما حصل، سوف أبقى، لقد أرسلت عائلتي إلى مدينة الجزائر، أما أنا فسأفطس هنا، لا يفهمون الأمر في باريس، وعدانا نحن ، هل تعرف من الوحيد الذي يفهم الأمر».

- «العرب..؟!».

- «تماماً، لقد خلقنا لنتفاهم، على الرغم مما نحن عليه من غباء، يجري في عروقنا الدم نفسه، سوف نستمر قليلاً في قتل بعضنا البعض، وفي قطع خصيات بعضنا، وفي تعذيب بعضنا، ثم سنبدأ مجدداً بالعيش معاً مثل البشر، إنها إرادة البلد، وهل تريد كأساً آخر من شراب اليانسون».

- «أريده خفيفاً». ردَّ جاك.

وبعد ذلك بقليل، خرجا، وكان جاك قد سأل إن كان هناك أحد ما يمكن أن يعرف شيئاً عن أهله في تلك الناحية..

- «لا».، وفق رأي فيارد، عدا الطبيب العجوز الذي أشرف على ولادته، والذي تقاعد الآن، في سولفرينو نفسها، ليس هناك أي

شخص، لقد تعاقب على ملكية سان أبوتر فريقان، ومات الكثير من العمال العرب في الحربين، وولد آخرون أيضاً، كل شيء يتغير هنا، والأمور تجري بسرعة هائلة، وتُنسى. ولكن من الممكن للعجوز تامزال أن يعرف، إنَّهُ حارس مزارع سان أبوتر، لمدة عشرين عاماً، وأعتقد أنه كان يبلغ العشرين من العمر عام 1913م، وبكل ال أحوال، فإنَّ جاك كان يشاهد المكان الذي ولد فيه..

عدا جهته الشمالية، كان المكان محاطاً بالجبال البعيدة، جعلتها شمس الظهيرة غير واضحة المعالم، مثل كتل حجرية محاطة بالضباب الذي يلمع، ومنها كان يبدأ سهل سيبوس الذي كان مستنقعاً في الماضي، وكان السهل يمتد حتى يصل إلى البحر شمالاً، وكانت حقول الكرمة تحت السماء البيضاء لشدة الحرارة تمتد بعيداً، وكانت معلقة بخيطان، وأوراقها ضاربة إلى الزرقة، بسبب معالجتها بالكبريت، وكانت العناقيد سوداء اللون، وتقطعها بين الخير والآخر خطوط من أشجار السرو، أو الكينا، تستظل تحتها البيوت...

كانا يسيران على درب المزرعة مثيران الغبار الأحمر مع خطواتهما، وكان الأفق أمامهما يتراقص بامتداده نحو الجبال، مع ارتفاع حرارة الشمس، وعندما وصلا إلى منزل صغير خلف

كومة من أشجار الدلب، كان العرق يغطي جسديهما، واستقبلهما نباح كلب غاضب لا يريانه.

كان المنزل الصغير متداعياً، وله باب خشبي من التوت، وكان مغلقاً بعناية، وطرق فيارد الباب، وتعالى نباح الكلب الآتي من باحة صغيرة مغلقة في الجهة الأخرى من المنزل، لكن لا جواب..

قال المزارع:

- «تعم الطمأنينة هنا، هم موجودون في الداخل، لكنهم ينتظرون تامزال... إنه أنا فيارد..».

منذ سنة اشهر جاؤوا إلى هنا، بحثاً عن أبيه، أرادوا أن يعرفوا إذا كان يجلب المؤونة لرجال المقاومة، ولم يُسمع عنه شيئاً منذ ذلك الحين.

وقِيل لِ تامزال منذ شهر تقريباً أنَّه أراد ا لهرب وقُتِلَ:

قال جاك:

- «آه، وهل كان حقاً يموّن المقاومين».

- «قد يكون كذلك أولاً، وماذا تفعل، إنَّها الحرب، ولكن ذلك يشرح لماذا لا تُفتح الأبواب سريعاً في هذا البلد المضياف».

وفي تلك اللحظة، فُتح الباب، وظهر تامزال، رجل قصير القامة يضع على رأسه قبعة من القش ، ذات حواف واسعة، ويبتسم لدى رؤية فيارد، وينظر إلى جاك:

- «إنَّهُ صديق، وقد ولد هنا..».

قال تامزال: - «ادخل، هل تشربون الشاي..».

ولم يتذكر تامزال شيئاً، نعم، ربما سمع من أحد أعمامه أن وكيلاً بقي في هذه الأنحاء عدة أشهر، وذلك بعد الحرب.

قال جاك: - «قبل الحرب..».

أو قبل الحرب، ذلك محتمل، وكان هو في مقتبل العمر حينها، وماذا حلَّ بوالده بعدها..

- «قُتِلَ في الحرب».

- «مكتوب.». قال تامزال.. - «الحرب سيئة».

قال فيارد: - «لقد كانت الحرب موجودة على الدوام، ولكن يعتاد المرء على السلام بسرعة، ويعتقد حينها أنَّ هذا هو الأمر الطبيعي، لا إنَّ الأمر الطبيعي هو الحرب».

قال تامزال وهو يتناول صينية الشاي من امرأة في الغرفة الثانية، وقد أشاحت بنظرها:

- «يصبح الرجال مجانين في الحرب».

احتسيا الشاي المغلي، وشكراه، ثم قفلا عائدين على الدرب، التي تمرُّ عبر الكرمة، قال جاك: - «سأعود إلى سولفرينو مع التاكسي، لقد دعاني الطبيب للغداء».

- «أنا، إذاً، أدعو نفسي، ولكن انتظر سأحضر بعض المؤونة..».

وفيما بعد ، حين عودته بالطائرة إلى مدينة الجزائر ، حاول جاك أن يرتب المعلومات التي وصلته، وفي الحقيقة، كانت قليلة ولا شيء فيها ، يخصّ والده مباشرة، والليل كان يبدو ، وقد خيّم على الأرض بصورة غريبة، ويصعد من الأرض بسرعة، وصولاً إلى الطائرة، التي تطير مباشرة إلى الأمام، دون أن تهتز مثل برغي ينغرز في سماكة الليل.

وأضافت العتمة ضيقاً إلى ضيق نفس جاك، الذي شعر بأنه رهين المحبسين، الطائرة والعتمة، وأصبح يتنفس بصعوبة.

وتفحص من جديد دفتر العائلة، وأسماء الشاهدين ، إنها أسماء فرنسية ، كتلك التي تُصادف على الشعارات الباريسية.

وبعد أن روى له الطبيب العجوز ، وصول والده، وقص له حكاية ولادته هو بالذات، قال له: إنّه يمكن الإفادة من شهادة تاجرين من «سولفرينو» ، وهما من طلائع من جاؤوا البلاد ، قاما بإسداء الخدمات لوالده، ويمكن أن يعرف منهما أسماء بعض سكان ضواحي باريس. نعم، ما المدهش في ذلك، طالما أن «سولفرينو» قد أسست على يد طلائع القادمين سنة 1848.

قال فيارد : - «نعم، أهل أجدادي كانوا هناك. نعم لهذا كان العجوز بذرة ثائرة».

وأردف، أن أوائل القادمين، كانوا جداه، فقد كان جدّه نجاراً في ضواحي «سان دينيز» ، وجدته كانت تعمل في كي الملابس،

وكان يوجد الكثير من العاطلين عن العمل في باريس، التي تغلي ، وصوتت الجمعية التأسيسية بالغالبية على قرار الاستيطان، وقد وعد القادمون بإعطاء كل واحد منهم منزلاً للإقامة، وهكتارين إلى عشر هكتارات من الأرض، أنت تفكر إن كان هناك مرشحون، نعم أكثر من ألف مرشح، وكلهم كانوا يحلمون بالأرض الموعودة، خصوصاً الرجال، أما النساء، فقد كنَّ يخفن من المجهول، ولكن الرجال لم يقوموا بالثورة من أجل لا شيء، إنهم من النوع الذي يعتقد بوجود بابا نويل، وفي النهاية، حصلوا على بابا نويلهم، لقد رحلوا عام 1849 ، وبُني أول منزل عام 1854».

كان جاك يتنفس أفضل من السابق، وانجلت العتمة الأولى، وانحسرت مثل موجة تاركة وراءها سحابة من النجوم، وتلألأت السماء، أما الضجة المصمَّة الوحيدة التي عاندته، فكانت هدير المحركات، لقد حاول رؤية تاجر الخروب، والعلف العجوز، الذي كان يعرف والده..

وتذكر العجوز ذلك، بصورة غامضة، وكان يردّد:

- «لم يكن متحدثاً، لم يكن متحدثاً».

لكن الضجيج جعل جاك يترنح، ويغوص في حالة خدر سيئة، حيث حاول عبثاً، أن يرى ثانية، ويتخيّل والده الذي اختفى في

هذا البلد الواسع، والمعادي، والذي ذاب في التاريخ المُغفَل لهذه القرية، وهذه الهضبة.

وعادت إلى ذاكرته بعض التفاصيل من حواره عند الطبيب، فيما يخصّ تحرك القوارب، التي نقلت المستوطنين الباريسيين إلى «سولفرينو» حسبما قال الطبيب، ولم يكن هناك قطار في ذلك الوقت، لا.. لا.. بلى.. لكنه لا يصل إلاَّ إلى «ليون»، إذاً كان هناك ستة قوارب تجرّها أحصنة، يرافقها النشيد الوطني، ونشيد الرحيل طبعاً، على أنغام فرقة الهارموني التابعة للبلدية، وتبريكات رجال الكنيسة على ضفاف نهر السين، وكان العلم مطرزاً باسم القرية التي لم توجد بعد، ولكن المسافرين أوجدوها بالتهليل والابتهاج. وبعد أن يسير القارب، تنزلق باريس بعيداً، وتُصبح ضبابية، وتختفي، وتنزل المباركة الإلهية، لتبارك السفر، وحينها، تصمت النفوس القوية، وعُتاة الثورة الأهلية، وبقلوبٍ منقبضة، تقوم نساؤهن الخائفات، وهنَّ مرغمات على ذلك، بالنوم على القش في قعر السفينة، وحين التقلب على القش، يصدر صوت حريري، والرأس على مستوى الماء الوسخ، ولكن النسوة كنّ يخلعن ملابسهن خلف ملاءات أَسِرّة كن يمسكنها بعضهن للبعض الآخر. أين كان والده من كل ذلك؟!.. ولا في أي مكان، ثم في هذه الأثناء، كانت تلك القوارب السائرة، منذ ما ينوف عن مئة عام، تمخر عباب أقنية

الخريف الراحل، وتظل قرابة شهر في الأنهار التي غطتها الأوراق الأخيرة الميتة، وكانت تحدها أشجار البندق والصفصاف العارية تحت سماء رمادية، وتُستَقْبَلُ على يد فرق موسيقية رسمية، وتعاود الانطلاق حاملة متشردين جدد إلى بلد مجهول، وهو علم أشياء كثيرة عن الميت الشاب في سان بريوك أكثر من الذكريات الخَرِفة والفوضوية التي ذهب يبحث عنها.

غيّرت المحركات إيقاعها. تلك الكُتل الغامقة وقِطع الليل المشتتة، والقاطعة، كانت تلك منطقة القبائل، وهي الجزء الوحشي والدامي من هذا البلد، توجه إليه منذ نحو مئة سنة عمال الـ 1848 وهم متكومون في فرقاطة ذات عجلات: «اللابرادور» هذا هو اسمها، قال الدكتور العجوز ذلك، كان اسمها تخيلوا ذلك «اللابرادور» من أجل الذهاب نحو البعوض والشمس».

«اللابرادور» تحركت على كل حال بكامل شفراتها ضاربة الماء الجليدي، وريح الشمال هبّت بشكل عاصف، وسطوح تلك القوارب قد كستها رياح قطبية، خلال خمسة أيام، وخمس ليالٍ، ومرض الفاتحون في قعر السفينة مرضاً شديداً، وكانوا يتقيؤون على بعضهم البعض، ويتمنون الموت حتى الوصول إلى

ميناء بون[لخ]، حيث تستقبلهم كل الجماهير على الأرصفة، على وقع الموسيقى، هؤلاء الفاتحون، ذوو الوجوه الصفراء، القادمون من بعيد، تاركين وراءهم عاصمة أوربا، برفقة نسائهم، وأطفالهم، وأثاثهم، لينزلوا مترنحين بعد خمسة أسابيع من الضياع، على هذه الأرض، ذات الآفاق الضاربة إلى الزرقة، وفيها يَجدون وهم بحالة من القلق الرائحة الغريبة الصادرة عن الزبل والبهارات..

واستدار جاك في كرسيه، وهو نصف نائم، لقد كان يرى أباهُ الذي ما رآه قط، والذي لا يعرف عنه حتى طول قامته، كان يراه هناك على رصيف بون بين المهاجرين، بينما تقوم الرافعات البحرية بإنزال الأثاث الذي نجا أثناء الرحلة، بينما تتعالى أصوات الشجار حول الأثاث الذي ضاع..

لقد كان هناك واقفاً، ذا عزيمة، قاتم الوجه، ويصرّ على أسنانه، وبعد كل هذا، ألم يكن ذلك هو الطريق ذاته الذي سلكه من «بون» إلى «سولفرينو»، قبل أربعين عاماً على متن عربة تحت سماء الخريف ذاته؟!.. لكن تلك الطريق لم تكن موجودة بالنسبة للمهاجرين والنساء والأولاد المكدسين في

---

[1] الاسم الفرنسي لمدينة عنابة، إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر – «المترجم».

شاحنات الجيش، الرجال سيراً على الأقدام يجتازون تقريباً السهل المستنقعي، أو الأدغال الشائكة تحت نظرات العرب المعادية، المجتمعين على بعد ، وبشكل دائم تقريباً مع كلابهم القبلية النابحة، حتى يصلوا في نهاية النهار إلى المكان نفسه، الذي وصل إليه والده، حيث كان المكان منبسطاً، تحدّه جبال بعيدة، لا يوجد فيها بيت واحد، ولا فسحة مزروعة، تغطيها فقط حفنة من الخيام العسكرية، لونها مثل لون الأرض، ولا شيء سوى أرض جرداء قاحلة، وكان ذلك يعتبر نهاية العالم، بالنسبة لهم، بين السماء الفسيحة، والأرض الخطرة، وكانت النساء تبكي في الليل من التعب والخوف وخيبة الأمل.

وحلول الليل نفسه في مكان بائس ومعادٍ ، والرجال ذاتهم، وبعد ذلك، وبعد..... آه. جاك لا يعرف شيئاً عن أبيه، ولكنه يعرف عن الآخرين، إنه الشيء ذاته بالتأكيد. كان ينبغي الانحناء أمام الجنود الذين يضحكون، وهم في داخل الخيام. أما البيوت ففيما بعد سوف تُبنى ثم تُوزع الأراضي والعمل، إن العمل المقدس قد ينقذ كل شيء «ليس في الحال، العمل....». كان يقول فيارد..

المطر، المطر في الجزائر الضخم، والعنيف، والذي لا نهاية، تساقط خلال ثمانية أيام، وفاض نهر «السيبوس»، ووصلت المستنقعات إلى الخيام، بحيث لم يقدروا على الخروج منها،

والأخوة الأعداء في الخيام المختلطة القذرة والضخمة، التي ترنّ تحت وابل لا ينتهي من المطر، وللتخلص من الروائح النتنة اقتطعوا قصباً مجوّفاً ليتمكنوا من التبول من الداخل إلى الخارج، وما أن توقف المطر حتى خرجوا للعمل تحت إمرة النجّار، وذلك لبناء مخيمات خفيفة.

كان فيارد يقول مبتسماً:

- «آه، الرجال الشجعان... لقد انتهوا من بناء أكواخهم الصغيرة في الربيع، ثم نالوا نصيبهم من مرض الكوليرا، وإن صدَّقتُ العجوز، فقد خسر الجدُّ النجار خلال الوباء ابنته وزوجته اللتين كان لهما الحق في التردد إزاء هذا السفر، نعم بالتأكيد».

قال ذلك، وهو يمشي طولاً وعرضاً، أما الدكتور العجوز، الذي كان مستقيم الظهر، وفخوراً بكساء ساقيه، ولم يكن يستطيع البقاء جالساً، - «وكان يموت منهم عشرة أشخاص في اليوم ، فالحر جاء مبكراً، وكانوا يحترقون من الحرارة في البرّاكات، وأما بالنسبة للنظافة؟! باختصار كان يموت منهم عشرة يومياً..».

زملاؤه عسكريون، لقد فاق الأمر طاقتهم، إنّهم زملاء مضحكون من جهة أخرى، فقد استنفذوا كل وسائل العلاج لديهم، فجاءتهم فكرة. كان يجب اللجوء إلى الرقص، فهو

يسخن الدم، وبعد العمل، كان المستوطنون كل ليلة يرقصون بين دفن ميت، وآخر على أنغام الكمان، ولم يكن الأمر سيئاً، فمع ارتفاع الحرارة، كان هؤلاء الشجعان ينضحون كل عرقهم، وتوقف الوباء، إنها فكرة يجب التعمق فيها. نعم، لقد كانت فكرة، وفي الليالي الحارة، والرطبة، وبين الأكواخ التي ينام فيها المرضى، كان عازف الكمان، يجلس على صندوق، وعلى مقربة منه فانوس يطن حوله البعوض والحشرات، وكان الفاتحون بأثوابهم الطويلة، وبذلاتهم القماشية، يرقصون ويتعرقون حول نار ضخمة من الشوك، بينما يقوم الحرس الواقف في الجهات الأربع من المخيم بحماية المحاصرين من الأسود، ذات اللبدة السوداء، أو من سارقي الماشية، والعصابات العربية، أو أحياناً من غزوات المستوطنات الفرنسية الأخرى أيضاً، والتي كانت بحاجة للتسلية أو المؤونة، وأخيراً، أُعطيت الأراضي، إنها قطع من الأراضي المتفرقة البعيدة عن قرية الأكواخ الخشبية، ولاحقاً، بُنيت القرية ذات الأسوار الترابية، لكن ثلثي المهاجرين، كانوا قد لاقوا حتفهم، هناك كما في أنحاء أخرى من الجزائر، ماتوا دون أن يلمسوا المجرفة أو المحراث..

أما الآخرون، فقد تابعوا حياتهم كباريسيين في الحقول، وكانوا يحرثون الأرض، وهم يرتدون القبعات والبارودة على

الكتف، والغليون بين الأسنان، وكان الغليون ذو الغطاء فقط هو المسموح به، ولا يُسمح إطلاقاً بالسجائر، خشية التسبب بالحرائق، وكان عقار الكينين[1] في الجيب، وكان يباع في مقاهي بون وفي مطعم موندوفي، على أ نه منتج استهلاكي عادي. وكانت النساء بأثوابهن الحريرية برفقة أزواجهن. ولكن البندقية، والجنود ، ليسوا بعيدين، حتى حين يُراد غسيل الملابس في نهر السيبوس، كان الأمر يقتضي حراسة. وكانت القرية نفسها، تُهاجَم ليلاً غالباً، مثل الذي وقع عام (51) وخلال أحد أعمال التمرد، قام المئات من الفرسان الذين يرتدون البرانس بالتجول حول أسوار القرية، وانتهى الأمر بفرارهم حين رأوا قساطل المدافئ التي سددها إليهم المحاصرون عبر الأسوار على أنها مدافع.

البناء والعمل في بلدٍ معادٍ، يرفض الاحتلال، ويثأر من كل ما يوجد حوله.. لماذا فكر جاك بوالدته أثناء صعود، وهبوط الطائرة، الآن؟!

حين رأى ثانية تلك المدرعة الموحلة على طريق بون، حيث كان المستوطنون، قد تركوا امرأة حُبلى، وذهبوا للبحث عن

[1] كينين: دواء يستخدم لعلاج الملاريا – «المترجم».

مساعدة، وحين رجعوا، كانت المرأة مفتوحة البطن، وقد قُطعت أثداؤها..

قال مثارد: - «إنَّها الحرب».، أضاف الطبيب العجوز: - «لنكن منصفين، لقد سجنوا في كهوف، كل المجموعة، وتم قطع خِصي البربر الأولين الذين هم أنفسهم... علينا الرجوع الآن للقاتل الأول... أنتم تعرفون اسمه، «**قابيل**»، ومنذ ذلك الحين، كانت الحرب، الرجالُ مريعون، وخصوصاً تحت الشمس العنيفة».

وبعد الغداء، كانوا يتجولون في القرية الشبيهة بمئات القرى الاخرى، على امتداد البلاد، بضع مئات من البيوت الصغيرة المبنية على الطراز البرجوازي للقرن التاسع عشر، وموزعة في شوارع تتقاطع بزوايا قائمة مع المباني الكبيرة مثل التعاونية، والصندوق الزراعي، وصالة الأفراح، وكل هذه المباني تتقارب من كشك الموسيقا الذي يشبه لعبة الخيول الخشبية، أو مدخل محطة قطار الأنفاق، حيث المسرح البلدي، أو الفرقة الموسيقية العسكرية، وخلال سنوات، كانت قد قدمت الكثير من الحفلات أيام الأعياد، فيما يقوم الأزواج والزوجات الذين يرتدون أجمل ملابسهم بالتحلّق حولها في الحرارة والغبار، وهم يفصفصون فستق العبيد.

اليوم هو الأحد أيضاً، لكن قسم الخدمة النفسية للجيش، وضع مكبرات صوت في كشك الموسيقا ، وكان الجمهور في معظمه من العرب الذين لم يشكلوا حلقة حول المكان، بل وقفوا جامدين، يستمعون إلى الموسيقا العربية، المتناوبة مع الخطابات، وكان الفرنسيون الضائعون وسط الحشد، متشابهين جميعاً، لهم هيئة كئيبة، ترنو إلى المستقبل، مثل أولئك الذين كانوا قد جاؤوا فيما مضى على متن اللابرادور إلى هنا أو أولئك الذين حطّوا في مكان آخر، يقارعون الظروف نفسها، والعذابات ذاتها، هاربين من الفقر، والاستبداد، واصطدموا هنا بالألم، والحجر، كما حصل مع الإسبان من منطقة ماهون التي تنحدر منهم والدة جاك، أو الألزاسيين الذين رفضوا عام 1871 الاحتلال الألماني، لكي يختاروا فرنسا، وأُعطيت لهم أراضي متمردي عام 1871، الذين قتلوا، أو أودعوا في السجن، الثوار أخذوا الأماكن الساخنة للمتمردين، مظلومون وظُلّام، هناك وُلد أباه الذي وصل إلى هذه الأمكنة، بعد أربعين عاماً، وله الهيئة ذاتها الكئيبة والمحرومة والمتطلعة إلى المستقبل مثل أولئك الذين لا يحبون ماضيهم، وينكرونه، وصل مهاجراً، هو أيضاً، مثل الذين يعيشون أو الذين عاشوا على هذه الأرض، دون أن يتركوا أثراً يدل عليهم، سوى على البلاطات المهترئة، والمخضوضرة، في المقابر الصغيرة

للمستوطنين، والشبيهة بتلك التي قام بزيارتها مع الطبيب العجوز بعد أن غادرهما فيارد..

كان بناء المقبرة جديداً ومقيتاً، حسب آخر صيحات الموضة الجنائزية، يتقدمها سوق السلع القديمة والخَرَزْ، حيث تضيع هيبة المكان هذا من جهة، ومن جهة أخرى، كانت القبور تتوزع بين أشجار السرو في ممرات تغطيها أكواز السرو، وأوراق الصنوبر الإبرية ، أو بالقرب من الجدران الرطبة، التي تنمو إلى جانبها أشجار الليمون، بأزهارها الصفراء، وكانت بلاطات القبور غير مقروءة، لأن التراب كان يغطيها.

جُموع بكاملها، جاءت إلى هذا المكان، منذ أكثر من قرن من الزمان، وحرثت الأرض، وحفرت أثلاماً، وعَمَقّتها أكثر، فأكثر في بعض الأماكن، وفي أماكن أخرى ، كانت الأثلام أقل عمقاً، حتى جاء القليل من التراب، وغطّاها فعادت الأرض الغطاء النباتي البري، ثم إنهم أنجبوا الأولاد، ورحلوا، وحصل لأولادهم ما حصل لهم. أما أولاد وأحفاد أولئك الذين قدموا إلى هذه الأرض مثله هو، فهم يعيشون عليها دون ماض، دون أخلاق، دون عبرة، ودون دين، لكنهم سعداء بهذا في النور، يقلقهم الظلام والموت. كل تلك الأجيال، كل أولئك القادمون من بلدان مختلفة، وتحت هذه السماء التي تثير الإعجاب، والتي

غَشيَها الغسق، كانوا قد رحلوا، دون أن يتركوا أثراً منطوين على أنفسهم، وقد لفهم نسيان عميق.

وفي الحقيقة، فهذا ما تعطيه هذه الأرض، وهو ما ينزل من السماء مع قدوم الليل، فوق رؤوس الرجال الثلاثة، الذين عادوا ، وسلكوا طريق القرية بقلوب منقبضة، بسبب حلول الظلام، ويملؤهم ذلك القلق الذي يجتاح نفوس كل الناس، في إفريقيا، عندما يأتي المساء سريعاً، ويهبط على البحر، وعلى جبالهم المعذّبة، وعلى هضابهم العالية، إنَّه القلق المقدس ذاته، الذي يجتاح جبال دلف[1]، حيث يكون لحلول المساء الأثر نفسه، فهو يبرز المعابد، ومذابح الهياكل، ولكن المعابد قد هُدِمَتْ على أرض أفريقيا، ولم يبق سوى هذا الحمل الثقيل والعذب في النفس.

نعم، مثلما ماتوا مثلما سيموتون أيضاً، بصمت، غير آبهين بشيء، كما مات والده في مأساة عصية على الفهم، بعيداً عن مسقط رأسه، بعد حياة ما أرادها، من الميتم إلى المشفى مروراً بالزواج الذي لا يمكن تجنبه، حياة بنيت حوله رغماً عنه، إلى أن أتت الحرب فقتلته، ودفنته إلى الأبد، ومن حينها، كان مجهولاً من ذويه، ومن ابنه، عائداً هو أيضاً إلى غياهب

---

[1] دلف: منطقة مقدسة في أثينا القديمة – «المترجم».

النسيان، الذي كان هو البلد الأخير للناس من أبناء جلدته، وهو مقرّ ا لوصول لحياة بدأت دون جذور، وهنالك الكثير من المذكرات في مكتبات ذلك الحين حول استخدام الأطفال اللقطاء في المستعمرات، نعم الجميع هنا هم لقطاء، وتائهون، كانوا يبنون مدناً زائلة، ليموتوا بعد ذلك إلى الأبد، يموتون في ذواتهم، ولدى الآخرين، وكأن تاريخ الناس، هذا التاريخ، الذي ما فتئ يسير على إحدى أقدم أراضيه تاركاً فوقها القليل من الأثر، كان يتبخر تحت شمس لا تَكِلُّ، وتتبخر معه ذكرى أولئك الذين صَنَعوه حقاً، ويصبح مقتصراً على أزمات العنف، والقتل، واشتعال الكراهية، وشلالات الدم، التي تتفجر بسرعة، وتجف بالسرعة ذاتها، مثل أودية هذا البلد...

كان الليل قد خيّم الآن، وبدأ بإغراق كل شيء حوله، الأموات والأحياء، تحت السماء الرائعة.

لا، لم يكن يعرف والده أبداً، ذلك الأب الذي مازال نائماً هناك، ووجهه ضائع في الرماد، هنالك سرٌّ في هذا الرجل، يريد الوصول إليه، ولكن في نهاية الأمر، لم يكن هناك إلاَّ سرُّ الفقر، الذي يجعل الناس دون اسم، ودون ماضٍ، ويدخلهم في زحام الأموات الكثيف، دون اسم، قد صنعوه. هذا هو بالضبط ما يجمع والده مع رجال اللابرادور، والماهونيين سكان الساحل، والألزاسيين سكان الهضبات العالية، وفي تلك

الجزيرة الهائلة بين الرمال والبحر، لف الصمت المكان، إنَّهُ فقدان الهوية، فيما يخص النسب، والشجاعة، والعمل، والفطرة، إنَّه صمت قاسٍ، ورحيم، في آن معاً. أما هو فقد أراد الهروب من بلد لا اسم له فيها ، أراد الهروب من الحَشِدِ، ومن العائلة التي لا اسم لها، والتي فيها هنالك شخص لا يكِلُّ من المطالبة بالعتمة، وبفقدان الهويّة، إنَّه يشكل جزءاً من هذه العشيرة، وهو الذي يسير على غير هدىً إلى جانب الطبيب العجوز، الذي يلهث إلى يمينه، مصغياً إلى الموسيقا القادمة من الميدان، وهو يشاهد ثانية، وجوه العرب القاسية، وصعبة الاختراق، حول كشك الموسيقا، وكذلك ضحكات فيارد ووجهه العنيد.

ويرى أيضاً بكثير من الحنان والألم الذي يعتصر الفؤاد ، وجه أمه القلق لحظة الانفجار، وهو الذي يسير في عتمة السنين على أرض النسيان، حيث كان كل إنسان هو الرجل الأول. وحيث هو نفسه قد نشأ وحيداً دون أبٍّ، ولم يعرف اللحظات التي ينادي الأب فيها ابنه، وقد انتظره طويلاً حتى يبلغ سن الرشد، ليقول له سر العائلة، أو أن يسرَّ له بألم قديم، أو بتجربة عاشها

في الماضي. تلك اللحظات التي أصبح فيها بولونيوس[1] نفسه كبيراً فجأةً، ليُحَدِّث لايرت[2]، وهو بلغ ستة عشر عاماً، ثم عشرين عاماً، ولم يكلمه أي شخص، وكان عليه أن يعرف لوحده ، ويكبر لوحده، وأن يصل إلى القوة والعزيمة لوحده، وأن يجد لوحده حقيقته، ومغزاه، وأن يولد كرجل بعد ذلك، ولكن ولادة عَسِرة لا كتلك التي تحصل مع الآخرين، أو التي تحصل للنساء مثله، مثل كل الناس الذين ولدوا في هذا البلد، والذين حاولوا الواحد تلو الآخر، أن يتعلموا العيش بلا جذور، وبلا يقين، والذين يخاطرون اليوم بفقدان هويتهم للأبد، وبفقدان الآثار الوحيدة المقدسة لمرورهم على هذه الأرض، إنها تلك البلاطات غير المقروءة التي أغرقها الليل في المقبرة، عليهم أن يتعلموا أن يُولدوا لدى الآخرين في الزحام الهائل للفاتحين المدحورين الآن، والذين سبقوهم في هذه الارض، وعليهم أن يعترفوا الآن بوحدتهم في العِرْق والمصير.

[1] بولونيوس: هي شخصية من شخوص مسرحية هاملت – للكاتب الكبير وليم شكسبير.

[2] لايرت: هي شخصية من شخوص مسرحية هاملت – للكاتب الكبير وليم شكسبير.

بدأت الطائرة هبوطها نحو مدينة الجزائر، وكان جاك يفكّر بمقبرة «سان بريوك» الصغيرة، التي تمَّ الاعتناء فيها بقبور الجنود أكثر مما هي عليه الحال في مقبرة «موندوفي»، إنَّ البحر الأبيض المتوسط، يفصل في نفسي بين عالمين الأول حُفظت فيه الذكريات والأسماء بمساحات موزونة، والآخر حيث تذرو فيه الرياح الرمل، الذي يمحو آثار الناس بمساحات كبيرة..

هو قد حاول أن ينجو من فقدان الهوية، والحياة البائسة، الجاهلة والمعاندة، لم يستطع العيش في الصبر الأعمى، دون جُملٍ، ودون أي مشروع آخر، سوى الحياة الآنية، لقد سافر كثيراً، وبَنى وأبدع وألهب الناس، وكانت أيامه مليئة حدّ الإشباع، ومع ذلك، فهو يعرف في قرارة نفسه، أن «سان بريوك» وما تمثله لم تدعه وشأنه، فقد كان يفكر في القبور المهترئة، والمخضوضرة التي تركها وراءه، منذ حين، قائلاً بنوع من الغبطة الغريبة ، فكرة - «أنَّ الموت يقوده إلى وطن حقيقي، ويغطي بدوره بالنسيان العميق ذكرى الرجل الوحش [التافه] الذي كبرُ وبنى دون مساعدة، أو عون في خضم الفقر، وعلى شاطئ سعيد، وتحت أنوار الصباحات الأولى في العالم، حتى يصل بعد ذلك وحيداً، دون ذاكرة، أو يقين إلى عالم الرجال في زمانه، وإلى تاريخه المريع، والمجيد..».

الثانوية

لم يكن «**جاك كورمري**» واثقاً في الأول من شهر تشرين الأول تلك السنة من حذائه الضخم الجديد، وأزعجه القميص الذي يلبسه، فهو مازال محافظاً على طياته بعد الشراء، وكان جاك مدرعاً بمحفظة تفوح منها رائحة الطلاء والجلد، وعندما رأى سائق الحافلة الكهربائية حيث يجلس إلى جانبه عادة بيير وهو يضع عصا السرعة على وضعية الأوّل، وعندما تركت العربة الثقيلة، محطة بلكور ، التفت محاولاً رؤية أمّه وجدته، على بُعد بضعة أمتار منه، وهما تقفان منحنيتين إلى النافذة ، لترافقاه قليلاً في ذهابه للمرة الأولى إلى الثانوية الغامضة، لكنَّه لم يستطع رؤيتهما لأن جاره كان يقرأ الصفحات الداخلية لجريدة «**البرقية الجزائرية**»، لذلك فقد التفت إلى الأمام، وهو ينظر إلى السكة الفولاذية التي تبلعها القاطرة، بانتظام، وفي الأعلى، تهزّ الأسلاك الكهربائية، في هذا الصباح البارد، لقد أدار ظهره وقلبه منقبضاً بعض الشيء لهذا المنزل، وللحي القديم، الذي لم يغادره مطلقاً إلاَّ ما ندر، (يقال «ذهب إلى الجزائر»، عندما يذهب المرء إلى مركز المدينة).

ثم سارت الحافلة أخيراً، بسرعة كبيرة، وكتف بيير ملتصقة بكتفه بصورة أخوية، لكن رغم ذلك، كان يخالجه شعور قلق بالوحدة، إزاء عالم مجهول، لا يعرف كيف يتصرف، ولا كيف يجب أن يكون سلوكه.

في الواقع، لا يستطيع أي كان إسداء النصيحة لهما، وشعر هو وبيير بأنهما وحيدين على الفور، والسيد برنار نفسه، الذي لا يجرؤان على إزعاجه، لم يكن قادراً على قول أي شيء، حول الثانوية، التي لا يعرفها. أما في أسرتيهما، فقد كان الجهل أكثر شمولية، ففي عائلة جاك اللاتينية على سبيل المثال كانت كلمة لا معنى لها على الإطلاق، وحقيقة أنّه (بعد الأزمنة البهيمية، والتي يستطيعون أن يتخيلوها)، كان هناك عهود حيث لم يكن أي إنسان يتحدث الفرنسي، وأن الحضارات(والكلمة ذاتها لا تعني شيئاً، بالنسبة لهم)، تعاقبت مما أدى إلى هذا الاختلاف في الاستخدام وفي اللغة، هذه الحقائق، لم تصلهم، ولا التلفاز، ولا الأشياء المكتوبة، ولا الأخبار المسموعة، ولا الثقافة السطحية، التي تولد من الأحاديث المبتذلة، كل ذلك لم يصلهم...

في هذا المنزل، لا يوجد جرائد، ولا كتب، إلى أن جاء جاك بها، ليس هناك مذياع أيضاً، ليس هناك إلاَّ أشياء ذات

استخدام آني، وفي هذا المنزل، لا يُستقبل إلاَّ أفراد الأسرة، ولا يُترك المنزل إلاَّ نادراً، وذلك للقاء أفراد من الأسرة الجاهلة ذاتها. وماجاء به جاك من الثانوية، كان لا يمكن استيعابه، وكان الصمت يزداد بين العائلة وبينه، وفي الثانوية نفسها، لا يمكنه أن يتحدث عن عائلته، التي يحسّ بتفردها، وتميزها دون أن يستطيع ترجمة ذلك، لدرجة أنَّهُ كان قد انتصر على الحياء، الذي لا يقهر والذي جعله يعلق فمه حول هذا الموضوع..

لم يكن الفارق بين الصفوف هو الذي يعزلهم فقط، ففي بلد المهاجرين هذا، بلد الاغتناء السريع، والتحطم المشهود، كانت الحدود بين الصفوف، أقل ظهوراً، من تلك التي بين الأجناس، فإن كان الأولاد من العرب، كانت مشاعرهم أكثر ألماً، ومرارة، وفي حين كان لديهم رفاق من العرب في المدرسة الابتدائية، فإن رفاقهم العرب في الثانوية، يعدّون استثناءً من هذا الأمر، فقد كانوا على الدوام أبناء وجهاء منعمين، لا، ما كان يفصلهم عنهم، وخصوصاً جاك أكثر من بيير، هو هذا التفرّد، الذي كان ملحوظاً لديه أكثر مما هو لدى عائلة بيير، إنها استحالة تَعَلُّقِهِ بِقِيمٍ وكليشات تقليدية..

خلال استفسارات بداية العام الدراسي، استطاع بالطبع القول بإنَّ والده قد مات في الحرب، وهو ماكان في المحصلة مركزاً

اجتماعياً، وبأنَّه ربيب الأمة[1]، وهو أمر يفهمه الجميع. ولكن فيما يخص الأمور الأخرى، فقد بدأت الصعوبات..

لم يكن يعرف ماذا يكتب في خانة «مهنة الأهل»، عندما وُزِعَتْ عليهم أوراق مطبوعة من أجل تعبئتها، كتب في البداية: «ربّة منزل»، بينما كتب بيير «موظفة بريد واتصالات»، ولكن بيير أكّدّ له أنَّ «ربّة منزل»، ليست مهنة، ولكن يقال ذلك عن المرأة التي ترعى المنزل، وتقوم بتدبيره، قال جاك: - «لا، إنَّها تدبَّر منازل الآخرين، وخاصة منزل بائع الأقمشة في الجهة المقابلة للمنزل»...

قال بيير متردداً: - «أعتقد أنه يجب أن تضع عبارة خادمة..».

هذه الفكرة لم تخطر على بال جاك، لسببٍ بسيطٍ، هو أنها نادرة الاستخدام، ولم تُلفظ مطلقاً في العائلة، وبسبب أن أحداً لم يشعر أنها تعمل من أجل الآخرين، إنها تعمل أولاً، من أجل ولديها، وشرع جاك يكتب الكلمة ، وتوقف فجأة، اعتراه خجل مفاجئ، وخَجِلَ لأنَّه شعر بالخجل.

الولد ليس شيئاً بحدِّ ذاته، بل أهلهُ يمثلونه، وهو يُعرف من خلالهم في عيون الآخرين، ويشعر بأنَّه محكومٌ عليه حقاً من

---

[1] ربيب الأمة: «يتيم فقد أبيه في الحرب ، فرعته الدولة» – «المترجم».

خلالهم، ذلك يعني أنَّه محكومٌ دون أن يستطيع الاستئناف، وحكم الناس هذا هو ما اكتشفه جاك. ومعه اكتشف حكمه هو ذاته، على طويته السيئة، لم يستطع معرفة أن المرء عندما يصبح رجلاً، يستحق قيمة أقل، عندما لا يعرف هذه المشارع السيئة لأن الآخرين، يحكمون علينا، إن كان جيداً، أو سيئاً، من خلال ما نحن عليه، وبصورة أقل، من خلال ماتكون عليه العائلة، لأنَّه يحصل أحياناً، أن يتم إطلاق حكم على العائلة بدورها، من خلال الطفل الذي أصبح رجلاً، ولكن كان يلزم جاك قلباً ذو نقاء هائل، ومميز، حتى لا يعذبه ذلك الاكتشاف الذي وقع عليه مؤخراً، كما كان يلزمه تواضع هائل حتى يستقبل بغضب وخجل، هذا العذاب مما اكتشفه في طبيعته، لم يكن الأمر كذلك على الإطلاق، بل هو كبرياء قاسٍ وسيئ، ساعده على الأقل في هذه الظروف، وجعله يكتب بقلم حازم كلمة «خادمة» على الورقة المطبوعة التي حملها إلى ناظر الدروس، ووجهه يذوب خجلاً، لكن هذا الأخير لم يلق بالاً إليها، مع ذلك، فإنَّ جاك لم يرغب مطلقاً تغيير الحالة ولا العائلة..

وأمّهُ على ماهي عليه ظلّت هي أغلى مخلوق في العالم، وهو يحبها بشغف، كيف تفهم من جهة أخرى أن طفلاً فقيراً ،

يمكن أن يكون لديه أحياناً خجل دون أن يحسد الآخرين أبداً؟!

وفي مناسبة أخرى، وعندما سُئِلَ عن دينه، أجاب «كاثوليكي»، وسُئِلَ إن كان ينبغي تسجيله، في درس التعاليم الدينية، وحين تذكّرَ مخاوف جدته أجاب: بـ - «لا...». حينها قال ناظر الدروس مازحاً، ولكن بهيئة جدية: - «في المحصلة، أنت كاثوليكي، غير ملتزم دينياً»... ولم يستطع جاك شرح ما يجري لديه في العائلة، ولا الطريقة الفريدة التي يتناول فيها ذووه مسألة الدين.

أجاب حينها بحزم - «نعم».، مما أثار ضحك الطلاب، وعُرف منذ ذلك الحين بالرأس القوي، أما هو ، فقد أحسّ بالتشتت، وفي يوم آخر، وبعد أن وُزع على الطلاب أوراقاً مطبوعة تتعلق بالنظام الداخلي، طلب أستاذ الأدب أن يعيدوا الأوراق، وعليها توقيع الأهل، وفي الورقة المطبوعة ذُكرت كل المحظورات على الطلاب من الأسلحة إلى الصور مروراً بورق اللعب، وكانت مكتوبة بطريقة جعلت جاك يلخصها بعبارات بسيطة على مسامع أمه وجدته. كانت والدته هي الوحيدة التي تستطيع أن توقع أسفل الورقة المطبوعة بتوقيعها غير المتقن، وبعد وفاة زوجها، كان لها الحق بالحصول على معاش كل ثلاثة أشهر ، كونها أرملة حرب، والإدارة في هذه الحالة الخزينة العامة –

لكنَّ «**كاترين كورمري**» كانت تقول ببساطة: - «إنَّها ذاهبة إلى الخزينة».، وهذه الكلمة لا تعدو كونها اسم علم بالنسبة لها، وهي خالية من المعنى، وهو ما أعطى الأولاد على عكسها فكرة أنها مكان أسطوري لا تنضب ثرواته، وأنَّ والدتهم لديها الحق، أن تغرف منها على فترات متباعدة القليل من المال.

إذاً، الخزينة العامة، كانت تطلب منها في كل مرة توقيعاً، وبعد صعوبات أولية، في التوقيع علمّها أحد الجيران كتابة نموذج توقيع نجح بطريقة ما، وتمَّ قبوله.

وفي صباح اليوم التالي، لاحظ جاك، أن والدته التي غادرت المنزل قبله بكثير لتنظف متجراً يفتح أبوابه باكراً، قد نسيت أن توقع الورقة. وجدته لا تعرف كيف توقع ، فقد كانت تقوم بحساباتها مستخدمة نظام الدوائر، التي كانت تشطب مرة أو اثنتين، وتمثل مرتبة الآحاد أو العشرات أو المئات..

أحضر جاك ورقة، دون توقيع، وقال إن والدته نسيت أن توقعها، وسُئِلَ إن كان يوجد أحدٌ ما، في عائلته، يمكنه التوقيع، وأجاب بِ - «لا». واكتشف من خلال دهشة الأستاذ، أنَّ هذه الحالة لم تكن اعتيادية، وليس مثلما كان يعتقد، حتى تلك اللحظة.

لقد زاد تشتته على يد فتيان الحواضر، الذين جاءت بهم صدفة مهن آبائهم، إلى مدينة الجزائر، «جورج ديدييه» كان هو الشخص الذي أثار تفكيره، وكان الذوق المشترك للغة الفرنسية ، والشغف للمطالعة هو الأمر الذي قارب بينهما إلى أن وصل الأمر إلى حدّ الصداقة، مما جعل بيير يغار من ذلك..

وكان «ديدييه» ابناً لضابط كاثوليكي، ملتزم دينياً، إلى أبعد الحدود، ووالدته «تعمل في مجال الموسيقا».، وأخته (التي لم يرها جاك مطلقاً، ولكنه كان يحلم بها بتلذذ) «تعمل في التطريز». أما «ديدييه» فقد كرس نفسه، على حدّ قوله للحياة الكهنوتية، لقد كان شديد الذكاء، وعنيداً، فيما يخص مسألتي التقوى والأخلاق، حيث كانت معتقداته حازمة، لم يُسمع مطلقاً يتلفظ بكلمة نابية، أو يغمز من طرفٍ كما يفعل بقية الأولاد، بكياسة لا تكِلُّ، إلى وظائف جسم الإنسان، أو إلى ما يتعلق بمسائل الإنجاب والولادة، والتي لم تكن واضحة في مخيلتهم ، حتى يتطرقوا إليها، إنَّ الأمر الأول، الذي حاول أن يحصل عليه من جاك ، عندما تشكلت صداقتهما هو التخلي عن الكلمات البذيئة، لم يجد جاك صعوبة في التخلي عنها أمامه، ولكن مع الآخرين، كان يجد كلماته البذيئة المختلطة بأحاديثه بكل سهولة(وبذلك ارتسمت طبيعته متعددة الوجوه، التي سهلت له الكثير من الأشياء، وجعلته قادراً على

التحدث في مستويات مختلفة، وقادراً على التأقلم في كل الأوساط، وأن يلعب كل الأدوار إلاَّ......) مع «ديدييه» الذي فهم جاك، أنه ينتمي إلى عائلة فرنسية متوسطة، فلدى صديقه في فرنسا منزلاً عائلياً، يؤوب إليه في الإجازات، ويتحدث أو يكتب عنه دون كلل إلى جاك، وللمنزل سقيفة مليئة بحقائق قديمة، حُفظت فيها رسائل العائلة، وذكرياتها وصورها...

لقد كان يعرف تاريخ أجداده، وآباء أجداده، وتاريخ أحد أجداده، الذي كان بحاراً في جزيرة طرف الغار، وذلك التاريخ الطويل والحي في مخيلته، كان يمدّه بالأمثلة والمفاهيم لسلوكه كل يوم «كان جدي يقول... يريد أي أنَّ.....». وكان يبرر بذلك حدّته ونقاءه الصارم، وعندما يتحدث عن فرنسا، كان يقول: «وطننا»، ويتقبل مقدماً التضحيات التي يطلبها (أبوك مات من أجل الوطن).. كان يقول ذلك لِ جاك، بينما كان مفهوم الوطن لا معنى له بالنسبة لجاك، الذي يعرف أنه فرنسي، وذلك يتطلب منه عدداً من الواجبات، ولكن بالنسبة له، كانت فرنسا هي الغائب الذي يطالب المرء بها، وهي تطالب بكم أحياناً، مثلها مثل هذا الربّ، الذي سمع به خارج إطار عائلته، والذي على ما يبدو، كان الموزع السيادي للثروات والمواجع، وهو لا يمكن التأثير عليه، ولكنه على العكس

قادر على كل شيء، وعلى مصير البشر، وهذا الشعور، كان هو شعور النساء اللواتي تعشن معه..

سأل ذات يوم:

- «أمي، ماذا يعني الوطن؟!».وبدت هيئتها مرتعبة مثل كل مرة، لا تفهم فيها السؤال تقول: - «لا أعرف..».

- «لا، إنَّه فرنسا».

- «آه، نعم».

ثم تبدو عليها علائم الارتياح..

بينما كان «ديدييه» يعرف ماهي العائلة من خلال الأجيال الحاضرة بقوة بالنسبة له، وماهو الوطن من خلال تاريخه، وكان يدعو جان دارك باسمها الأول فقط، حتى الخير والشر، فهما محددان، بالنسبة له مثل مصيره الحالي والمستقبلي.

كان جاك، وكذلك بيير، ولكن بدرجة أقل، يشعر نفسه من نوع آخر، دون ماضٍ، دون منزل عائلي، ولا سقيفة مليئة بالرسائل والصور، مواطنين اسمياً في أمّة ضبابية، حيث يغطي الثلج هناك سطوح المنازل، أما هما فكانا يكبران تحت الشمس الحادة والمتوحشة، يتحليان بأخلاق البشر البدائيين، التي تمنعهم مثلاً من السرقة، وتوصيهم بالدفاع عن الأم، والزوجة، لكنها تظلُّ صامتة..

أمام كمٍّ هائل من الأسئلة التي تتعلق بالنساء، والعلاقات مع من هم أعلى مرتبة....الخ، طفلان مجهولان، ويجهلان اللّه في النهاية، غير قادرين على فهم الحياة المستقبلية، طالما أنَّ الحياة الآنية، تبدو لهما لا نهاية لها، في كنف آلهة لا مبالية، تمثل الشمس والبحر أو البؤس.

وفي الحقيقة، فإنَّ تعلق جاك القوي بـ «ديدييه» كان مردّهُ دون شك قلب هذا الطفل المولع بالمطلق، والكامل في أهوائه الأمنية هذا الطفل المولع بالمطلق، والكامل في أهوائه، الأمينة (المرة الأولى التي يسمع فيها جاك بكلمة الأمانة، (التي قرأها مئة مرة)، كانت من فم «ديدييه»)، ولكن كان مردّه أيضاً إلى غرابته، وفتنته، التي أضحت بالنسبة لجاك أمراً غرائبياً، مما شدّه إليه بصورة أكبر. وعندما كبر جاك، فيما بعد، أحسَّ بانجذاب لا يمكن مقاومته، نحو النساء الغريبات.

ابن العائلة، والتقاليد والدين كان لديه في نظر جاك سحر المغامرين السمر العائدين من المناطق المدارية يحيط بهم سرٌّ غريب عصي على الفهم.

لكنَّ الراعي المتحدّر من منطقة القبائل، والذي ينظر من أعالي جبله، وقد لوحت الشمس وجهه إلى اللقالق العائدة من الشمال بعد سفر طويل، وهو يحلم بهذا الشمال، يمكنه أن يحلم كل

نهاره إلاَّ أنَّه يعود في المساء إلى سهل شجر المصطكا[1]، إلى العائلة التي ترتدي ثياباً طويلة، وإلى كوخ البؤس ، حيث نمت جذوره فيه.

وهكذا فإنَّ جاك كان ينتشي بالتقاليد البرجوازية ، لكنه بقي في الحقيقة مخلصاً إزاء الذي كان يشبهه أكثر من أي أحد آخر، إنّه بيير.

وفي كل يوم عدا الأحد والخميس، في السادسة والربع صباحاً، كان جاك ينزل أدراج منزله كل أربع درجات معاً، وكان يركض عبر رطوبة الفصل الحار، أو تحت أمطار الشتاء العنيفة التي كانت تنضح سترته، وتجعلها مثل الإسفنجة، وكان يدور حول النافورة في الشارع الذي يقطن فيه بيير، ويصعد سريعاً طابقين ليطرق الباب بنعومة.

والدة بيير امرأة جميلة، ذات طبع كريم، تفتح الباب الذي يؤدي مباشرة إلى غرفة الطعام، ذات الأثاث القليل ، وفي آخر غرفة الطعام، وعلى الجانبين، هناك باب غرفة الأولى، يشغلها بيير ووالدته، والثانية كانت مخصصة لـ خاليه الاثنين، اللذين يعملان في السكك الحديدية، وهما قليلي الكلام، لكنهما

---

[1] المصطكا: شجر من فصيلة البطميات، يستخرج منه علــك تجــاري معروف – «المترجم» .

بشوشين. ولدى الدخول إلى غرفة الطعام على اليمين، غرفة ضيقة لا هواء، ولا ضوء فيها، وهي تعدُّ بمثابة مطبخ ومرحاض.. بيير متأخر دوماً، كان يجلس إلى الطاولة المغطاة بالمشمّع، وعليه المصباح البترولي، إن كان الوقت شتاءً، ويحمل بين يديه كوباً من الفخار البني المزيّن بالألوان، محاولاً ارتشاف القهوة بالحليب، دون أن يحرق شفاهه، وكانت والدته قد أعدته له، وكان حاراً، وتقول له: - «انفخ عليه».. وكان ينفخ ، ويرتشف، ويتمطق، وجاك يغير وقفته، من رجل إلى أخرى، وهو ينظر إليه، وعندما ينتهي كان عليه المرور أيضاً إلى المطبخ، الذي تنيره شمعة، حيث ينتظره كوب ماء فوق مغسلة التوتياء، وضعت فيه فرشاة أسنان، وأنبوب معجون خاص ، لأنَّهُ كان يعاني من التقيح.

وكان يلبس سترته ويحمل محفظته، ويرتدي قبعته، وعندما يجهز كل شيء، ينظف أسنانه، بعنف، ولمدة طويلة، قبل أن يبصق في مغسلة التوتياء، وتختلط الرائحة الصيدلانية لمعجون الأسنان، مع رائحة القهوة بالحليب، مما يصيب جاك بالتقزز قليلاً، ويصبر على ذلك، ويجعل صديقه يحس بذلك..

ولم يكن من النادر تكرار مثل تلك المواقف التي تعتبر من مكونات الصداقة. وكانا ينزلان بصمت إلى الشارع، ويمشيان إلى موقف الترامواي دون أن يتبادلا الابتسامات، وفي أحيان

أخرى، كانا على النقيض من ذلك، فكانا يلحق أحدهما الآخر ضاحكين، أو يركضان، وهما يتقاذفان إحدى الحقيبتين على أنها كرة رغبي، وفي المحطة ينتظران مترقبين وصول الترامواي الأحمر لمعرفة مع أي واحد من السائقين ، أو الثلاثة، سوف يركبان، كانا يقفزان إلى القاطرة الأمامية بصعوبة، لأن الترامواي يزدحم بالعمال الذاهبين إلى مركز المدينة، وكانت حقيبتيهما تعيقان تقدمهما إلى الأمام، ومع نزول كل راكب كانا يحشران نفسيهما بين الحاجز الحديدي، والزجاجي، وعلبة السرعة العالية، والضيقة، والتي يعلوها عصا ذو مقبض يدور أفقياً في حلقة دائرية حيث يوجد فرضية فولاذية بارزة، تشير إلى نقطة العطالة، وكذلك هناك فرضيات ثلاث أخرى تشير إلى السرعات، وفرضة أخيرة خامسة ، هي المشي إلى الوراء..

كان السائقون الذين يتمتعون وحدهم بحق لمس هذا الساعد، وكتب فوقهم عبارته «ممنوع الكلام»، يشغلون موقعاً ومكانة متميزين، لدى الولدين، كانوا يرتدون لباساً رسمياً يشبه الزي العسكرين، وعمرة مقدمتها من الجلد المقسّى، عدا السائقين العرب الذين يعتمرون الشاشية.

كان الولدان يميزان السائقين من مظهره.

فهناك «الشاب اللطيف» الذي له وجه «فتى السينما» بكتفيه الهزيلين، وهناك، «الدّب البني»، وهو عربي طويل وقوي، غليظ القسمات، وثابت النظر أمامه، وكذلك «صديق الحيوانات»، وهو عجوز إيطالي ذو وجه كئيب، وعيناه ملونتان ، يظل منحنياً إلى الأمام، فوق عجلة القيادة، وقد أُعطي هذا اللقب لأنَّه أوشك على توقيف حافلة الترامواي ليتجنب كلباً لاهياً، ’ وفي مرة أخرى، كلباً مزعجاً يتغوط على قضبان سكة الترامواي.

ويوجد «زورو» ن وهو يشبه قطعة نقانق كبيرة، وله وجه، وشاربين صغيرين، مثل «دوغلاس فيربانكس»[لخ] . وصديق الحيوانات ، كان الصديق المفضّل للأولاد أيضاً، لكن إعجابهما الكبير كان منصبّاً على الدبّ البني الذي لا يمكن إشغاله عن عمله، كان يقف منتصباً قوياً، ويقود آلته الصاخبة بسرعة كبيرة، ويده اليسرى الضخمة تمسك بقوّة المقبض الخشبي لعصا السرعة ، دافعاً إياه إلى الثالث، ما أن تسمح له حركة المرور بذلك، أما يده اليمنى الحذرة، فكانت على قرص المكابح، على يمين علبة السرعة ، جاهزاً، لتدويره بعنف

---

[1] دوغلاس فيربانكس: ممثل، وكاتب سيناريو، ومخرج أمريكي – «المترجم».

، عدة دورات، بينما يقوم يأخذ عصا السرعة، إلى نقطة العطالة، وتتزحلق القاطرة بتثاقل على قضبان السكة. أثناء مناوبة الدب البني، أثناء المرور على المنعطفات والتحويلات. كان الساعد الطويل المثبت بنابض ذي نتوءات على قمة القاطرة، يُفلت غالباً السلك الكهربائي حيث كانا مرتبطاً به بواسطة دولاب ذي إطار مجوّف، وكان يتم إعادة الوضع إلى ماكان عليه، ولكن في ظلّ ضجيج كبير، لاهتزاز السلك، وينطلق الشرر بصورة هائلة. ويقوم الجابي بالقفز من الحافلة لالتقاط السلك الطويل المثبت في أقصى العصا، ويبدأ اللف الأوتوماتيكي للسلك داخل علبة فونط خلف القاطرة، ويشد بكامل قواه، لينتصر على مقاومة الشفة الفولاذية، مُعيداً العصا إلى الخلف، ثم يتركها لتصعد ببطء، محاولاً إعادة السلك، إلى الإطار المجوّف للعجلة وسط لهيب من الشرر..

كان الطفلان ينحنيان خارج القاطرة، إما إذا كان الطقس شتاءً، فهما يتابعان هذه المناورة، وأنفاهما ملتصقان بالواجهة الزجاجية، وحين تكلل العملية بالنجاح، كانا يعلنان ذلك بطريقة مسرحية، دون الالتفات إلى السائق، دون ارتكاب مخالفة بالتكلم معه مباشرة.

لكنَّ الدب البني كان جريئاً، كان ينتظر وفق النظام المعمول به إشارة الجابي من أجل الانطلاق، فهو يعطيه تلك الإشارة

بواسطة حبل رفيع متدلٍّ خلف القاطرة، مرتبط بجرس موضوع في مقدمتها. فكان ينطلق بحافلته دون أن يلوي على شيء. ويأخذ الطفلان مكانهما في المقدمة، يراقبان الطريق المعدني السريع تحتهما، والأسلاك المسرعة فوقهما، كانا يستمتعان في الصباحات الماطرة أو الحارّة، عندما تتجاوز الحافلة بسرعتها الكبيرة، عربة تقودها الأحصنة، أو حين تتنافس بالسرعة مع سيارة لبعض الوقت، وفي كل محطة كانت الحافلة تفرغ القليل من حمولتها من العمال العرب، والفرنسيين، وتمتلئ مجدداً بزبائن ملابسهم أفخر من سابقيهم مع الاقتراب من مركز المدينة، ثم تنطلق الحافلة بإشارة من الجرس، وبذلك تقطع قوس الحلقة الذي تمتد المدينة فيه من بدايته إلى نهايته ، إلى اللحظة التي تصل فيها بغتة إلى الميناء، وفضاء الخليج الشاسع الذي يمتد إلى الجبال الضاربة إلى الزرقة في آخر الأُفق، وبعدها بثلاث محطات تصل إلى آخر الخط في ميدان الحكومة حيث ينزل الولدان.

كان الميدان محاطاً بالأشجار، وبالبيوت ذات القناطر من جهات ثلاث، وينفتح ناحية المسجد الأبيض ثم على الميناء، ووسط الميدان ينتصب تمثال دوق «أورليانز» القافز على حصانه بلونه الأخضر والرمادي تحت سماء شديدة السطوع، لكن معدن البرونز، تحوّل لونه إلى الأسود، كان يقطر ماءً بعد طقس

سيئٍ(ويروي عنه بلا مواربة أن نحّاته بعد أن نسي سلسلة اللجام قد انتحر)، بينما يسيل الماء من ذيل الحصان، بلا انقطاع على الحديقة الصغيرة التي يحميها سياج ، يدور حول النُصب التذكاري بينما كانت باقي أنحاء هذه المساحة مبلطة بلاطات صغيرة الحجم، ولامعة يقفز فوقها الطفلان بعد نزولهما من حافلة الترامواي، وينطلقان، ويتزحلقان زحلقات طويلة، نحو شارع «باب عزون» الذي يوصلهما بعد خمس دقائق إلى الثانوية.

شارع «باب عزون» كان شارعاً ضيقاً فيه سلسلة قناطر على جانبيه، ترتكز على أعمدة مربعة الشكل، تجعل الشارع أشدَّ ضيقاً، بحيث يُفسح المجال فيه فقط لمرور خط الترامواي، الذي تقوم عليه شركة أخرى، والذي يربط هذا الحي، بالأحياء العليا في المدينة، وفي الأيام الحارّة والسماء ذات لون أزرق كثيف، تستريح مثل غطاء حار على الطريق، كان الظلّ منعشاً تحت قناطر الشارع، وفي الأيام المطيرة لم يكن الشارع إلاَّ خندقاً عميقاً من الحجر الرطب واللامع، وعلى طول القناطر كانت تتوالى المحلات التجارية، أما تجار النسيج بالجملة، الذين طليت واجهات متاجرهم بألوان غامقة، فكانت أكوام النسيج الفاتح داخلها تلمع في الظل بصورة خفيفة، ومحلات البقالة، تتضوع منها روائح القرنفل، والقهوة، وهنالك دكاكين صغيرة، يبيع فيها تجار عرب حلويات يقطر منها

الزيت والعسل، مقاهٍ معتمة وعميقة بدأت مصابيح القهوة تلمع فيها في هذا الوقت (بينما في المساء، كانت تضاء بمصابيح قوية، وتعجُّ بالضجيج، إذ يدوس الرجال على الأرضية الخشبية المغطاة بنشارة الخشب، ويتزاحمون على الكونتوار المليء بالكؤوس المترعة بشراب متلألئ وصحون ملأى بالترمس، وقطع من سمك الأنشوفة، والكرفس المقطّع، والزيتون، والبطاطا المقلية، وفستق العبيد)..

وأخيراً.. متاجر للسوّاح، تباع فيها مصنوعات زجاجية شرقية، موزّعة في واجهات عرضانية وواجهات عرض دوّارة مزينة ببطاقات بريدية، ومناديل رقبة ذات طابع محلّي وألوان فاقعة..

إحدى تلك المجلات الواقعة وسط القناطر كانت تخصّ رجلاً سميناً يجلس دوماً خلف الواجهة في الظلّ، أو تحت ضوء المصباح الكهربائي، كان ضخماً، ولونه ضارب إلى الأبيض، جاحظ العينين، مثل تلك الكائنات التي نجدها عندما نرفع حجراً أو جذعاً قديماً، وكان أصلع الرأس أيضاً..

وقد أطلق عليه طلاب الثانوية لقب «ساحة تزلج الذباب»، و«حلبة سباق دراجات البعوض»، زاعمين أنَّ الحشرات عندما تجتاز المسافات على سطح جمجمته الجرداء، تتساقط بعد أن تفقد توازنها، وكانوا في المساء غالباً مثل رفّ من الزرازير، يمرّون

لرؤيته، وهم راكضون، ينادون ذلك التعِس، بلقبه مقلدين بـ «ززززززز» صوت تزحلق الذباب المفترض.

وكان التاجر الضخم يسبّهم، وقد حاول اللحاق بهم مرة أو اثنتين، ولكنَّهُ تخلَّى عن ذلك، وظلَّ ساكناً، في إحدى المرات، أمام تعاظم الصرخات، وضحكات الاستهزاء، وترك الأولاد يقتربون أكثر مرات عديدة، حتى وصل بهم الأمر إلى الاقتراب للصراخ، تحت أنفه، وفجأة ظهر شباب عرب دفع لهم التاجر نقوداً، ظهروا من خلف الأعمدة، التي اختفوا وراءها، وانطلقوا يلاحقون الأولاد. وبفضل سرعتهما الفائقة في الركض، استطاع جاك وبيير التملص من العقاب، جاك فقط تلقى صفعة واحدة على مؤخرة رأسه، وأفاق بسرعة من ذهوله، وابتعد عن خصمه، لكن اثنين أو ثلاثة من رفاقه، تلقّوا ضربات قوية على رؤوسهم. وتآمر الطلاب بعد ذلك على نهب المتجر، وإيذاء صاحبه جسدياً، ولكن في الحقيقة، لم يكن هناك نتيجة حقيقية لمشاريعهم التآمرية، وانتهى بهم الأمر بالتوقف عن إيذاء ضحيتهم، واعتادوا على المرور بطريقة لطيفة على الرصيف المقابل للمتجر.

كان جاك يقول بمرارة: - «لقد خانتنا الشجاعة».

ويردّ بيير - «لقد أخطأنا، لقد كنا مخطئين، وخشينا أن نُضرب».

وفيما بعد، كان ينبغي عليه أن يتذكر تلك القصة، عندما فهم بأنَّ الناس يتظاهرون باحترام القانون، ولا ينحنون مطلقاً أمام القوة.

وكان «شارع باب عزون» يتسع في منتصفه بعد فقدانه للقناطر فجأة، لصالح كنيسة سانت فيكتوار، تلك الكنيسة الصغيرة، كانت قد حلّت، فكان جامع قديم، وعلى واجهتها المبيّضة بالكلس خُصص صندوق للتبرعات، وعلى الرصيف البارز، تنفتح محلات بيع الأزهار، التي بكّرت في عرض بضاعتها، ساعة مرور الأطفال من باقات السوسن والقرنفل والورود أو من شقائق النعمان، وذلك حسب الفصل، وكانت تلك الأزهار موضوعة في أصص كانت أساساً علب كونسرة، حوافها العليا صدئة، من الماء الذي يرشون به الأزهار بصورة مستمرة، وعلى الرصيف ذاته، كان يوجد دكان يبيع الحلوى العربية، وهو في الحقيقة، مكان ضيق يتسع لثلاثة رجال بالكاد.

وقد خصص فيه مكان لموقد كان محيطه مزيناً بالبورسلان الأزرق، والأبيض، وقدوُضع عليه حوض صغير مملوء بالزيت المغلي، وأمام الموقد يقف رجل عربي غريب المظهر، يرتدي مريولاً وسروالاً عربياً، جذعه نصف عارٍ في أيام الحرّ، ويرتدي في أيام أخرى سترة أوربية مغلقة من الأعلى بدبوس، وكان ذلك

الرجل برأسه الحليق ، ووجهه الهزيل وفمه الخالي من الأسنان، يشبه غاندي، ولكن بدون نظارات، كان هذا الرجل حاملاً بيده ملعقة مثقبة حمراء اللون، يراقب احمرار الفطائر الدائرية، التي كانت تُقلى في الزيت. وعندما يلاحظ إحداها وقد أصبحت جاهزة، بمعنى أن حوافها قد أصبحت ذهبية اللون ، بينما العجينة الرقيقة للغاية في الوسط، قد أصبحت شفافة ومقرمشة (مثل قطعة البطاطا الشفافة)، كان يمرر ملعقته بحذر تحت الفطيرة ويسحبها برشاقة خارج الحوض، ويجعلها تقطر فوقه، عندما يهزها ثلاث أو أربع مرات، ثم يضعها أمامه على بسطة تحميها واجهة زجاجية فيها رفوف مثقبة. قد صفَّ عليها مسبقاً من جهة الحلوة على شكل قضبان صغيرة، كان قد جهزها مسبقاً ، وفي جهة ثانية قطعاً مسطحة ودائرية..

ويكاد جاك وبيير يفقدان عقلهما لدى رؤية هذه الحلويات، وإن توفر المال صدفة مع أحدهما، كانا يأخذان وقتهما في شرائها، وكانت توضع لهما في ورقة ، يجعلها الزيت تصبح شفافة بعد أن يلطخها، أو كان التاجر قبل إعطائهما القضبان يغمسها في وعاء قرب الموقد مليء بالقطر، غامق اللون، ومشوب بفتات الحلوى. كان الطفلان يتسلمان الحلوى اللذيذة هذه، ويبدأان بقضمهما، وهما يركضان نحو الثانوية، بجذعهما، ورأسيهما المائلين إلى الأمام خشية تلويث ثيابهما.

ومن أمام كنيسة «سانت فيكتوار» كان يتم الدخول الصباحي إلى الصفوف، وكذلك انطلاق أسراب السنونو، وفي الحقيقة، فإنَّه في هذا الجزء الواسع من الشارع، كانت تمتد أسلاك كهربائية عديدة، وحتى كابلات توتر عالٍ كانت معدّة في السابق من أجل حافلات الترامواي، ولكنها أصبحت خارج الخدمة، ولم تتم إزالتها. كانت طيور السنونو مع أول موجات البرد، البرد النسبي، إذ إنَّ الصقيع لا يصيب هذه المنطقة، ومع هذا كانت البرودة محسوسة، بشكل كبير، بعد أن أرخت الحرارة بثقلها الهائل، خلال أشهر عديدة، كانت طيور السنونو التي تطير عموماً فوق الشوارع من جهة البحر، وفوق الميدان أمام الثانوية، أو في سماء الأحياء الفقيرة، وتنقر أحياناً أكواز التين، وهي تزقزق بأصوات تصمّ الآذان، أو أنها تنطلق إلى القاذورات في البحر أو إلى كومة روث طازج، كانت تظهر فرادى في شارع باب عزون، وتطير على مستوى حافلات الترامواي، ثم ترتفع فجأة لتختفي دفعة واحدة فوق المنازل.

وفجأة، في أحد الأيام، كان عددها بالآلاف، على الأسلاك، في ميدان كنيسة سانت فيكتوار، وفي أعلى المنازل، متلاصقة بعضها ببعض، وهي تحرك رؤوسها الصغيرة، فوق صدورها القاتمة، وهي تتنقل بقوائمها قليلاً، ضاربة بذيولها لتفسح المجال لقادمين جدد، وكانت فضلاتها تملأ الأرصفة،

بلونها الرمادي، ولم يكن يصدر منها أي أصوات زقزقة، تصم الآذان، وأحاديث فيما بينها لا تتوقف منذ الصباح، وتجتاح أنحاء الشارع، وتتزايد شيئاً فشيئاً مع تقدم النهار، وعندما يحلّ الليل ، ويخرج الأطفال مسرعين نحو حافلات العودة، كانت الزقزقة تتوقف تماماً، بأمر يأتيها من أحد ما لا يُرى، فتتحني رؤوسها الصغيرة على أذيالها البيضاء والسوداء لتغفو جميعاً.

وخلال يومين أو ثلاثة، جاءت تلك الطيور من كافة أنحاء الساحل، وأحياناً من مناطق أبعد منه، كانت تصل على شكل أسراب خفيفة، تحاول أن تجد لها مكاناً لتحط فيه بين الأسراب التي وصلت قبلها، وشيئاً فشيئاً، تستقر على الأفاريز على طول الشارع، وعلى جهتي التجمع الرئيسي للطيور، كانت تزداد أصوات اصطفاق الأجنحة والزقزقة، التي تزداد لتصبح هائلة. وثم بعد ذلك، وفي أحد الصباحات، وعلى حين غرّة ، كان الشارع خالياً، ففي الليل، قبل الفجر تماماً، كانت الطيور قد رحلت معاً نحو الجنوب، وكان ذلك مؤشراً لدى الأطفال، بأنَّ الشتاء قد بدأ قبل أوانه، لأنَّ الصيف لا يكتمل دون زقزقة السنونو الصادحة في سماء المساء الحارّة.

كان شارع باب عزون يؤدي إلى ميدان واسع، يرتفع فيه بناءان متقابلان هما مبنى الثانوية، ومبنى الثكنة العسكرية.

وكانت المدينة تقع خلف الثانوية، وهي ذات شوارع منحدرة ورطبة، بدأت تصعد باتجاه الهضبة، أما الثكنة فكانت تدير الظهر للبحر، وبعد الثانوية، تبدأ حديقة المارينغو، أما بعد الثكنة فهناك الحي الفقير الذي يشكل فيه الإسبان النصف تقريباً، إنه باب الواد.

وقبل دقائق من السابعة والربع، وبعد أن اجتاز بيير وجاك السلالم بسرعة كبيرة، دخلا إلى وسط مجموعة كبيرة من الأطفال ،عبر الباب الصغير المخصص للآذن، الواقع قرب باب الشرف. وصلا إلى درج التشريفات الكبير، والذي كانت على طرفيه توجد لوحات الشرف ، فاجتازاه ليصلا إلى صحن الدرج حيث تبدو سلالم الطوابق على جهة اليسار، ويفصلها عن الباحة رواق له واجهة زجاجية.

وهناك خلف أحد أعمدة صحن الدرج، لاحظوا وجود الكركدن الذي كان يراقب الأولاد المتأخرين (الكركدن، أو وحيد القرن، هو مراقب عام، كورسيكي صغير الحجم، ونزِق، ويعود لقبه إلى شاربه المعقوف). وهناك تبدأ حياة أخرى..

حصل جاك وبيير بسبب «وضعهما العائلي» على منحة بنصف الإقامة، فكانا يمضيان سحابة النهار في الثانوية، ويتناولان طعام الغداء في مطعم المدرسة، كانت الدروس تبدأ في الثامنة أو التاسعة، حسب الأيام، ولكن طعام الفطور، يقدّم في

السابعة والربع للطلاب الداخليين، وكان الطلاب نصف الداخليين لهم الحق بتناول وجبة الفطور. ولم تكن عائلتا الطفلين تتصوران قط إمكانية التنازل عن حق ، مهما كان حجمه، وفي المقابل، فليس لديهما الكثير من الحقوق، وكان جاك وبيير، مع الطلاب القلائل نصف الداخليين الذين يصلون في السابعة والربع إلى المطعم الدائري الأبيض، حيث الأطفال الداخليين الذين يغالبهم النعاس، وقد جلسوا أمام طاولات طويلة يغطيها الزنك، وأمامهم قصعات كبيرة، وسلال ضخمة مملوءة بشرائح كبيرة من الخبز الجاف، بينما الصبيان ومعظمهم من العرب، الذين يرتدون مراييلاً من الكتّان الغليظ، كانوا يمرّون أمام نسق من أباريق القهوة الضخمة، التي كانت لامعة، فيما مضى، وتنتهي بأعناق كبيرة، معقوفة لتصب سائلاً حاراً في الأكواب فيه من الهندباء أكثر مما فيه من القهوة، وبعد أن مارسا حقهما في الفطور، كان يمكن للطفلين بعد ربع ساعة الانضمام إلى الدراسة، تحت إشراف ناظر الدروس، الذي كان مقيماً أيضاً، وبذلك يعيد الطلاب دروسهم قبل بدء الدروس.

إن الاختلاف الأساسي مع المدرسة الابتدائية، كان في تعدّد المعلمين، فالسيد برنار، كان يعرف كل شيء، ويعطي كلّ معارفه بالطريقة ذاتها. أما في الثانوية، فيتغير الأساتذة بتغيير

المواد، والمقارنة تصبح ممكنة، بمعنى أنه يجب الاختيار بين أولئك الذين نحبهم، والذين لا نحبهم أبداً..

والمعلم وفق وجهة النظر تلك، هو أكثر من أب، ويشغل مكانة تقريباً، ولا يمكن تجنبه، وهو يشكل جزءاً من الحاجة والضرورة، أما مسألة حبه، فليست قابلة للطرح، فنحن نحبه لأننا غالباً ما نرتبط به، ولكن إن حصل وكان أحد الأطفال لا يحبه، أو يحبه، بعض الشيء، فالتعلق والحاجة يبقيان ، وهما ليسا بعيدين عن التشبّه بالحب.

أما في الثانوية ، فعلى العكس. فالأساتذة مثل الأعمام حيث لديك حق الاختيار فيما بينهم، وخصوصاً مسألة أنه يمكنك ألاّ تحبهم. فهناك على سبيل المثال أستاذ فيزياء شديد الأناقة، في ملبسه حازم وغليظ في أقواله، لم يستطع جاك وبيير أن يتحملاه، على الرغم من أنهما التقياه في السنوات اللاحقة مرتين أو ثلاثاً.

أما الشخص موفور الحظ في نيل حب الطلاب، فقد كان أستاذ الادب، والذي يراه الطلاب أكثر من غيره من الأساتذة، وفي الحقيقة، فإنَّ جاك وبيير يتعلقان به، في كل الدروس، دون أن يستطيعا الاتكال عليه، لأنَّه لا يعرف عنهما شيئاً، وعندما ينتهي الدرس كان يتجه إلى حياته المجهولة، وهما أيضاً يؤوبان إلى هذا الحي البعيد حيث لا فرصة للقاء أستاذ في

الثانوية، وقد أقام فيه إلى درجة أنهما لا يلتقيان أي شخص مطلقاً من ذلك المحيط لا طلاب ولا أساتذة على خط الترامواي – كانت الحافلات الحمراء مخصصة لخدمة الأحياء السفلى ، أما الأحياء العليا المشهورة بأناقتها فقد خصصت لها حافلات ترامواي ذات عربات خضراء على خط آخر، وكان هذا الخط يصل إلى الثانوية، بينما الخط الآخر ينتهي عند ميدان الحكومة. وعندما ينتهي اليوم الدراسي، يحس الولدان بانفصالهما عن الآخرين، عند باب الثانوية. أو بالكاد أبعد قليلاً، أي في ميدان الحكومة، عندما يتركان المجموعة السعيدة للرفاق، ويتجهان إلى العربات الحمراء التي تتجه نحو الأحياء الأشد فقراً. وهنا في الحقيقة، يكون الانفصال الذي يشعران به وليس شعورهما بالدونية..

وأثناء اليوم الدراسي، كانت مسألة انفصالهما، واختلافهما عن الغير، أمراً ليس مطروحاً ، فالمراييل قد تكون بقدر ما أقل أناقة، ولكنهما يشبهان الآخرين. وكانت المنافسة الوحيدة هي المنافسة في مضمار الذكاء والقوة البدنية أثناء اللعب. وفي هذين النوعين من المنافسة، لم يكن الطفلان هما الأخيرين. إن التدريب القاسي الذي تلقاه الطفلان في المدرسة الابتدائية، أعطاهما تفوقاً وأفضلية، اعتباراً من الصف السادس، ووضعهما في عداد الأوائل، كانت مادة الإملاء بالنسبة لهما لا

تقارن ، والحساب مادة متينة، وذاكرتيهما كانت قوي، في كل أنواع المعارف، وهي الأمور التي تعد أساسية في بداية دراستيهما. وإن لم يكن جاك كثير الحركة مما كان يعرضه إلى السقوط من لائحة الشرف، وإن كان بيير أكثر شطارة في اللغة اللاتينية، لكان انتصارهما تاماً، وعلى كل حال، فإن تشجيع الأساتذة لهما، جعلهما موضع احترام الجميع، أما بالنسبة للّهو والألعاب، وهنا نتكلم عن كرة القدم، فقد اكتشف جاك منذ بداية الدراسة، والاستراحات، فيما بينها ولعه لسنوات عديدة بهذه اللعبة.

وكانت تُمارس تلك اللعبة خلال الفُرصة، التي تلي وجبة الغداء، في مطعم المدرسة ، وخلال الساعة التي تفصل الطلاب نصف الداخليين عن الخارجين، خلال حصة الساعة الرابعة، وهي الحصة الأخيرة بالنسبة لهم.

وفي هذا الوقت، كانت استراحة ساعة من الوقت تسمح للأطفال بتناول عصرونيتهم، وبالاستراحة قبل الدراسة، أو كانت الاستراحة هي عبارة عن ساعتين، مما يسمح لهم بإنجاز دراسة اليوم التالي.

أما جاك، فلم يكن لديه ما يسمى العصرونية، فقد كان يسرع مع المهووسين بكرة القدم إلى الساحة الاسمنتية المحاطة من جهاتها الأربع بالقناطر ذات الأعمدة الضخمة (حيث يتنزه

الطلاب الذين يدرسون أكثر من كونهم أذكياء، وكذلك الطلاب الهادئين).

وهناك أربعة أو خمسة مقاعد خضراء، وقد زرعت في الباحة أيضاً أ شجار التين الضخمة، التي تحميها حواجز حديدية مشبّكة، ويقتسم فريقان الباحة، ويأخذ حارسا المرمى مكانهما في أقصى الباحة من الجهتين بين الأعمدة، وتوضع كرة من الكاوتشوك الليّن في المنتصف، ولم يكن هناك حكم ، ويتعالى الصراخ، والركض مع أول ضربة للكرة. إنه في هذا الملعب ، الذي يتحدث فيه جاك حديث الندّ للندّ، مع أفضل طلاب الصف ، يفرض احترامه وحبّه على أسوأ الطلاب أيضاً، فقد منحتهم السماء بدلاً من التميّز في الذكاء، أقداماً قوية وأنفاساً طويلة، وهناك كان ينفصل للمرة الأولى عن بيير الذي لا يلعب رغم أنه ماهر في اللعب: لقد أصبح أكثر هشاشة، وهو ينمو أسرع من جاك، ويصير أكثر ميلاً إلى اللون الأشقر أيضاً، كما لو أنَّ عملية نقله إلى الثانوية، كانت أقلّ نجاحاً مقارنة مع جاك.

جاك كان يتأخر عنه في النمو، مما أكسبه اللقب الظريف «مستوى الأرض» أو «واطئ المؤخرة»، لكنه كان عديم المبالاة، ويركض بشغف، والكرة بين قدميه متجنباً شجرةً أو خصماً، الواحد تلو الآخر، لقد كان يشعر أنه ملك الباحة،

وملك الحياة، وعندما كان يُضرب الطبل علامة انتهاء فترة الاستراحة، وبداية الدرس، كان يَقعُ حقيقته من السماء ويتوقف فجأةً فوق اسمنت الباحة لاهثاً ومتعرقاً وساخطاً من مضي الوقت سريعاً، ثم يدرك شيئاً فشيئاً حقيقة اللحظة، ويسرع من جديد إلى صفوف رفاقه، ماسحاً العرق عن وجهه بأطراف أكمامه، ويأخذه الفزع فجأة لفكرة اهتراء مسامير نعله التي يتفحصها بعناية في بداية الدرس، محاولاً تخمين الفرق بين حالها اليوم، وحالها الأمس، ثم يلمّع مقدمة الحذاء، ويطمئن نفسه عندما يلاقي صعوبة في قياس مدى الاهتراء. إلاّ حين يكون هناك ضرر ما لا يمكن إصلاحه، مثل نعلّ مفتوح، أو جزء علوي ممزق، أو كعب مفتول، مما لا يترك مجالاً للشك، حول نوعية الاستقبال الذي ينتظره لدى عودته، فيبدأ بابتلاع لعابه، وقد تشنجت معدته، وخلال الساعتين الدراسيتين، يحاول التكفير عن ذنبه بعمل جدّي أكثر، ولكن جهوده تبوء بالفشل رغم كل الجهود خوفاً من الضرب..

والحصة الدراسية الأخيرة، كانت تبدو أكثر طولاً من غيرها، فهي تستمر لمدة ساعتين، وموعدها بعد هبوط الظلام، وحين يحل المساء، وكانت النوافذ العالية تطلّ على حديقة أكثر من المعتاد، وقد أنهكتهم الدراسة، وأتعبهم اللهو، واللعب، وكانوا منكبين على آخر مهمات النهار الدراسي

وفـي نهاية السنة على وجه الخصوص، كان المساء يرخي بظلاله على الأشجار الكبيرة، والأرضيات، وشجيرات الموز فـي الحديقة والسماء، التي يضرب لونها إلى الأخضر، تتمدد بقدر ما تتباعد فيهع ضجة المدينة، وتصبح مكتومة. وعندما يكون الطقس حاراً جداً، وإحدى النوافذ تكون نصف مفتوحة، كانت تُسمع أصوات آخر طيور السنونو، فوق الحديقة، وكانت روائح زهور السيرينغا والماغنوليا تملأ المكان، وتطغى على الروائح الأكثر مرارة للحبر والمسطرة، كان جاك يحلم وقلبه منقبض بصورة غريبة، إلى أن ناداه، فعاد إلى وضعه، المعيد الشاب الذي يحضّر هو نفسه دروسه فـي الكلية، كان يجب الانتظار من أجل سماع صوت الطبل الأخير.

فـي السابعة مساءً، يبدأ الازدحام خارج الثانوية، ويبدأ الركض فـي مجموعات تضج بالحركة على طول شارع باب عزون حيث كانت كافة المحلات مضاءة، والأرصفة تنوء بالمارة الذين يعبرون تحت القناطر إلى درجة أنه يجب أحياناً النزول عن الرصيف إلى الشارع، بين قضبان الترامواي، إلى أن تُرى إحدى الحافلات حينها، ينبغي الارتماء تحت القناطر إلى أن تنفتح أمامهم ساحة الحكومة، ذات المحيط الذي تنيره أكشاك وبسطات التجار العرب، المضاءة بمصابيح الأستيلين، التي يَشْتَمُّها الأطفال بتلذذ. كانت حافلات الترامواي حمراء اللون،

تنتظر وهي تمتلئ بالركاب، بينما قد كانت في الصباح أقل ازدحاماً، وكان ينبغي أحياناً البقاء على سلم القاطرة، وهو شيء ممنوع، ولكن يتم غض النظر عن ذلك، إلى أن يترجل عدد من الركاب في إحدى المحطات، فينغرس الطفلان في الكتلة البشرية منفصلين عن بعضهما دون أن يتمكنا من تجاذب أطراف الحديث، بكل الأحوال، وكانا مجبرين على إعمال أكواعهما ببطء، وكذلك جسديهما للوصول إلى الدرابزين، ومنه يمكن رؤية المرفأ العاتم حيث يمكن رؤية السفن المنقطة بالنور ، وهي تبدو في عتمة الليل البحرؤي، والسماء، مثل هياكل مبان محروقة، حيث كانت الاحتراق قد ترك كل جمره هناك، وكانت حافلات الترامواي الكبيرة والمضاءة تمرّ محدثة ضجة كبيرة، فوق البحر، ثم تغطس نحو الداخل، وتمرّ بين المنازل، التي يزداد مظهرها فقراً، رويداً رويداً، وصولاً إلى حي بلكور، حيث يجب أن ينفصلا هناك، ويصعد الدرج الذي لم يكن أبداً مضاءً، وصولاً إلى الضوء الدائري للمصباح البترولي، الذي يضيء مشمّع الطاولة والكراسي، تاركاً في العتمة، باقي الغرفة، حيث تنهمك كاترين كورمري، في إعداد المائدة، أمام خزانتها، بينما تقوم الجدّة بتسخين يخنة طعام الغداء في المطبخ، بينما الأخ الأكبر يقرأ على زاوية الطاولة رواية مغامرات. وفي بعض الأحيان،

كان ينبغي الذهاب إلى بقالية المُرابي لإحضار ملح أو ربع قليلاً من الزبدة ، لوحظ أنها تنقص في اللحظة الأخيرة، أو الذهاب لإحضار الخال إرنست الذي يلقي خطاباً مطولاً عند غابي في المقهى. كان العشاء في الثامنة، وهو يجري بصمت، أو أن الخال كان يسرد مغامرة غامضة أضحكته حدّ القهقهة. أما حديث الثانوية، فلم يكن يطرح أبداً، حين تسأل الجدّة إن كان جاك قد حصل على علامات جيدة، ونكان يجيب بنعم، ولا يعد أحد إلى الحديث عن ذلك مجدداً. وأمه لا تسأله شيئاً، لكنها تهزّ رأسها، وهي تنظر إليه بعينيها العذبتين. عندما تعرف أنه حصل على علامات جيدة، ولكنها كانت صامتة دائماً. ومستعدة للنهوض قائلة لوالدتها: «لا تتحركي، سوف أجلب الجبن»، ثم لا شيء حتى ينتهي العشاء، وتنهض لترفع المائدة.

كانت الجدّة تقول له: - «ساعد أمك». لأنه أمسك رواية بارديان، حتى يقرأها بشغف، أما هو فيساعد والدته ليعود إلى أسفل المصباح واضعاً أمامه الكتاب السميك الذي يتحدث عن المبارزات والشجاعة على غطاء المشمع الناعم والعاري.

بينما تسحب والدته كرسيها بعيداً عن ضوء المصباح، وتجلس أمام النافذة في الصيف أو الشتاء، وهي ترقب حركة سير

الحافلات والسيارات والمارة التي بدأت تتضاءل رويداً رويداً، وكانت الجدة أيضاً، هي من تقول لجاك:

- «إنَّه يجب الخلود للنوم، لأنه سينهض في الخامسة والنصف في اليوم التالي»... ثم يقبلها، هي في البداية، ثم يقبّل الخال إرنست، وينتهي عند والدته، التي تعطيه قبلة حنونة، وهي شاردة الذهن، ثم تستعيد جلستها الجامدة، في الظل، ونظرها تائه في الشارع، والحياة تسير بلا كلل في الأسفل، تحت المكان الذي تجلس فيه، بينما ولدها يرقبها بلا كلل، وينظر إلى ظهرها النحيل المحني، والغصة تجتاح كيانه، وقلق غامض يعتريه إزاء مصيبة لا يستطيع فهمها.

الفن وذبح الدجاجة

هذا القلق أمام المجهول، وأمام الموت، كان يلازمه على الدوام، لدى عودته من الثانوية إلى المنزل، ويملأ قلبه في نهاية اليوم، بالسرعة نفسها، التي تلتهم فيها العتمة ضوء النهار، وأديم الأرض، ولا ينتهي إلاّ عندما تقوم الجدّة بإشعال المصباح البترولي، عندما تضع بللورته على غطاء المشمع، وتقف على أطراف قدميها، مسندة فخذيها إلى حافة الطاولة، وجسدها محني إلى الأمام ورأسها مفتول قليلاً، كي ترى بوضوح عنق المصباح على ضوء الأباجور، فتمسك بيدٍ العجلة النحاسية تحت المصباح، والتي تضبط الفتيل وباليد الأخرى، تمسك عود الثقاب المشتعل، الذي تقربه من القتيل، وتنتظر إلى أن يتوقف الفتيل عن إطلاق الهباب، ويعطي ضوءاً جميلاً واضحاً، فتقوم الجدّة بإعادة البللورة، التي تصرّ قليلاً عند ملامستها الأسنان النحاسية المزينة، حيث تنغرس، ثم تقف منتصبة أمام الطاولة من جديد، وترفع ذراعاً واحدة لتضبط الفتيل، حتى يمتد الضوء الأصفر، والحار على الطاولة، ويصبح دائرياً واسعاً ومكتملاً مضيئاً بعذوبة أكثر، ولدى انعكاس الضوء على غطاء المشمع، ينصب على وجهي المرأة والطفل الذي يجلس في الجهة

الأخرى من الطاولة، وهو يرقب المشهد وينشرح قلبه بهدوء كلما ازداد الضوء.

إنَّهُ القلق نفسه الذي يحاول التغلب عليه أحياناً بالغطرسة، والغرور، حين تأمره جدته في بعض الظروف بالذهاب لإحضار دجاجة من باحة البيت، وكان ذلك يحصل دوماً في المساء، وعشية عيد هام مثل الفصح أو الميلاد، أو أيضاً حين يأتي أحد الأقارب المنعمين لزيارتهم، ويرغبون في إكرامه، بقدر ما يريدون خداعه، فيما يخص الوضع الحقيقي للعائلة. وحين كان في السنوات الأولى من تعليمه في الثانوية، طلبت الجدّة من الخال جوزفان أن يجلب لها بعض الدجاج العربي من جولاته التجارية، أيام الأحد، ودفعت الخال إرنست حتى يبني لها في آخر الباحة وعلى مستوى الأرض اللزجة، بفعل الرطوبة قناً غليظ المظهر، حيث وضعت فيه خمسة أو ستة طيور، كانت تعطيها بيضاً ولحماً في مناسبات معينة. والمرة الأولى التي قررت فيها الجدّة التنفيذ، كانت العائلة تجلس حينها إلى المائدة، فطلبت من الصبي البكر أن يذهب، ويحضر لها الضحية. ولكن لويس[لخ] رفض، وصرّح بوضوح بأنه خائف، فسخرت منه الجدّة ووبخته

---

[1] .

فأولاد الأغنياء، لم يكونوا مثل أولئك الأولاد من جيلها في عمق البلد، وهم الذين كانوا لا يخشون شيئاً..

- «جاك، هو أكثر شجاعة، أنا أعرف ذلك، هيا، أنت..»..

الحق يقال: إنَّ جاك لم يشعر أبداً، بأنَّهُ أكثر شجاعة، ولكن منذ اللحظة التي أُعلن فيها ذلك، لم يستطع أن يتراجع، وذهب لإثبات ذلك، للمرة الأولى في ذلك المساء. كان عليه النزول على الدرج متلمساً طريقه في العتمة، ثم عليه الاستدارة يساراً في الممر، الذي كان حالك الظلمة أيضاً، ثم إيجاد باب الباحة، ثم فتحه. كان الليل أقل اسوداداً في الباحة مقارنة مع الممر، ولاحظ الدرجات الأربعة الزلقة والمخضوضرة، التي تنزل إلى الباحة، وعلى اليمين كان مغلق شباك البيت الصغير الخاص بعائلة مزين الشعر، والعائلة العربية يسمح بانسياب ضوء خافت.

وفي الجهة المقابلة، لاحظ أطيافاً، لطيور مائلة إلى البياض، تنام على الأرض، أو على قضبان أقفاصها الملوثة بالفضلات. وعند وصوله إلى القن، وما أن لمس ذلك الموضع المترنح ، وهو يجلس القرفصاء، وأصابع يديه فوق رأسه، تدخل في فتحات التشبيك حتى ارتفع الصياح الهائل ، والقوقأة، التي تصمّ الآذان، وفي الوقت ذاته، لفحته روائح الفضلات المقززة، فتح باب القن الصغير المجهز بفتحات إنارة على مستوى الأرض، واستلقى أرضاً، مدخلاً يده ثم ذراعه، ووجد بقرف قضيباً ملوثاً

بالفضلات على الأرض، فسحب يده بسرعة، وقلبه يرتجف فزعاً، بعد أن عَلَتْ أصوات الهرج والمرج، واصطفاق الأجنحة والقوائم، حيث كانت الطيور تطير أو تتراكض في كل الاتجاهات، ومع ذلك ، كان عليه حسم الموقف، بعد إعطائه لقب الأكثر شجاعة، لكن اضطراب تلك الطيور في الظلمة ، وفي هذه البقعة العاتمة والوسخة ملأ قلبه، بقلق أثقل كاهله. كان ينتظر ثم يتطلع إلى صفاء الليل، فوق رأسه، والسماء مليئة بالنجوم الساطعة، ثم ارتمى إلى الأمام، والتقط أول قائمة طير وقعت في متناوله، وجرّ الطير الذي ملأ الدينا صراخاً من شدة الفزع إلى باب القن، وأمسك بقائمته الثانية بيده الأخرى، وشدَّ الدجاجة بعنف خارج القن، مما تسبب بفقدانها بعضاً من ريشها لاحتكاك باب القن ، بينما امتلأت أرجاء المكان بقوقأة حادة، ومفزعة، مما جعل العجوز العربي يخرج حذراً في مستطيل من ضوء صَنَعَهُ الباب، فيقول له الطفل بصوت مرتجف:

- «هذا أنا، أنا سيد طاهر، لقد أخذت دجاجة من أجل جدتي».

- «آه، هذا أنت، حسناً، ظننت أنهم اللصوص».

ثم دخل، وأطبقت العتمة ثانية على الباحة، وركض جاك، بينما الدجاجة تقاوم بجنون، وقد صدمها بجدار الممر، وبقضبان درابزين الدرج، وهو يشعر بالوهن من القرف والخوف، ويحسّ

في راحته بملمس الجلد الخشن، والبارد، ذو القشور لقوائم الدجاجة، وركض بسرعة أكبر على صحن الدرج، وفي ممر المنزل، وبرز أخيراً في غرفة الطعام كالمنتصر، ظهر المنتصر بوضوح في المدخل أشعث، الشعر، وركبتاه ملوثتان باللون الأخضر لطحالب الباحة، ويمسك الدجاجة، وهو يبعدها قدر الإمكان عن جسده، ووجهه أصفر اللون من شدة الفزع.

قالت الجدّة، وهي توجه كلامها للأخ الأكبر:

- «هل رأيت ، إنَّهُ أصغر منك، لكنه يجعلك تشعر بالخجل..».

كان جاك ينتظر من أجل التباهي، وإرضاء الغرور أن تأتي الجدّة، وتأخذ بيدها الحازمة قوائم الدجاجة، التي هدأت فجأة، كما لو أ نها فهمت أنها قد وقعت منذ الآن في أيدٍ لا ترحم.

أما شقيقه فقد كان يأكل الحلوى دون أن ينظر إليه، إلاّ ليوجه إليه تكشيرة احتقار، كانت تزيد من رضى جاك، لكن هذا الرضى ، لم يَدُم طويلاً، فالجدّة التي أسعدها أن يكون لديها حفيد، مكتمل الرجولة، دعته كنوع من المكافأة إلى حضور ذبح الدجاجة في المطبخ، وقد لبست مئزراً أزرق اللون، وبيدها لازالت تمسك قائمتي الدجاجة، لقد وضعت على الأرض صحناً كبيراً مجوفاً من الصيني الأبيض، وتحمل سكين المطبخ الطويل، الذي يشحذه الخال إرنست بصورة

منتظمة، على حجر طويل أسود اللون، إلى درجة أنّ شفرته أصبحت ضيقة، وضامرة، بفعل تكرار الشحذ، وأصبحت تبدو كخيط لامع.

- «قف هناك».، وتوجه جاك إلى عمق المطبخ في المكان المشار إليه، بينما وقفت الجدّة في المدخل ، فسدّت طريق الخروج على الدجاجة، والطفل، كان ينظر وترتعد فرائضه إلى الحركات الدقيقة للمُضَحيّة ، بينما التصقت كليتاه بالمغسّلة ، وكتفه الأيسر بالحائط.

دفعت الجدّة بالصحن، تحت ضوء مصباح البترولي الصغير الموضوع فوق الطاولة الخشبية على يسار المدخل. مددت الطير على الأرض، وركبتاه اليمنى على الأرض، وكانت تُطبقُ على قائمتي الدجاجة، وتهرسها بيدها لتمنعها من الرفس ثم تلتقط بعد ذلك بيدها اليسرى الرأس، وتمطّهُ إلى فوق الصحن. ثم تمسك السكين الحاد مثل موسى الحلاقة، وتذبح ببطء في موضع يعادل لدى الإنسان مكان جوزة العنق، وتفتح الجرح، وهي تفتل الرأس في ذات الوقت، تدخل السكين بعمق أكبر إلى داخل الغضاريف محدثة صوتاً رهيباً، وهي تمسك الطائر بثبات ، وهو تجتاحهُ ارتجافات فظيعة، غير قادر على الحركة، بينما يسيل الدم القرمزي في الصحن الأبيض ، كان جاك ينظر

، وهو مرتخي الساقين، كما لو أنّ دمه هو بالذات يسيل ، إلى أن ينتهي تماماً، قالت الجدّة بعد طول زمن:

- «خذ الصحن»... لم يعد يسيل دم الطير، وضع جاك على الطاولة بحذر الصحن الذي أصبح الدم فيه غامق اللون، ورمت الجدّة قرب الصحن بالدجاجة ذات الريش الملطخ ، والعين ذات المظهر الزجاجي الذي نزل عليه جفن دائري مغضن.

كان جاك ينظر إلى الجسد الهامد، وإلى القائمتين ذات الأصابع اللتين جُمعتا، وكانتا تتدليان لا قوة فيهما، وإلى العُرف الكامد، والرخو، إنَّه الموت أخيراً، ثم ذهب إلى غرفة الطعام.

- «أنا لا أستطيع رؤية ذلك». قال له أخوه ذلك، وهو يستشيط غضباً، ثم أردف: - «هذا مقرف..».

قال جاك بصوت متردد: - «لكن لا..».

نظر إليه لويس نظرة عدائية ومستفسرة، فاستقام جاك، وانطوى على القلق الذي كان يجتاحه، وعلى الخوف المرعب الذي شعر به في العتمة، وأمام الموت المفزع، ووجد في الكبرياء، وفقط في الكبرياء، إرادة الشجاعة.

- «لقد ساورك الخوف، وهذا كل ما في الأمر »، قال جاك.

قالت الجدة التي دخلت: - «نعم، جاك، هو من سيذهب في المرات القا دمة إلى القن».

والخال إرنست طلق المحيّا يقول: - «حسناً، حسناً، عنده شجاعة.».

وكان جاك الجامد ينظر إلى والدته التي تجلس على بُعد ، وهي ترقع جورباً أدخلت فيه بيضة ضخمة من الخشب. ونظرت إليه، والدته قائلة:

- « نعم، هذا جيد، أنت شجاع».

ثم استدارت نحو الشارع، وكان جاك ينظر إليها بكلتي عينيه، وكان يشعر مجدداً بالشقاء يستقر في كيانه.

- «اذهب للنوم..». تقول له الجدّة.

ويبدّل جاك ثيابه في الغرفة، دون أن يشعل القنديل البترولي وعلى الضوء القادم من غرفة الطعام، وينام على طرف السرير المزدوج ، حتى لا يلمس أخيه، ولا يزعجه، ويغفو على الفور منهكاً من التعب والتأثر، يوقظه في بعض الأحيان شقيقه الذي يفشخ فوقه لينام إلى جانب الحائط لأنه ينهض متأخراً عنه، أو والدته التي تصطدم بالخزانة في الظلام، حيث تخلع ملابسها، وتصعد بخفة إلى سريرها، وتنام بسكينة ، يعتقد المرء أنها لا تزال صاحية، وجاك كان يعتقد ذلك أحياناً، وتعتريه رغبة في مناداتها، ولكنه يقول في داخله، إنَّها لن تسمعه على كل حال، ويجبر نفسه على البقاء مستيقظاً مثلها، وبسكينة مثلها أيضاً، وبلا أي حركة حتى لا يُحدث أية ضجة، إلى أن يداعب

النعاس جفونه، ويغلبه كما غلب والدته بعد يوم عمل شاق، قضته في الغسيل والأعمال المنزلية.

أيام الخميس والإجازة

يوما الخميس والأحد فقط يعود فيهما جاك وبيير إلى عالمهما عدا بعض أيام الخميس حيث يكون جاك فيها في الاحتجاز بمعنى أنَّه يتم التحفظ عليه، وينبغي (كما تشير بطاقة الإدارة العامة، التي وقعّها جاك من والدته بعد أن شرح لها ذلك بمعنى عقوبة)

ينبغي له أن يمضي ساعتين من الثامنة إلى العاشرة، (وفي أحيان أخرى أربعة ساعات في الحالات الأكثر خطورة)، في الثانوية، ويجري ذلك في قاعة خاصة، مع مذنبين آخرين، تحت إشراف معيد يكون بشكل عام غاضباً، لأنَّه تم اختياره في هذا اليوم. إنَّه عمل مضجر، وعقيم.

بيير لم يتعرض خلال ثماني سنوات، وهي فترة المدرسة الثانوية، لم يتعرض للاحتجاز أبداً، لكن جاك كثير الحركة، والمتغطرس أيضاً، حيث كان يدّعي الحماقة، والغباء حُبَّاً في الظهور تعرّض مراراً للاحتجاز.

ورغم أنَّه شرح لجدته أن تلك العقوبات كانت تخصّ السلوك لكنها، لم تميّز بين الغباء في الدراسة، وسوء السلوك. فالطالب الجيد بالنسبة لها هو الطالب الفاضل والعاقل، كما أن الفضيلة

كانت تقود بالضرورة إلى العلم مباشرة، وبذلك فقد كانت عقوبات الخميس تتزايد في السنوات الأولى من المرحلة الثانوية، وهي تقويم لأيام الأربعاء..

كانت أيام الخميس، التي لا تتضمن عقوبة ما، وأيام الأحد في الصباح مخصصة للتسوق، والأعمال المنزلية، أما بعد الظهر، فقد كان بيير وجاك يخرجان سوية، إن كان ذلك في الفصل الجميل، كان هنالك شاطئ الرمال، أو حقل المناورات، وهي أرض جرداء، تحتوي ملعباً لكرة القدم، تمت تسويته كيفما اتفق، بحيث ظهرت مسارات لاعبي الطّابة.

يمكن ممارسة كرة القدم غالباً بكُرةٍ من الخِرَق، إذ يتقاسم فريقان من الصبية، العرب والفرنسيين الملعب، ويتشكل الفريقان بصورة عفوية لكن بقية أيام السنة، كان الطفلان يذهبان إلى دار العجزة في القبّة، حيث والدة بيير التي تركت عملها في مصلحة البريد، وأصبحت مسؤولة عن قسم البياضات في الدار، القبّة، هو اسم هذبة تقع شرقي مدينة الجزائر في نهاية خط حافلة الترامواي، وفي الواقع، فإن المدينة تنتهي هناك، ويبدأ الريف الجميل للساحل بتلاله المتناغمة ومياهه الغزيرة نسبياً بسهوله الخضراء، وحقوله ذات التربة الحمراء التي تقطعها على مسافات متباعدة فواصل من أشجار السرو السامقة أو شجيرات الورود.

كان أشجار الكرمة، والفواكه ونباتات الذرة تنمو بكثافة ، دون كثير من الجهد، وبالنسبة للشخص القادم من المدينة ومن أحيائها الرطبة، والحارة، كان الهواء في هذه الأنحاء نشطاً زيادة عن اللزوم، ولكنه هواء صحي وملائم.

أما بالنسبة لسكان مدينة الجزائر، فما أن تتيسر أحوالهم قليلاً أو أن يزداد دخلهم حتى يَفِرّوا من صيف الجزائر إلى فرنسا الأكثر اعتدالاً، وكان يكفي أن يكون الهواء الذي يتنفسه المرء في مكان ما مائلاً إلى البرودة حتى يقال عنه «هواء فرنسا» كذلك كان الحال في كوبا يتنفس المرء هواء فرنسا.

كانت دار العجزة التي تم تأسيسها بعد الحرب بقليل، والمكرسة لنزلاء فقدوا أطرافهم، تقع على بعد خمس دقائق من نهاية خط الحافلة. لقد كان البناء هو عبارة عن معبد فسيح الأرجاء، وذي طراز معماري معقّد، وموزّع على أجنحة عدة، جدرانه سميكة، ومطلية بالكلس، أروقته مغطاة ، وقاعاته الواسعة معقودة بقناطر، وباردة وفيها المطاعم، والخدمات المتعددة. والمصبغة التي تشرف عليها مدام مارلون والدة بيير، كانت موجودة في إحدى تلك القاعات الكبيرة، وهناك، كانت تستقبل الطفلين في البداية، وسط رائحة المكاوي الحارّة، والغسيل الرطب إلى جانب امرأتين إحداهما عربية، والأخرى فرنسية، تعملان تحت إشرافها، كانت تعطي الطفلين

قطعة من الخبز والشوكولا، ثم ترفع أكمامها عن ذراعين جميلتين نضرتين، وقويتين قائلة: - «ضعا هذا في جيبكما، حتى الساعة الرابعة، واذهبا إلى الحديقة، لدي عمل». ويتوه الطفلان في البداية تحت الأروقة، وفي الباحات الداخلية، وفي غالب الأحيان، كانا يأكلان عصرونيتهما حالاً، كي يتخلّصا من الخبز الذي يربكهما، والشوكولا التي تسيح بين الأصابع، كانا يصادفان العجزة الذين فقدوا ذراعاً أو ساقاً أو الذين وضعوا على عربات فيها عجلات دراجة هوائية، ولم يكن بينهم من تحطم وجهه، أو فقد بصره، كان يوجد فقط أشخاص فقدوا أطرافهم، يرتدون ملابس نظيفة، وتزينهم الأوسمة غالباً، وكان كُمّ القميص أو السترة أو ساق السروال، مرفوعاً بعناية، ومشبوكاً بدبوس حول الجذعة[1] غير المرئية، ولم يكن ذلك مفزعاً، فهناك الكثير منهم، وبعد أن مرّت مفاجأة اليوم الأول، كان الولدان ينظران إليهم نظرتهما إلى كل شيء جديد يكتشفانه، ويضمّانه حالاً إلى نسق وترتيب الكون.

وقد شرحت لهما مدام مارلون أن أولئك الرجال ، قد فقدوا ذراعاً أو ساقاً في الحرب، الحرب هي جزء من عالمهما، ولا يسمعان حديثاً إلاّ عنها، وقد أثرت في كثير من الاور حولهما،

---

[1] ما تبقى من العضو المبتور..

ويفهمان دون عناء أنَّه يمكن أن يفقد المرء فيها ذراعاً أو ساقاً حتى إنَّه يمكن أن تُعرَّف على أنَّها مرحلة من الحياة يفقد فيها المرء ساقيه وذراعيه، لهذا السبب كان عالم جرحى الأطراف هذا ليس بائساً بالنسبة للطفلين.

بعض أولئك كانوا صامتين، وواجمين، هذا صحيح، لكن معظمهم كانوا شباناً بشوشي الوجه، وكانوا يمزحون بالرغم من عاهاتهم.

-«ليس لدي إلاَّ ساقاً واحدة». قال أحدهم، وهو أشقر الشعر، وجهه قوي، مربع الشكل، تملؤه الصحة، ويُرى غالباً، وهو يتسكع في المصبغة، - «ولكن يمكن أيضاً أن تتلقى ركلة من قدمي على مؤخرتك». كان يقول ذلك للطفلين، وهو يستند بيده اليمنى إلى عصاه، ويتكئ باليسرى على درابزين الرواق، ثم ينتصب ويطلق قدمه الوحيدة جهة الطفلين، فيضحكان معه، ثم يطلقان ساقيهما للريح، وبالنسبة لهما، فإنَّه من الطبيعي، أن يكونا الوحيدين القادرين على الركض، أو على استخدام كلتي ذراعيهما.

مرة واحدة فقط، حين التوت قدمه، وهو يلعب كرة القدم، واضطر لجرّها خلال عدة أيام، فكّر جاك بالعجزة الذين التقاهم يوم الخميس، فَهُمْ يعانون من ذلك طوال حياتهم، ولا يستطيعون الركض، والصعود إلى الحافلة، وهي تسير، أو

ركل الكرة، وقد صُدِمَ فجأةً بكل ما هو عجائبي في ميكانيكية الجسم البشري، وفي الوقت ذاته، اجتاحه قلق أعمى، عندما خطرت له فكرة، أنَّه قد يفقد هو أيضاً أحد أطرافه، ثم نسي تلك الفكرة.

كان الطفلان يسيران إلى جانب المطاعم ذات مغاليق النوافذ، نصف المغلقة، وطاولاتها المغطاة بالتوتياء، كانت تلمع لمعاناً خفيفاً في الظلّ، ثم يصلان إلى المطابخ، وفيها الأوعية الضخمة، والقدور المعدنية، والطناجر، ومن هناك كانت تفوح رائحة شياط عنيدة. وفي الجناح الأخير، كانا يلمحان حجرات، فيها سريران، أو ثلاثة، مغطاة بملاءات رمادية، وفيها خزانات حائطية من الخشب الأبيض، ثم ينزلان عبر درج خارجي إلى الحديقة، ويحيط بدار العجزة متنزه واسع هُجِرَ معظمه، وقد أُخذ بعض العجزة على عاتقهم مهمة العناية بما حول الدار، من شجيرات الورود، ومساكب الأزهار، دون نسيان حديقة الخضار الصغيرة المحاطة بسياج عالٍ من القصب الجاف، ولكن عدا ذلك فإنَّ المتنزه الذي كان رائعاً في الماضي قد أصبح أرضاً بوراً.

كان فيها أشجار كينا ضخمة، وشجر نخيل سامق، وأشجار جوز الهند، والمطاط، ذات الساق الضخمة، والتي تنزل أغصانها الواطئة، لتتجذر فيها على مبعدة من الساق الرئيسة، وتشكل

بذلك متاهة نباتية، مليئة بالظلال، والأسرار. وكان هناك أشجار السرو السميكة، والمتينة، وأشجار البرتقال، وباقة من أشجار الغار، ذات القامة المدهشة، بألوان زهرية، وبيضاء، تميل على ممرات محاها التراب المتراكم على حصاها. وقضمت منها نباتات السرنجة[1]، والياسمين، والظيّان[2]، وزهرة الآلام، وزهر العسل[3]، وهي شجيرات هوجمت بدورها على يد سجّادة من الزعرور، والحمّاض البري[4]، والأعشاب البرية.

إنَّ التنزه في هذا الدغل، ذي الرائحة الزكية، والزحف فيه، أو تلبيد الأنف بالعشب، واستصلاح الممرات المتشابكة بالسكين، والخروج منها بساقين مشطبين، والوجه قد نَدِي بالماء، لَهُوَ نشوة سكرى، لكن تحضير السموم المرعبة كان يشغل حيّزاً كبيراً من فترة بعد الظهر، فقد كدّس الطفلان تحت مقعد حجري عتيق متكئ إلى جزء من جدار يغطيه عنب بري، كدّسا أدواتهما من أنابيب الأسبيرين، وقوارير أدوية، أو محابر قديمة، وكِسَراً من أوانٍ، وفناجين محطّمة، كانت كل تلك الأدوات

---

1 سرنجة: جنس نباتات برية وتزيينية – «المترجم».

2 ظيّان، أو ياسمين البر: جنس نباتات معترشة للتزيين «المترجم»..

3 زهر العسل: جنس نبتة معترشة دائمة الخضرة للتزيين «المترجم»..

4 الحماض البري أو الأقصليس: جنس من النباتات تنتمي إلى الفصيلة الحماضية له 900 نوع «المترجم»..

تُشَكِّل مختبرهما، هناك، كانا غارقين في أكثر المواضع عُمقاً في المتنزه، نائيين عن الأنظار، يُحَضِّران مشروباتهما السحرية، كان المكوّن الأساسي فيها، هو الدفلى، لأنهما بكل بساطة، قد سمعا بأن ظِلَّه، كان ذا أثر سيئ، وشرير، وأن الشخص غير الحَذِر، الذي ينام تحتها ، لن يستيقظ أبداً. كانت أوراق الدفلى، وزهوره، تُسخَنُ بين حجرين مطولاً إلى أن يتشكل منها عصيدة سيئة (ضارة)، يكفي شكلها لتعريض المرء لموت رهيب.كانت تُترك تلك العصيدة في الهواء الطلق، حيث تكتسب في الحال بعض التَقَزُّح، في اللون المريع، وأثناء ذلك، يقوم أحد الطفلين إلى جلب الماء بسرعة في قنينة قديمة، ثم تُهرس أكواز السرو، بدورها. كان الطفلان على ثقة بقدرتهما على الإيذاء، لسبب غير مؤكد، وهو أن السرو كانت هي شجرة المقابر، ولكن يشترط جمع أكوازها من الشجرة، وليس تلك التي سقطت على الأرض، حيث أن تجفيفها يعطيها هيئة مزعجة، توحي بالصحة المتينة، والقوية، ويقومان بعدها بخلط العصيدتين في وعاء، ثم تمددان بالماء، وتصفيان في منديل قذر، والعصير النناتج عن ذلك، هو سائل أخضر، يوحي بالقلق، يتم التعامل معه بحذر بالغ، على يدي الطفلين، على أنَّهُ سمٌّ زُعاف، ويتم وضعه في أنابيب الأسبرين، أو في قوارير صيدلانية، تُسَدُّ ثانية خوفاً من لمس السائل. وما يتبقى من

سائل يمزج بعصائد متنوعة، يتم جمعها من مختلف أنحاء الخلجان، لتشكل مجموعة سموم متفاوتة الشدة، ويتم ترقيمها بعناية، وترتيبها تحت المقعد الحجري، إلى الأسبوع التالي حتى تكتمل عملية تخمير الإكسير، الذي يصبح وخيماً، وعندما يتم الانتهاء من هذا العمل الظلامي، كان جاك، وبيير يتأملان بإعجاب مجموعة القوارير المرعبة، ويستنشقان بتلذذ الرائحة التي تفوح من الحجر الملطخ بالعصيدة الخضراء، أما هذه السموم، فلم تكن موجهة ضد أحد، وكان الكيميائيان يخمنان أعداد الناس الذين يمكن أن تقتلهم، وأحياناً يدفعهما التفاؤل إلى افتراض أن الكمية التي حضراها تكفي لقتل سكان المدينة، ولم يفكرا مطلقاً أنَّ تلك العقاقير السحرية، يمكن أن تخلصهما من أحد الرفاق، أو أحد الأساتذة الممقوتين. ولكن الأيام التي تشتد فيها الرياح كانت هي أعظم الأيام، كانت إحدى جنبات الدار التي تطل على المتنزه، تنتهي بما كان - فيما مضى – شرفة يقبع حاجزها الحجري في العشب عند عتبة الدكّة الإسمنتية، المغطاة ببلاط أحمر اللون، ومن الشرفة التي تنفتح على الجهات الثلاثة، يمكن للمرء أن يشرف على المتنزه، وبعد المتنزه، كان هناك وادٍ يفصل هضبة كوبا عن أحد سهول الساحل، وكان اتجاه الشرفة في الأيام التي تهب فيها الريح من الشرق، وكانت عنيفة في مدينة

الجزائر، اتجاهاً يجعلها هدفاً لتلك الريح القوية، فكان الطفلان يجريان ناحية أولى أشجار النخيل حيث يجدان تحتها دوماً سعفاً جافة وطويلة، إذ يقومان بكشط قاعدتها، لينزعا أجزاءها الوَخِزَة، وكي يتمكنا من حملها بكليتي اليدين. ثم يجرّا السعفتين خلفهما، ويتجهان إلى الشرفة، والريح تضرب بعنف، وتصفر في أشجار الكينا العالي، التي تتمايل أغصانها بجنون، وتُشعِثُ أشجار النخيل، وتدعك بصوت يشبه دعك الورق الأوراق الواسعة لأشجار المطاط. كان ينبغي التسلق إلى الشرفة، ورفع السعف، والظَهْرُ في مضرب الريح، ويأخذ الطفلان سعف النخيل الجافة التي تَصِرُّ في أيديهما، ويحميانها جزئياً بجسديهما، ثم يستديران على حين غرّة، وفجأة تلتصق السعفة بهما، ويستنشقان رائحة الغبار، والقش منها، وتتضمن اللعبة، التقدم عكس اتجاه الريح، مع رفع السعفة باضطراد إلى الأعلى، والمنتصر هو من يستطيع في البداية الوصول إلى حافة الشرفة، دون أن تنزع الريح سعفته من يديه، ويبقى واقفاً وسعفته مرفوعة عالياً، وجسده مرتكز إلى ساق وضعها في الأمام، ويكافح بمرارة أطول زمن ممكن، ضد قوة الريح المنفلتة من عقالها.

هناك يقف منتصباً فوق ذلك المتنزه، وذلك السهل الذي يعج بالأشجار، وتحت السماء التي تعبرها غيوم ضخمة بسرعة

قصوى، كان جاك يحسّ بالريح القادمة من أقصى البلاد، تنزل على طول السعفة، وعلى طول ذراعيه، كي تعطيه قوة وبهجة، تدفعه إلى إطلاق صرخات طويلة بلا انقطاع ، حتى تُنهك ذراعاه، وظهره من الجهد، فيترك السعفة أخيراً، وتخطفها الريح بغتةً، وسط صرخاته. وفي المساء، ينام، وقد أنهكه التعب في سكون الغرفة، حيث تنام والدته بسكينةٍ، وكان لا يزال يسمع في كيانه هدير الريح الغاضبة، تلك الريح التي أحبها طوال حياته.

كان الخميس، هو اليوم الذي يتوجه فيه جاك وبيير أيضاً إلى المكتبة البلدية، وفي كل حين، كان جاك يلتهم الكتب التي تقع تحت يده، ويهضمها بنفس درجة الشراهة، التي يبديها إزاء الحياة، واللعب، والأحلام. وكانت المطالعة تسمح له بالتملص والذهاب إلى عالم بريء، حيث الثراء، والفقر، مهمان، لأنهما غير حقيقيين أبداً. إذ إن رواية «الباسل» و«ألبومات المجلات المصورة» التي يتداولها هو ورفاقه فيما بينهم إلى أن يتقشر غلافها الكرتوني، وتُطوى أو تتمزق صفحاتها الداخلية، كانت تأخذه إلى عوالم كوميدية أو بطولية تروي بداخله نوعين أساسيين من العطش، وهما الرغبة في الفرح، وفي الشجاعة، كان تذوق البطولة، والحماسة قوياً دون شك، لدى الصبيين، إن حكمنا على ذلك ، من خلال كمية الروايات التي

يقرأانها، والتي تتحدث عن الفروسية، ومن خلال سهولة مزج شخصيات رواية «باردايان» أو «الفرسان الثلاثة» بحياتهما اليومية.

كان «ميشيل زيفاكو»، هو الكاتب المفضل لديهما، وكل مايدور حول النهضة الإيطالية بالتحديد، التي تتسم رواياتها باللجوء إلى القتل باستخدام خنجر أو سم زعاف داخل القصور الرومانية والفلورنسية، وكانت الموائد الملكية أو البابوية هي الموضوع الأثير لدى هذين الأرستقراطيين، اللذين يُشاهدان أحياناً في الشارع الأصفر المغبّر، حيث يسكن بيير، وهما يُطلقان نداء المبارزة ، ويَسْتَلاّ مسطرتيهما الطويلتين الملونتين، ويتبارزان بين اكوام القمامة، وكانت آثار تلك المبارزات تبقى على أصابعهما فترة من الزمن[1].

ولم يكن في الإمكان في ذلك الوقت الوقوع على كتب أخرى، لأنَّ القليل من الناس كانوا يقرؤون في هذا الحي، وهما لا يستطيعان بأنفسهم شراء الكتب، إلاَّ الشعبية منها الموجودة في دكان تاجر الكتب، وعلى فترات متباعدة.

---

[1] كانا يتنازعان في الحقيقة،على من سيلعب دور دارتانيان، أو باسبوال، ولا أحد منهما يرضى أن يكون أراميس، أو آتوس، أو بورتوس عند الاقتضاء..

ولكن، عندما دخلا إلى الثانوية في تلك الفترة نفسها تقريباً، أنشئت المكتبة البلدية في الحي، عند منتصف الطريق، حيث سكن جاك، والمرتفعات الأكثر فخامة المتميزة بالفيلات المحاطة بحدائق صغيرة، تملؤها نباتات عطرة، تنمو بكثافة على المنحدرات الرطبة، والحارة في مدينة الجزائر.

وكانت تلك الفيلات تحيط بحديقة نُزُلِ سانت أوديل، وهي مدرسة داخلية دينية، لا يُستقبل فيها إلاَّ الفتيات. في ذلك الحي القريب، والبعيد عن سكنهما ، اختبر جاك وبيير أعنف العواطف(ولم يأتِ الوقت بعد للتحدث عنها). إنَّ الحدود بين العالمين (أحدهما مُغْبَرٌ، ودون أشجار، والمكان كان مخصصاً للسكان والحجارة التي تؤويهم، والآخر حيث الورود والأشجار، تحمل الترف الحقيقي لهذا العالم). تلك الحدود تتمثل بشارع عريض، زُرعت على رصيفيه الاثنين أشجار الدُلب، وفي أحد جانبيه، كانت تنتصب الفيلات، وفي الجانب الآخر، مبانٍ رخيصة الثمن، أما المكتبة البلدية ، فكانت في ذلك المكان.

كانت المكتبة تفتح أبوابها ثلاث مرات في الأسبوع، ومن ضمنها يوم الخميس مساءً، بعد المدرسة، في يوم الخميس صباحاً، كانت معلمة فيزياء شابة، ودميمة بعض الشيء، تخصص بضع ساعات مجانية، من وقتها، لهذه المكتبة، وكانت تجلس إلى واسعة من الخشب الأبيض، وتهتم بمسألة

إعارة الكتب. كانت القاعة التي تجلس فيها مربعة وجدرانها مغطاة بالرفوف الخشبية البيضاء، وبالكتب المجلدة بكتّان أسود، وكان يوجد طاولة وبعض الكراسي حولها للذين يريدون استعارة قاموس، والنظر فيه سريعاً، قبل إعادته، لأنَّ المكتبة كانت للإعارة فقط، وكان هناك جدول أبجدي، لم يُعرهُ جاك أو بيير أي اهتمام أبداً، وأسلوبهما كان هو التجول أمام رفوف المكتبة، واختيار كتابٍ ما لفت عنوانه نظرهما، وليس الكاتب ، ويكتبان رقمه على البطاقة الزرقاء، التي يستطيعان من خلالها طلب الكتاب. ومن أجل أن يكون من حق المرء الاستعارة، كان يجب جلب وصل الإعارة مع دفع رسم بسيط للغاية. عندها يتلقى المرء بطاقة مطوية، تدون فيها أسماء الكتب المعارة ويتم تدوينها كذلك على سجل تديره المعلمة الشابة.

كانت المكتبة تضم كتباً في غالبيتها روايات، لكن الكثير منها كان ممنوع على من هم في سن أقل من خمس عشرة سنة، وتلك الروايات، كانت موضوعة على حِدَة.

أما طريقة الطفلين في الاستعارة، فقد كانت فطرية، ولا ترقى إلى كونها اختبار حقيقي. ولكن الصدفة ليست هي الأمر، الأسوأ فيما يخص الأمور المتعلقة بالثقافة، فالطفلان الشرهان ، كانا يلتهمان كيفما اتفق الغثّ والسمين منها، دون الاهتمام

بحفظ أي شيء، وهما في الواقع لا يحفظان شيئاً تقريباً، إلاّ ما اجتاح كيانهما من عواطف قوية وغريبة، كانت في داخلهما، وعلى مرّ الأسابيع والأيام والسنين، عالماً من الصور والذكريات في عالم الواقع، الذي يعيشان فيه كل يوم، ولكن بالتأكيد كانت ليست أقل حضوراً في ذهن هذين الطفلين المتحمسين اللذين يعيشان أحلامهما بعنف، يوازي حياتهما الواقعية، وما تحويه الكتب في أعماقها، ليس أمراً مهماً، المهم هو ما يشعران به أولاً عند الدخول إلى المكتبة، حيث لم يَرَيَا حيطان الكتب السوداء، ولكن مساحات وآفاق رحيبة انتشلتهما لدى خطوتهما الأولى على العتبة، من حياة الحي الضيقة، ثم جاءت لحظة خروجهما يحمل كل منهما كتابين لهما الحق بهما، ويضغطان عليهما بمرفقيهما، وينزلقان إلى الشارع المظلم في ذلك الوقت، ويدوسان بأقدامهما على كرات الدلب، متكهنان بالملذات التي يمكن أن تحملها لهما هذه الكتب، بالمقارنة مع تلك التي كانت في الأسبوع السابق. إلى أن يصلا إلى الشارع الرئيسي، ويبدأان بفتح الكتب تحت الضوء الشحيح لأول مصباح شارع ليلتقطا منها عبارة «كان في قوة غير اعتيادية»، وعلى سبيل المثال، وهو الأمر الذي يرسخ ويؤكد أملهما الممتع والطموح.

يم ينفصلان على عجل، ويتجه فوراً إلى غرفة الطعام، ليضع الكتاب على الغطاء المشمع تحت ضوء القنديل، كانت رائحة

الصمغ تفوح من غلاف الكتاب الخشن، الذي يخدش الأصابع أيضاً.

إنَّ طريقة طباعة الكتاب تنبئ القارئ مسبقاً عن المتعة التي سيجدها في قراءة الكتاب. جاك وبيير لا يحبّان المؤلفات ذات الحجم الكبير، والهوامش الواسعة، حيث يُسَرَّ الكاتب ، والقراء بتلك الدقة، ولكنهما يحبّان الصفحات الملأى بالأحرف الصغيرة، ويركضان بنظرهما على طول الأسطر المليئة حتى الثمالة بالكلمات، والجُمل، مثل تلك الوجبات المُنَفِرَة التي يأكلها المرء كثيراً ، دون أن يتمكن من إنهائها، وهي وحدها يمكن أن تخفف من الشهية المفرطة. لم يكونا على علم بأي شيء، لكنهما يريدان معرفة كل شيء. ولا يهم، إن كان الكتاب قد كُتِبَ بطريقة سيئة، وصِيْغَ بخشونة، المهم فقط، أن يكون مكتوباً بلغة واضحة، ومليئة بالأحداث العنيفة، هذه الكتب ، هي وحدها التي أعطتهما مادة الأحلام التي يستطيعان بعدها الخلود إلى نوم عميق.

بالإضافة إلى ذلك، كان لكل كتاب رائحته الخاصة، حسب نوع الورق المستخدم للطباعة رائحة خفية، ورقيقة، وفق كل حالة، ولكنها مميزة للغاية، لدرجة أنَّ جاك يستطيع التمييز

مغمض العينين بين كتاب من مجموعة نيلسون[1] ، من كتاب آخر من الكتب الدارجة التي تنشرها فاسكل[2]. وكل رائحة من تلك الروائح، وقبل أن يشرع بالقراءة، كانت تسعد جاك، وتنقله إلى عالم آخر مليء بالوعود التي تُلبى حيث يكتسح الظلام الغرفة التي يجلس فيها ، ويُمحى الحي وضجيجه والمدينة والعالم كاملاً ، يختفي فور البدء بشراهة مجنونة وحماسية في القراءة التي تصل إلى حد إلقاء الطفل في حالة من النشوة والسكر، بحيث لم يكن تصله الأوامر المتكررة أو تنزعه من حالته.

- «جاك ضع المائدة، أقولها للمرة الثالثة»... ويضع المائدة أخيراً ، ونظرته زائغة، لا لون فيها ، وفارغة كما لو أنَّه أُصيب بالتسمم من القراءة ، ثم يستعيد كتابه، كما لو أنُّه لم يتركه أبداً - «جاك، هيَّا كُلْ».، وكان يأكل غذاءً، على الرغم من كثافته، يبدو له أقلّ واقعية ، وتماسكاً من الغذاء الذي يجده في الكتب، ثم يرفع المائدة، ويأخذ الكتاب. وفي بعض الأحيان، تقترب منه والدته ، قبل أن تتوجه إلى زاويتها - «إنّها

---

[1] دار نشر نيلسون: يعود تأسيسها للسنوات الأولى من القرن العشـــرين في باريس.

[2] فاسكل: دار نشر فـــي باريس، أسست عام 1896.

المكتبة». كانت تقول ذلك، وتلفظ بشكل سيئ حروف الكلمة، التي تسمعها على لسان طفلها، وهي لم تكن تعني لها شيئاً. لكنها تعرف الكتاب من غلافه، ويجيب جاك - «نعم». دون أن يرفع رأسه، وتنحني كاترين كورمري من فوق كتفه، وتنظر إلى المستطيل المزدوج تحت الضوء، وإلى الصفوف المنتظمة للأسطر، وهي أيضاً تشمّ الرائحة، وتمرر أحياناً أصابعها على الصفحة، أصابعها المتخدرة، والمغضنة من ماء الغسيل، كما لو أنَّها تحاول أن تعرف بصورة أفضل، ماذا يعني الكتاب، وأن تقترب أكثر من تلك الإشارات الغامضة وغير المفهومة بالنسبة لها، ولكن يجد فيها ولدها على الغالب، وخلال ساعات طوال حياة يجهلها، ويعود منها بتلك النظرة التي يوجهها ناحيتها، كما لو أنَّه ينظر إلى شخص غريب. اليد المشوهة تداعب بلطف رأس الصبي، الذي لا يتأثر، فتتنهد، ثم تذهب للجلوس بعيداً عنه..

- «جاك، اذهب إلى النوم». كانت الجدة تكرر الأمر - «ستتأخر غداً»... وينهض جاك، ويجهز محفظته من أجل دروس اليوم التالي، دون أن يترك كتابه، الذي وضعه تحت إبطه، ثم ينام بعمق، مثل رجل سكير بعد أن يدس الكتاب تحت وسادته. وهكذا، فخلال سنوات عديدة، انشطرت حياة جاك بصورة غير متساوية، بين قسمين، لم يستطع أن يربطهما ببعضهما،

حياة خلال اثنتي عشر ساعة مع ضربة الطبل في مجتمع التلاميذ والأساتذة بين الألعاب والدراسة وحياة ليلية مدتها ساعتين أو ثلاثة في منزله.

وفي الحي العتيق، وبالقرب من والدته التي لا يلتقيها في الحقيقة إلاَّ في حالات الأرق، ورغم أن الجزء الأقدم من حياته، كانت في هذا الحي القديم، لكن حياته الحالية ومستقبله أيضاً، كانا في الثانوية لدرجة أنَّ الحي يختلط على المدى الطويل، بطريقة ما ، بذكريات المساء، والنوم، والحلم. هل كان هذا الحي موجوداً؟! ألم يكن تلك الصحراء التي أصبحت ذات مساء بالنسبة للطفل هو عقله الباطن؟!..

على كل حال، لم يستطع أ ن يتحدث إلى أي شخص في الثانوية عن أمه وعائلته، أما في عائلته فلم يستطع أن يتحدث إلى أحد فيها عن الثانوية، لا أحد من الرفاق أو الأساتذة أتى إليه خلال كل السنوات التي تفصله عن الشهادة الثانوية.

وبالنسبة لأمه، أو جدته، فلم تأتيا إلى الثانوية أبداً إلاَّ مرة واحدة، في حفل تسليم الجوائز في بداية شهر تموز.

في ذلك اليوم، دخلتا إلى الثانوية حقاً من الباب الكبير، وسط جمهرة من الأهالي والطلاب الذين ارتدوا أجمل ملابسهم.

كانت الجدّة ترتدي الفستان والوشاح الأسود المخصصين للمناسبات الكبرى، أما كاترين كورمري فقد ارتدت قبعة

مزينة بالتول[1] البني، والعنب الشمعي، الأسود اللون، وفستاناً صيفياً بني اللون، وكذلك زوج من الأحذية، ذي الكعب المتوسط، كانت تمتلكه، أما جاك، فقد ارتدى قميصاً أبيضَ ذا ياقة، وأكمام قصيرة، وسروالاً تمَّ كيّه بعناية، في الليلة الماضية، على يد والدته، كان يمشي بين المرأتين، ويقودهما بنفسه إلى حافلة الترامواي الحمراء في الساعة الواحدة، بعد الظهر ثم يجلسهما في مقعد صغير داخل القاطرة، وينتصب واقفاً في مقدمة الحافلة، وهو ينظر عبر الواجهة الزجاجية إلى والدته التي تبتسم له بين الفينة والأخرى، وهي تدقق طوال الطريق في موضع قبعتها، وحسن ارتداء جواربها، أو تتأكد من مكان الميدالية الذهبية التي تمثل السيدة العذراء، والتي ترتديها في سلسلة صغيرة.

وفي ساحة الحكومة، بدأت الرحلة اليومية، التي كان يقوم بها الطفل مرة واحدة في السنة، مع المرأتين على طول طريق باب عزون، كان جاك يستنشق رائحة ماء كولونيا لامبيرو الذي تتعطر والدته به كثيراً في المناسبات.

---

[1] تول: قماش رقيق شفاف من القطن، أو الصوف منسوب إلى قرية تول في فرنسا – المترجم.

كانت الجدّة تمشي بثبات واعتزاز، وهي توبخ ابنتها، عندما تشتكي تلك الاخيرة من قدميها : - «سوف تأخذين درساً ، ألاّ تأخذي أحذية ضيقة جداً، لا تناسبك، وأنت في هذه السّن».
بينما كان جاك يدلهما بلا كلل على المتاجر والتجار الذين شغلوا حيّزاً كبيراً في حياته.

كان باب التشريفات مفتوحاً في الثانوية، وكانت أصص النباتات تزين الدرج الضخم من الأعلى، إلى الأسفل، حيث بدأ الأهالي بالصعود إليه بسرعة.

كانت عائلة كورمري في مقدمة الناس طبعاً، كما هي العادة دائماً، فالفقراء الذين ليس لديهم الكثير من الالتزامات الاجتماعية والمتع، يخشون ألاّ يكونوا بالغي الدقة في الوفاء بها.
وصلوا إلى باحة الكبار التي تغطيها صفوف من الكراسي المستأجرة من مؤسسة الحفلات العامة، والحفلات الموسيقية، بينما كان يوجد في صدر القاعة، تحت ساعة الحائط الكبيرة، منصّة، تسدّ القاعة عرضياً، مقاعد مريحة، وكراسٍ تزينها ، هي أيضاً، نباتات خضراء مبالغ في عددها.
وتمتلئ القاعة رويداً رويداً بمظاهر، وزينات نسائية فقد كانت النسوة يشكلن النسبة الأكبر من الحضور.

كان القادمون الأوائل يختارون أماكنهم تحت الأشجار بعيداً عن الشمس، والآخرون يلوحون بمراوح عربية من القش الناعم المجدول الذي تزين أطرافه خيوط صوفية حمراء..

كانت زرقة السماء، فوق الحضور تزداد كثافتها ، وتزداد تدريجياً حدّة الحرارة. وفي الثانية بدأت الأوركسترا العسكرية التي لا تُرَى في الرواق الأعلى، تعزف النشيد الوطني، فوقف الحضور جميعاً، وبدأ الأساتذة الذين يرتدون قبعات مربعة ، وأثواباً طويلة ، يتغير لون قماش الإيتامين[1] فيها حسب نوعها، بدأوا يدخلون، وعلى رأسهم الناظر، وشخصية رسمية (وهو على العموم موظف رفيع المستوى في الحكومة العامة)، وكان حضوره هو سخرة في تلك السنة. ورافقت موسيقا عسكرية عملية جلوس الأساتذة في أماكنهم، وعلى الفور، بدأت الشخصية الرسمية خطاباً أعطت فيه وجهة نظرها في فرنسا عموماً، والعملية التربوية على وجه الخصوص، كانت كاترين كورمري تصغي دون أن تسمع لكن دون إظهار نفاذ صبرها، أو مللها. أما الجدّة فقد كانت تسمع دون أن تفهم، وتقول لابنتها:

- «إنّهُ متكلم جيد». وتوافق الابنة بهيئتها المستغرقة على ذلك، مما كان يشجع الجدّة على النظر إلى جارها، أو جارتها على

---

[1] إيتامين: نوع من القماش الرقيق.

يسارها، وتبتسم لهم، مؤكدة بهزّة من رأسها، على الحكم الذي أطلقته لتوها.

في الحفلة الأولى، لاحظ جاك أن جدّته كانت الوحيدة التي ترتدي الوشاح الأسود الذي ترتديه عادة العجائز الإسبانيات، وكان ينزعج من ذلك. والحق يقال: إنَّ ذلك الانزعاج الزائف لم يتركه مطلقاً فقرر ببساطة أنه لا يستطيع شيئاً حياله، حين حاول بخجل، أن يتحدث عن قبعة على رأس جدته، فأجابته إنها لا تملك نقوداً لتضيّعها، وأنَّ الوشاح يدفئ أذنيها.

ولكن حين تدير جدته وجهها ناحية جيرانها في جلسة توزيع الجوائز، تلك كانت يعتريه خجل مقيت، ويحمر خجلاً.

وبعد كلمة الشخصية الرسمية ، نهض أصغر الأساتذة سناً، والذي قَدِمَ تلك السنة من العاصمة، وكان مُكَلَّفاً تقليدياً بإلقاء الخطاب الاحتفالي، ومدة الخطاب هي نصف ساعة إلى ساعة، لكن لم يَفُتِ الشاب الجامعي حشوه بالتلميحات الثقافية، واللطف الإنساني مما جعله واضحاً إزاء الجمهور الجزائري.

كانت الحرارة تساعد على قلّة الانتباه، حيث بدأت مراوح اليد تهزّ بوتيرة أسرع. حتى إنَّ الجدّة أظهرت مدى مللها ، وهي تنظر في اتجاه آخر. كانت كاترين كورمري هي الوحيدة المنتبهة،

فكانت تتلقف دون أن يرّف لها جفن سيلاً من التبحُّرِ والحكمة ، يُصبُّ عليها دون انقطاع.

أما بالنسبة لجاك، فقد كان يضرب الأرض بقدمه، ويبحث بنظره عن بيير، وبقية الرفاق، وينبههم بإشارات خفيّة، ويبدأ معهم حديثاً طويلاً من الإشارات، وتكشيرات الوجه. وعمَّ التصفيق الحاد لشكر الخطيب أخيراً، على ختام خطابه، ثم بدأ استدعاء المكرمين، وبوشر بالصفوف العليا وفي السنوات الأولى، ومضت فترة مابعد الظهر كاملة، بالنسبة للمرأتين، في انتظار دور صف جاك، وهما تجلسان على كرسيهما.

كانت جوائز الامتياز تترافق، وحدها بتحية موسيقية، تقوم بها الفرقة الموسيقية الخفية. والفائزون الذين أصبحوا أصغر عمراً، ينهضون ويشغلون الباحة، ثم يصعدون إلى المنصة، ويصافحون الشخصية الرسمية مع رشّة من الكلمات الطيبة، ثم الناظر الذي يوزع لهم رزمة من الكتب(بعد تلقيها من يد آذن صعد قبله إلى المنصة، حيث وضعت صناديق متحركة مليئة بالكتب)، ثم ينزل االمكرمون على وقع الموسيقا،ووسط تصفيق الحضور، وهم يبحثون بالنظر عن أهاليهم، وكتبهم بأيديهم. أما الأهالي السعداء فيمسحون الدموع.

أصبحت السماء زرقتها أقل، وفقدت قليلاً من حرارتها في شِقٍّ لا يُرى في مكان ما فوق البحر. ثم تتابع عزف الموسيقا العسكرية.

كان الفائزون يصعدون ، ثم ينزلون، وتتتابع المعزوفات، ويتضاءل الحضور في الباحة، بينما بدأ لون السماء يميل إلى اللون الأخضر، وأخيراً، جاء دور صف جاك.

وما أن أُعْلِنَ عن اسم صفة حتى توقف جاك عن شقاوته الصبيانية، وأصبح جدّياً. وعندما نودي باسمه نهض، وكان فكره مشوشاً، ومن خلفه سمع والدته بالكاد تقول لجدته، فهي لم تسمع اسمه:

- «هل قال كورمري؟».

- «نعم، ».أجابت الجدة، وقد تورد خدّاها من الانفعال.

وسارت الأمور بسرعة كبيرة بعد فترة مابعد الظهر التي وجدها طويلة للغاية، المسافة التي اجتازها على الإسمنت والمنصة، وصدرية الشخصية الرسمية بسلسلة الساعة، والابتسامة الطيبة للناظر، وأحياناً النظرات الودية لأحد أساتذته مع جمهور الباحة ثم العودة على أنغام الموسيقى نحو المرأتين الواقفتين في الممر، وأمه التي تنظر إليه بفرح، ودهشة، فيعطيها قائمة الجوائز التي تسلمها، لتحفظها له، وجدّته التي تجيل الطرف إلى جيرانها، حتى يشهدوا على الموقف، جرى كل شيء بسرعة، وكان جاك

متشوقاً للعودة سريعاً إلى البيت، حتى يتعرف إلى الكتب التي أعطيت له[1].

وعاد الجميع برفقة بيير ووالدته، وكانت الجدّة تقارن بنظرها، وهي صامتة، رزمتي الكتب.

وفي البيت، أخذ جاك أولاً قائمة الجائز، وبدأ بِطَيْ أطراف الصفحات التي تتضمن اسمه، بناءً على طلب جدّته، وحتى تتمكن من عَرْضِها أمام الجيران، وبقية العائلة، ثم قام بفهرسة كنوزه، ولم يكن قد أنهى عمله حين رأى والدته تعود، وقد غيّرت ثيابها، وتنتعل الخف المنزلي ، وتزرر قميصها، وتسحب الكرسي نحو النافذة. ابتسمت له.

- «لقد أبليت بلاءً حسناً»، وهزت رأسها، وهي تنظر إليه.

أما هو، فقد نظر إليها، وكان ينتظر، ولا يعرف ، ما الذي ينتظره، أما هي، فقد استدارت نحو الشارع في وضعيتها المألوفة، وهي الآن بعيدة عن الثانوية التي لن تراها قبل مرور عام، بينما اجتاحت العتمة الحجرة، وبدأت أولى مصابيح الشارع، تضيئ الطريق الذي لم يعد يسير فيه إلاَّ بعض المارّة الذين غابت ملامحهم.

---

[1] عُمّال البحر .

وفي حين أنَّ أمه غادرت إلى الأبد هذه الثانوية التي لمحتها بالكاد، فإنَّ جاك عاد دون جهد إلى عائلته، وحيه، الذين لن يخرج منه، وكانت الإجازات الصيفية، تعود بجاك إلى عائلته على الأقل في السنوات الأولى. لا أحد من العائلة لديه عطلة، فالناس يعملون بلا انقطاع على مدار العام. وكان الحادث العَرَضي في العمل، يعطيهم فرصة، فيمضون إجازتهم في المشفى، أو عند الطبيب، عندما يتم استخدامهم في مؤسسات تؤمن عليهم ضد هذا النوع من المخاطر. وعلى سبيل المثال، فعندما يشعر الخال إرنست بالإنهاك في عمله «ولأنَّهُ مؤمن عليه». كما يقول، يقوم طوعاً باستخدام المسحج، ويزيل رقاقة لحمٍ من كفّه.

أما النساء، ومنهم «كاترين كورمري».، فيعملن دون ت وقف، لسبب وجيه، وهو أن الاستراحة تعني بالنسبة للجميع، تناول وجبات خفيفة أكثر، وكانت البطالة الغير مؤمَّن ضدها، هي الشر المستطير.

وهذا ما يشرح أن هؤلاء العمال لدى عائلة بيير، مثلما لدى عائلة جاك، الذين كانوا في حياتهم الاعتيادية شديدي التسامح، يصبحون دوماً كارهين للأجانب، عندما يتعلق الأمر بمسألة العمل، ويتّهمون الإيطاليين والإسبان واليهود والعرب والارض قاطبة ، بسرقة العمل منهم. إنَّهُ موقف محيّر بالتأكيد، بنظر

المفكرين والمثقفين، الذين يعملون على نظرية البروليتاريا الإنسانية والمتسامحة. ليس السيطرة على العالم، أو المكاسب المادية، واللهو هو ما يتنازعه هؤلاء القوميون، غير المتوقعين مع القوميات الأخرى، بل ماغ يتنازعون عليه، معهم هو العبودية، فالعلم في هذا الحي، ليس ميزة بل إنَّهُ ضرورة تقود إلى الموت، ولكن من أجل إعالة العائلة.

وعلى كل حال، فإنَّ الصيف شديد القسوة في الجزائر، ففي حين كانت السفن المحمّلة للغاية تأخذ الموظفين والميسورين باتجاه «هواء فرنسا»، (وأولئك العائدون منها، يعودون بذكريات رائعة، ومدهشة عن الحقول النضرة، حيث يجري الماء فيها حتى في شهر آب)، كانت الأحياء الفقيرة لا تغيّر حياتها أبداً، ولا يخلو نصف سكانها منها، كما يحدث في أحياء مركز المدينة، وتبدو على العكس من ذلك، حيث يزداد العدد فيها، بسبب وجود أعداد كبيرة من الأطفال في شوارعها. بالنسبة لبيير وجاك، التائهان في الشوارع المغبّرة، ويرتديان أحذية قماشية مثقبة، وسروالاً قصيراً غير ملائم. وكنزة من القطن، ياقتها مدورة، كانت الإجازة تعني أولاً الحرارة.

كانت آخر مرة هطل فيها المطر تعود إلى شهر نيسان، أو أيار، ومع مرور الأسابيع، والأشهر، كانت الشمس التي تزداد ثباتاً وتشع حرارة باضطراد، كانت قد جففت ويبّست وحمّصت

الجدران، وسحقت الطلاء والحجر والقرميد، وجعلته غباراً ناعماً كان يغطي على مزاج الريح، الشوارع، وواجهات المتاجر، وأوراق الشجر.

ويصبح الحي بأكمله في شهر تموز، مثل متاهة رمادية موحشة، وخالياً في النهار، وكانت تُقْفَل فتحات تهوية المنازل جميعها بعناية، والشمس تضربها بقوة، مما يجعل «الكلاب والقطط» تتمدد على عتبات المنازل، وتجبر الكائنات الحيّة على التلطّي بمحاذاة الجدران خوفاً من سطوتها. في شهر آب، تختفي الشمس خلف نسالة من خيوط كثيفة في سماء رمادية بتأثير الحرارة، ويزداد تأثير الرطوبة، وينزل من السماء نور شعشاع ضارب إلى اللون الأبيض، يتعب العين، وتنطفئ في الشوارع آثار الألوان، أما في ورشات تصنيع البراميل، تَرِنّ ضربات المطارق بخمول أكثر، ويتوقف العمال أحياناً ليضعا رؤوسهم وجسدهم الذي يغطيه العرق تحت دفقة ماء بارد، تطلقه المضخة. وفي البيوت، كان يتم لف القماش المبلل على زجاجات الماء والنبيذ الذي أصبح وجوده نادراً.

كانت جدّة جاك تدور في أنحاء الغرف العاتمة حافية القدمين، وترتدي قميصاً خفيفاً وتحركآلياً مروحتها اليدوية المصنوعة من القش، وتعمل في الصباح وتسحب جاك إلى السرير لقضاء القيلولة، وتنتظر برودة المساء لتعود إلى العمل. وكانت أحاديث

الصيف، ومواضيعه دائمة التداول، خلال أسابيع، تحت السماء الثقيلة، والرطبة، وشديدة الحرارة، إلى أن تنسى ويتحدث الناس عن ذكريات الأيام الرطبة، وعن أمطار الشتاء، وكأن الناس لم يعرفوا قبلاً الرياح والثلج، ولا الأمطار الخفيفة، وكأنَّه منذ أن خُلق العالم، إلى هذا اليوم من شهر أيلول لم يكن هناك إلاَّ مملكة الجماد الضخمة هذه والتي تتخللها الأروقة شديدة الحرارة، حيث تنشط بهدوء، وبنظرتها الثابتة وهيئتها المرعوبة كائنات وقد غطَّاها الغبار والعرق.

وحين بغتة، تنشق السماء المنطوية على نفسها، وتهطل أمطار أيلول الأولى عنيفة وغزيرة، وتُغرق شوارع المدينة. وتبدأ شوارع الحي تلمع، ومثلها أوراق التين، وأسلاك الكهرباء، وسكة الترامواي، وفوق الهضاب المشرفة على المدينة تتضوع رائحة التراب المبلل القادمة من الحقول البعيدة، وتحمل رسالة إلى سجناء الصيف، تتضمن الفضاء والحرية ، فيرتمي الأطفال في الشوارع، ويركضون تحت المطر بثيابهم الخفيفة، ويتعثرون وهم سعداء، بجداول الماء، التي تقرقر في الشارع، ويشكلون حلقات وقوفاً في نُقَعِ الماء، ممسكين بأكتاف بعضهم البعض، ووجوههم المليئة بالضحك، والصراخ، تتجه إلى الأعلى باتجاه المطر الذي لا يتوقف، ويضربون أقدامهم بالأرض على إيقاع

القطاف الجديد لينبثق من تحتها ماء عكر لكنه يُسْكِرُ أكثر من الخمر.

نعم، لقد كانت الحرارة رهيبة، وغالباً ما تجعل الناس يصابون بالجنون، ويصبحون أشد عصبية مع مرور الأيام، تخور قواهم، ويصرخون، ويشتمون، أو يضربون. وتتفاقم الحالة العصبية مثل الحرارة نفسها، حتى تنفجر هنا أو هناك، كما حصل في ذلك الحي الموحش، والحزين، ذلك اليوم، في شارع ليون، المسمى «المرابط»، حول المقبرة الواقعة في الهضبة، ذات التراب الأحمر الصلصالي.

حين رأى جاك رجلاً يخرج من الدكان المليء بالغبار ، الذي شغله حلّاق مغربي، كان الرجل يرتدي لباساً أزرق اللون، ذو رأس حليق، ثم خطا خطوات عدة على الرصيف، أمام الصبي، في وضعية غريبة، كان جسده منحنياً إلى الأمام، والرأس منكفئ إلى الخلف، بصورة غريبة، وغير معقولة، وفي الواقع، كان الأمر فعلاً غير ممكن، فالحلّاق الذي استشاط ، وأصبح في حالة جنون، وهو يحلق للزبون، قطع - وبضربة واحدة من موسى الحلاقة الطويل - حنجرته، وهذا الأخير، لم يحس بأيِّ شيء من وقع الشفرة الحادة، لكن الدم خنقه، فخرج مسرعاً، راكضاً، مثل بطة لم تذبح جيداً، بينما كان الحلاق الذي

سيطر الزبائن عليه، يصيح صيحات مرعبة، مثلما تفعل الحرارة نفسها، خلال تلك الأيام الطويلة.

جاء الماء مدراراً من السماء، وكان يغسل بعنف الأشجار وأسطح المنازل، والجدران، والشوارع، من غبار الصيف.

كان الماء عكراً، وملأ الجداول سريعاً، وقرقر بعنف عند فتحات التصريف، وكانت تلك تفيض كل سنة تقريباً وتملأ الشوارع، وتتبع أمام السيارات والحافلات، وترتسم مثل جناحين صفراوين واسعين، والبحر نفسه، أصبح عكراً، على الشاطئ، وفي الميناء، وكانت أشعة الشمس الأولى، تجعل البخار يتصاعد من المنازل والشوارع، والمدينة قاطبة، يمكن للحرارة، أن تعود، ولكنها لن تسود، والسماء كانت منفتحة أكثر، وعملية التنفس تصبح أكثر سهولة، وخلف كثافة أشعة الشمس، اختلاجات نسيم ، ينذر بشتاءات الخريف، والعودة إلى المدارس. «الصيف طويل للغاية»، هذا ما تقوله الجدّة، التي تستقبل بتنهيدة ارتياح، ذلك المطر الخريفي، وكذلك رحيل جاك، الذي كانت مراوحته الملولة في نهارات القيظ الطويلة، داخل الغرف المغلقة تزيد من عصبيتها.

وهي لا تفهم من جهة أخرى، أنَّ هناك فترة من السنة، قد خصصت كي لا يتم العمل خلالها. - «أنا لم يكن لدي إجازة أبداً». وهي محقّة، فهي لم تعرف المدرسة، ولا أوقات الفراغ،

لقد عَمِلَتْ عندما كانت طفلة، وظلت تعمل بلا توقف، وقد تقبّلت من أجل مكسب عظيم، مؤجل ألاَّ يعمل حفيدها خلال سنوات قادمة، ولكن ما أن يبدأ اليوم الأول في الإجازة، حتى تبدأ بالتحسر على الأشهر الثلاثة الضائعة، وعندما وصل جاك إلى سنته الثالثة في الثانوية، رأى أنَّ الوقت قد أزفَّ من أجل إيجاد عمل له خلال الإجازة الصيفية.

- «سوف تعمل هذا الصيف، وتجلب قليلاً من المال للعائلة، لا يمكنك البقاء هكذا ، دون أن تفعل شيئاً».

وفي الحقيقة، فإنَّ جاك، كان يجد أن لديه الكثير من الأمور التي عليه أني قوم بها مابين السباحة، ورحلاته إلى القبّة والرياضة والنزهات في شوارع بلكور، وقراءة المجلات المصوّرة، والروايات الشعبية، وتقويم فرمو[1] والفهرس الطويل لمصنع سان إيتيان للسلاح دون ذكر رحلات التسوق للمنزل، والأعمال الصغيرة التي تكلفه جدته بها، ولكن كل ماتمَّ ذكرُهُ بالنسبة لها، هو بالضبط، لا فائدة منه، بما أنَّ الطفل لا يجلب النقود إلى العائلة، ولا يعمل مثلما كان يفعل خلال السنة

[1] تقويم فرمو: أسسه جوزيف فرمو عام 1886، وهو تقــويم يــومين تحتوي كل صفحة منه على معلومــات عمليــة ، وفكاهــات... الــخ «المترجم».

الدراسية، وهذا الوضع المجّاني يجعلها تستشيط غضباً، والحل الوحيد ، إذاً، هو إيجاد عمل ما له. وفي الحقيقة مسألة إيجاد عمل ليس أمراً هيّناً، فهناك بالتأكيد، عروض عمل في إعلانات الجرائد، ولكنَّها تطلب مستخدمين، وسُعاة، وقد عرضت عليها مدام «برتو» (صاحبة دكان بيع القشطة الذي تفوح منه رائحة الزبدة غير المألوفة بالنسبة لأنوفهم، ولأصحاب البيوت المعتادة على رائحة الزيت، والتي يقع دكّانها إلى جانب صالون الحلاقة)، عرضت عليها مجموعة من الإعلانات، ولكنَّ أرباب العمل، كانوا يشترطون دائماً أن يكون سن المرشحين للوظيفة هو "خمس عشرة سنة" على الأقل. وكان من الصعب اللجوء إلى الكذب، دون الوقوع في السفاهة، فيما يخصّ سن جاك، الذي كان لا يحقق ذلك، وهو في سن الثالثة عشرة، ومن جهة ثانية، فإنَّ أصحاب الإعلانات يحلمون دائماً بموظفين يعملون لديهم على الدوام.

وأول أصحاب الإعلانات، الذين قابلتهم الجدّة (التي ارتدت ثياب الخروج المعتادة، بما فيها الوشاح ذائع الصيت)، وجدوا أنَّ جاك كان صغير السن كثيراً، أو أنهم رفضوا استخدامه لشهرين.

- «لم يبق إلاَّ أن تقول إنَّك ستبقى عندهم». قالت الجدة..
- «لا ، ليس ذلك صحيحاً.».
- «لا عليك، سوف يصدقونك».

ليس ذلك ما أراد جاك قوله، ففي الحقيقة، لم يكن قلقاً من معرفة أنَّه سيكون فجّاً، أو لا، ولكن كان يبدو له أنَّ هذا النوع من الكذب لن يستطيع أن يقترفه، لقد كان يكذب بالتأكيد داخل العائلة، كي ينجو من العقاب، ومن أجل الاحتفاظ بقطعة نقود، وغالباً ماكان يكذب من أجل متعة الكلام، والتبجح، ولكن إن كان الكذب يبدو له عرضياً في العائلة، فهو يبدو مميتاً مع الأغراب. كان يشعر بصورة غامضة، أنه لا يجب الكذب في الأمور الأساية، مع أولئك الذين نحبهم، بسبب أنَّه لا يمكننا أن نستمر في الحياة معهم، ولا أن نحبهم بالنتيجة. وأرباب العمل لا يمكنهم أن يعرفوا عنه ، إلاَّ ما يقال لهم، وهم لن يعرفوه إذاً، وفي هذه الحالة ، سيكون الكذب كاملاً، - «هيّا بنا». قالت الجدّة ذلك، وهي تربط وشاحها في ذلك اليوم، الذي أعلمتها فيه مدام «برتو» أنَّ محلاً ضخماً لبيع الخرداوات هو متجر الآغا، ويطلب مستخدماً شاباً من أجل الترتيب. كان المتجر يقع في أحد المنحدرات التي تقود إلى أحياء مركز المدينة. وكانت شمس منتصف حزيران تضرب المنحدر، وتخرج منه روائح الزفت والبول. في الطابق الأرضي، كان يوجد مخزن ضيق ، لكنه عميق جداً، تقسمه طاولة طويلة إلى نصفين وتغطي الطاولة قطع من الحديد، وسقّاطات ،

وكان القسم الأكبر من الجدران ، مجهزاً بجوارير تحمل بطاقات تعريف غريبة.

وعلى يمين المدخل، كان يعلو الطاولة قفص حديدي، تقع فيه كوّة الصندوق، والسيدة الحالمة، والذابلة، التي كانت وراء الشبك، دعت الجدّة للصعود إلى المكاتب الموجودة في الطابق الأول.

وكان هناك دَرَجٌ خشبي يقود إلى مكتب واسع، كان يتجه جهة المتجر، وفيه خمسة أو ستة موظفين، من الرجال والنساء، كانوا يجلسون جميعاً، حول طاولة مركزية كبيرة، وكان يوجد باب في إحدى الجهات ، يقود إلى مكتب الإدارة.

كان رب العمل يرتدي أكماماً، وياقة قميصه مفتوحة، داخل مكتبه الذي ترتفع فيه درجة الحرارة، وكانت تقع خلف ظهره، نافذة تطل على باحة لا تدخل إليها الشمس، رغم أنَّ الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر، كان قصير القامة، وسميناً، وقد أدخل إبهاميه في حمالات السروال الواسعة، ذات اللون الأزرق الفاتح، وكان يصعب عليه التنفس، ولم يميّزا جيداً وجهه، وجاءهما صوت خافت، ومقطوع الأنفاس، يدعو الجدّة للجلوس، وكان جاك يشمّ رائحة الحديد، التي تفوح في كل أرجاء المتجر.

وكان جمود رب العمل، هو جمود الحَذَرِ ، وأحسّ أنَّ قدميه ترتجفان، لفكرة الكذب، الذي ينبغي أن يقوله أمام هذا الرجل القوي، ومرهوب الجانب. أما الجدّة فلم تكن ترتجف.
جاك سيبلغ سن الخامسة عشرة، وعليه أن يجد مكاناً لنفسه، وأن يبدأ دون تأخير، أما بالنسبة لصاحب المتجر، فلا يبدو أنَّ جاك يبلغ الخامسة عشرة، ولكن إن كان ذكياً... و... بالمناسبة، هل لديه شهاداته الدراسية؟!..

- «لا لديه منحة».
- «أيّة منحة».
- «منحة لأجل الدراسة الثانوية».
- «هو في الثانوية إذاً؟!.. وفي أي صف؟! ».
- «الثالث.».
- «وهل ترك الثانوية؟!».

وكان رب العمل، أكثر جموداً، ويُرى وجهه بوضوح الآن، وعيناه المدورتان تجولان مابين الجدّة والطفل، وعلى وقع تلك النظرة، كان جاك يرتعد..
قالت الجدّة: - «نعم، نحن فقراء للغاية».
وبدت علامات الارتياح بصورة خفيّة على رب العمل:
- «خسارة، لأنّهُ موهوب، ولكن يمكن له الحصول على مركز مهم في التجارة أيضاً..».

- «المركز المهم يبدأ بشكل متواضع، هذا صحيح، وسيكسب جاك /150/ فرنكاً شهرياً بحضوره، 8 ساعات يومياً، يمكنه أن يبدأ عمله غداً»...

- «هل رأيت ذلك، لقد صدّقنا». قالت الجدّة.

- «ولكن عندما أرحل، كيف سأشرح الأمر؟».

- «دعني أفعل ذلك».

- «حسناً..». أجاب الطفل مستسلماً...

كان ينظر إلى السماء الصيفية، فوق رأسيهما، ويفكر برائحة الحديد في المكتب المُعْتِم وأن عليه الاستيقاظ مبكراً في الغد، وأنَّهُ ما أن بدأت العطلة حتى انتهت...

وعمل جاك، على مدى عامين، خلال الصيف، في محلات الخردوات، أولاً، ثم لدى وسيط بحري، وفي كل مرة، كان ينظر بعين الريبة إلى تاريخ /15 أيلول/ وهو تاريخ تركه للعمل.

لقد انتهت في الواقع، على الرغم من أنَّ الصيف هو ذات الصيف، في السابق بحرارته، وملله، ولكنه فقد ما كان عليه سابقاً السماء، والاتساع والصخب، وجاك لم يَعُدْ يمضي نهاراته في حي البؤس الموحش، ولكنه يمضيها في حي ضمن مركز المدينة، حيث الإسمنت الوافر حلَّ مكان الملاط الفقير، معطياً للمنازل لوناً رمادياً أشدَّ تميزاً وحزناً..

ومنذ الساعة الثامنة صباحاً في اللحظة التي يدخل فيها جاك إلى المتجر، الذي تفوح منه رائحة الحديد والعتمة ينطفئ النور داخله، وتختفي السماء، يحيي موظفة الصندوق، ويصعد إلى المكتب الواسع سيئ الإنارة في الطابق الأول، ولم يكن له متسع على الطاولة المركزية، كان هناك المحاسب العجوز، ذو الشارب الذي اصفرَّ بفعل السجائر، التي يلفّها بيديه، ويعبّ منها طوال النهار، وكذلك مساعد المحاسب، وهو رجل يبلغُ الثلاثين من العمر، ونصف أصلع، وله جذع ، ووجه يشابه الثيران، ويوجد مستخدمان فتيّان، أحدهما نحيف وأسمر اللون ومفتول العضلات، وكان يصل دوماً بقامته المستقيمة الجميلة، وقميصه مبلل، وملتصق بجسده ، تفوح منه رائحة البحر، لأنَّهُ كان يذهب للسباحة على رصيف الميناء، قبل أن يدفن نفسه في المكتب طوال النهار، أما الآخر فهو ضخم الجسم، وضاحك السّن، لا يستطيع لَجْمَ حيويته الصبيانية، وأخيراً مدام راسلان السكرتيرة الإدارية، ويه بمظهرها تُشبه الفرس، ولكنها جميلة المنظر، بما فيه الكفاية، بفساتينها الكتّانية أو القطنية ذات اللون الزهري دوماً، لكنها كانت تجيل الطَرْفَ على الجميع بنظرة قاسية. وكان هؤلاء جميعاً ، يزدحمون على الطاولة بملفاتهم ودفاتر حساباتهم وأدواتهم. فجلس جاك إذاً على كرسي وُضع على يمين باب المدير منتظراً أن يُكلّف بعمل

ما ينجزه، وفي الغالب، كانت مهمته هي تصنيف الفواتير، والبريد التجاري، في علبة بطاقات تؤطر النافذة، وكان يحبّ أن يُخرج منها أ ولاً مصنفات السحاب التي يلمسها ثم يشمّها بحيث أن رائحة الورق والصمغ اللذيذة في البداية تصبح بالنسبة له هي رائحة السأم والملل نفسه، أو يطلب إليه أن يدقق من جديد في عملية جمع طويلة، ويفعل ذلك على ركبتيه، وهو جالس على كرسيه، أو أن يدعوه مساعد المحاسب أيضاً إلى موازنة مجموعة من الأرقام معه فينتصب واقفاً دوماً، ويبدأ بوضع نقاط على الأرقام بكثير من الاجتهاد، والآخر يبدأ بذكر الأرقام بصوت كئيب ومكتوم حتى لا يزعج زملاءه.

ومن النافذة، كان يمكن رؤية الشارع والمباني المواجهة، ولكن لا يمكن رؤية السماء أبداً، وفي بعض الأحيان، ولكن ليس دوماً، كان يُرسل جاك للتبضع لإحضار مواد مكتبية من محل بيع القرطاسية، الذي يقع قرب المتجر، أو أن يُرسِلَ في البريد وكالة عاجلة. وكان مبنى البريد الكبير يقع على بعد مئتي متر في شارع رئيسي يصعد من الميناء إلى قمة الهضبات حيث تقوم المدينة عليها، وهناك يلاقي جاك الاتساع والضوء.

ومبنى البريد نفسه، موجود داخل مبنى دائري رحب تضيئه ثلاثة أبواب وقُبةٌ واسعة ينساب منها الضوء، ولكن للأسف، غالباً ما يُكلّف جاك بإرسال البريد في نهاية النهار، أثناء انصرافه من

الوظيفة، وكان ذلك يُعدُّ سخرة إضافية، إذ ينبغي له أن يركض في الساعة التي يميل فيها النهار إلى الشحوب، نحو البريد الذي غزاه جمهور من الزبائن وكان عليه أن يلتزم بالدور أمام الكوّة، وكان الانتظار في الدور يطيل فترة عمله.

وعملياً، فإنَّ الصيف الطويل يُستهلك بالنسبة لجاك، في نهارات معتمة، ومملّة، وفي أعمال لا طائل منها، كانت جدته تقول:

- «لا يستطيع المرء أن يظلّ بلا شيء يعمله»... بالضبط، ففي هذا المكتب، كان انطباع جاك أنَّه لا يفعل شيئاً. لم يكن يرفض العمل رغم أنَّه لا شيء، يمكن أن يحل مكان البحر، وألعاب القبّة بالنسبة له، وكان العمل الحقيقي بنظره، هنو ورشة صناعة البراميل مثلاً، إنَّهُ جهدٌ عضليٌّ، وسلسلة من الحركات الماهرة، والدقيقة، وأيادٍ قاسية، ولكن رشيقة الحركة، ويرى المرء نتيجة جهوده: برميل جديد، مكتمل الصنع، لا شقوق فيه، ولا يمكن للعامل أن يتأمل فيه.

ولكن العمل في هذا المكتب، لا يمكن تأمله، ولا يفضي إلى شيء. البيع والشراء، وكل شيء يدور حول هاتين المسألتين التافهتين اللتين لا قيمة لهما. وعلى الرغم من أنَّه عاش حتى اللحظة حياة البؤس، فقد اكتشف جاك في هذا المكتب السوقية والفظاظة، وكان يبكي النور الذي اضاعه، ولم يكن زملاؤه مسؤولين عن تلك الأحاسيس الخانقة، لقد كانوا

لطيفين معه، ولا يطلبون منه شيئاً بخشونة حتى مدام راسلان القاسية، كانت تبتسم له في بعض الأحيان، وفيما بينهم يندر الكلام، ويكون كلاماً ودياً صبيانياً، ويغلب عليه عدم الاكتراث، وهي صفة تميّز الجزائريين.

عندما يصل المدير بعدهم بربع ساعة، أو عندما يخرج من مكتبه، ليعطي أمراً، أو ليدقق فاتورة(فيما يخصّ القضايا الهامّة، كان يستدعي المحاسب العجوز، أو الموظف المعني إلى مكتبه)، حينها كان يمكن اكتشاف الطبائع الشخصية اكتشافاً أمثلاً..

وكأنَّه لا يمكن أن يُعرف هؤلاء الرجال، وتلك المرأة إلاَّ من خلال علاقتهم بالسُلطة، فالمحاسب العجوز كان فظاً، ومستقلاً برأيه، ومدام راسلان تائهة في أحلامها القاسية، وكان مساعد المحاسب على العكس حقيراً للغاية.

ولكن خلال بقية النهار، كانوا يدخلون إلى قوقعتهم ، وكان جاك يلبث على كرسيه ينتظر أمراً ما، قد تمنحه له الفرصة في تحرّك ساخر تطلق عليه جدته صفة العمل.

وعندما لا يطبق الأمر ، وهو يغلي غلياناً على كرسيه، كان ينزل إلى الباحة، خلف المتجر، ويذهب إلى المرحاض، ويختلي بنفسه، مابين الجدران الإسمنتية المضاءة بالكاد، حيث ت فوح رائحة البول الواخزة، وفي هذا المكان المُعْتِم ، يغمض عينيه،

ويستنشق الرائحة المألوفة ويحلم. ويضطرب في كيانه شيء ما غامض، وأعمى، يخص الجنس، ويستعيد أحياناً منظر ساقي مدام راسلان، ذلك اليوم، حين أوقع علبة الدبابيس أمامها، ونزل جاثياً على ركبتيه لالتقاطها، وحين رفع رأسه، رأى ركبتيها المفتوحتين تحت تنورتها، وفخذيها في لباس داخلي من الدانتيلا. وماكان قد رأى تلك اللحظة ما ترتديه المرأة تحت تنورتها، وذلك المنظر المفاجئ، جعله يشعر بجفاف في الحلق، وملأ كيانه برجفة مباغتة مجنونة، وانكشف سرٌّ أمامه وهو الذي رغم تجاربه المتلاحقة، لم يستنفذ طاقته أبداً في اكتشافه.

عند الظهيرة، وفي السادسة، بواقع مرتين في اليوم، كان جاك يسرع خارجاً، وينزل الدرج بسرعة إلى الشارع المنحدر، ويقفز إلى الحافلة التي تعجّ بالناس، وتزدحم بالمسافرين الذين يقفون حتى عند الأبواب في الخارج ، وتوصلهم إلى أحيائهم، لقد كانوا صامتين، وهم مرصوصون بعضهم إلى بعض في الجو المثقل بالحرارة، وهم عائدون الكبار والصغار إلى بيوتهم التي تنتظرهم، وتنضح أجسادهم عرقاً، مستسلمين لهذه الحياة التي يتقاسمها العمل الذي لا روح فيه، والذهاب والإياب في الحافلات غير المريحة حيث يستيقظون من لحظة نعاس داعبت جفونهم.

وكان جاك يشعر بالضيق حين يراهم في بعض الأمسيات، وهو لم يكن يعرف حتى تلك اللحظة ، إلاَّ غنى ومتع البؤس والفقر، ولكن شدة الحرارة والملل والتعب كشفت له عن اللعنة ، لعنة العمل الأحمق، حدّ البكاء، ورتابته اللامتناهية التي تؤدي إلى جعل الأيام طويلة للغاية، وتجعل الحياة قصيرة للغاية على حد سواء.

أما عندما عَمِلَ لدى الوسيط البحري، فقد كان الصيف أكثر متعةً، لأنَّ المكاتب كانت تُشرِفُ على شارع فرون دومير وخاصة لأن جزءاً من العمل كان يجري في الميناء..

كان ينبغي أن يصعد جاك إلى السفن من كافة الجنسيات، والتي كانت ترسو في الجزائر، وكانت مهمة الوسيط، وهو عجوز جميل، متورد الوجه، ذو شعر أجعد، وهي تمثيل تلك السفن لدى مختلف الإدارات. وكان جاك يأخذ وثائق السفينة إلى المكتب حيث تُترجم وبعد أسبوع، كان يكلف هو بالذات بترجمة قوائم المؤن وبعض بوالص الشحن، عندما تكون مكتوبة باللغة الإنكليزية، وموجهة إلى السُلطات الجمركية، أو إلى كبرى مؤسسات الاستيراد التي ستستقبل البضائع.

كان على جاك أن يتوجه بانتظام إلى مرفأ الآغا التجاري، ليُحضر هذه الوثائق. كانت الحرارة تثقل كاهل الشوارع، التي تنحدر نحو الميناء، ودرابزين الفونت الثقيلة التي تحدّها ،

كانت حارقة، بحيث لا يمكن وضع اليد عليها، وعلى الأرصفة البحرية الواسعة، كانت الشمس، وقد فرّقت الناس عدا أولئك الذين كانوا حول المراكب التي رست للتو، فقد حاذت الرصيف، وحولها يموج عمال التحميل والتنزيل. الذين يرتدون سراويل زرقاء مشمرة عن الساق، بجذوعهم العارية، والبرونزية، وعلى الرأس يحملون كيساً ، يغطي أكتافهم حتى أسفل الظهر، وعليه يحملون أكياس الإسمنت، والفحم، أو الطرود التي فيها نتوءات حادة. كانوا يروحون جيئة وذهاباً على الممر الذي ينزل من الجسر على الرصيف، أو يدخلون مباشرة إلى جوف سفينة الشحن عبر باب العنبر المفتوح على وسعه، يمشون على رافدة خشبية سميكة ، وضعت مابين العنبر والرصيف، ومابين رائحة الشمس والغبار الذي يتصاعد من الأرصفة أو رائحة الجسور الساخنة التي ذاب قطرانها، وكانت زخارفها الحديدية حارقة، كان جاك يعرف الرائحة المميزة لكل سفينة شحن.

إذ إنَّ السفن القادمة من النرويج، لها رائحة الخشب، وتلك القادمة من داكار، أو السفن البرازيلية لها رائحة البن، والبهارات، والألمانية رائحة الزيوت، والإنكليزية رائحة الحديد. وكان جاك يصعد على طول الممر، ويبرز إلى أحد البحارة الذي

لا يفهم قصده بطاقة الوسيط. ثم يقوده عبر ممرات حيث ترتفع الحرارة، حتى في الظلّ إلى حجرة ضابط أو أحياناً قبطان.

ولدى مروره كان ينظر بنهم إلى الحجرات الصغيرة، والضيقة، والعارية، حيث تتركز الأشياء الأساسية لحياة الإنسان، والتي بدأ يفضّلها على أفخم الغرف الفارهة، كان جاك يستقبل بكياسة ولطف لأنه هو نفسه، كان يبتسم بلطف، ويحب وجوه الرجال الخشنين، ونظرة الحياة المنعزلة التي يتمتعون بها جميعاً، ويظهرونها للآخرين.

وفي بعض الأحيان، حين يتحدث أحدهم اللغة الفرنسية قليلاً، يحاول أن يستفهم منه ، ثم يغادر سعيداً نحو الرصيف الملتهب، والدرابزين الحامي، وإلى العمل في المكتب، وبكل بساطة، فإنَّ هذا الجري تحت الحرارة كان يتعبه، وكان ينام بعمق شديد، وفي شهر أيلول، يصبح نحيلاً وعصبياً.

وكان ينظر بعين الرضى إلى الأيام ذات الاثنتي عشرة ساعة في الثانوية، في الوقت الذي ينمو في داخله انزعاج ، لأنَّ عليه أن يعلن في المكتب، أنه سيترك العمل في وظيفته.

ولكن الأمر الأشدّ قسوة ، هو ترك العلم في محل الخرداوات، كان يمكن له تفضيل عدم الذهاب إلى المكتب بكل جبن، وأن تتولى الجدّة الذهاب إلى هناك، كي تشرح أي عذر ممكن، ولكنّ الجدة كانت ترى أنه يمكن تبسيط كل

الشكليات ، وماكان يهمها هو قبض الراتب ، وعدم العودة إلى هناك، دون أي شرح..

وجاك الذي وجد أنه من الطبيعي إرسال جدته حتى تتلقى هي سورة غضب رب العمل، بمعنى أنَّها كانت المسؤولة عن هذا الموقف، والكذب الذي استجرته، كان غاضباً دون أن يتمكن من شرح الاسباب، إزاء التهرب من الموقف ، فضلاً عن أنه وجد الحجة المقنعة، ولكن رب العمل سيرسل أحداً ما إلى هنا..

- «هذا صحيح،». قالت الجدة، - «ماعليك إلاَّ أن تقول له إنَّكَ ستعمل عند خالك».

وغادر جاك متوجس القلب، عندما قالت له الجدّة:

- «خذ أجرك أولاً، وحدّثه بالموضوع لاحقاً».

وجاءت فترة المساء، فقام رب العمل باستدعاء كل عامل إلى عرينه من أجل تسليمه راتبه.

- «خذ يا صغيري، ». قال ذلك، وهو يمدّ يده بالمظروف. ومدَّ جاك يده بحركة مترددة، عندما ابتسم له قائلاً:

- «الأمور تسير على ما يرام، أنت تعرف، تستطيع أن تقول ذلك لأهلك». وتكلّم جاك شارحاً أنه لن يعود إلى العمل، ونظر إليه رب العمل مذهولاً، ويده لا تزال ممدودة نحوه..

- «لماذا؟!».

كان عليه أن يكذب، لكن الكذبة لم تخرج من فمه، وظلّ جاك صامتاً، بهيئة متضايقة، جعلت رب العمل يفهم الوضع..

- «ستعود إلى الثانوية أليس كذلك؟!».
- «نعم». ردَّ جاك..

وفي خضّم خوفه، وضيقه، اجتاحت نفسه راحة مفاجئة، واغرورقت عيناه بالدموع.

ونهض رب العمل غاضباً..

- «وكنت تعرف ذلك عندما جئت إلى هنا، وجدتك تعرف ذلك أيضاً».

وأجاب جاك بنعم، بهزة من رأسه، كانت قرقعة صوته تملأ الحجرة الآن، لقد كانوا غشاشين، وهو يكره الغش، هل كان يعلم أنَّ له الحق ألاَّ يدفع له، سيكون موقفاً غبياً، لا سوف لن يدفع له إلاَّ إذا جاءت جدّته سوف تستقبل بحفاوة لو قالوا له الحقيقة منذ البداية، لكان قد قام بتوظيفه، ولكن آه من الكذب...

وخطرت على باله عبارة - «لن يذهب إلى الثانوية، ونحن فقراء للغاية.»

- «من أجل هذا...» قال جاك، فجأة، وهو في حالة من الضياع..
- «ماذا من أجل هذا؟!»..

- «لأنّنا فقراء، » ثم صمت، وأضاف الآخر الذي نظر إليه، وقال بهدوء:

- «إنكم رويتم لي تلك القصة؟!»

كان جاك يكزّ على أسنانه، وينظر إلى قدميه، وران صمت طويل، ثم تناول رب العمل الظرف عن الطاولة، ومدّ يده قائلاً:

- «خذ نقودك وارحل..»..

أجاب جاك بفظاظة:

- «لا..»

فما كان من رب العمل إلاّ أن حشا الظرف في جيبه قائلاً:

- «ارحل»، ويركض جاك باكياً، ويداه تمسكان بياقة سترته، حتى لا يلمس النقود التي تحرق جيبه..

أن يكذب من أجل ألاّ يكون له الحق في إجازة الصيف، وأن يعمل بعيداً عن الشمس والبحر، الذي يحبه كثيراً، وأن يكذب كذلك من أ جل أن يكون له الحق في العودة إلى الثانوية، هذا الظلم كان يدمي قلبه حتى الموت.

لم يكن أسوأ ما في الأمر هي هذه الأكاذيب، التي لم يكن قادراً على التلفظ بها، وهو الجاهز دائماً للكذب من أجل المتعة، وغير قادر على الكذب من أجل الحاجة؟!!!... بل أسوأ مافيها هي لحظات المتعة الضائعة والاستراحة الصيفية والضياء الذي كان مفتوناً به، وأصبحت أيام السنة بالنسبة له هي

سلسلة من عمليات الاستيقاظ المستعجل، والأيام الكئيبة المتسارعة.

وماكان باذخاً في حياته، كإنسان فقير، هي تلك الثروات التي لا يمكن تعويضها، والتي يستمتع بها حتى الثمالة بشراهة، لا مثيل لها، ينبغي فقدها من أجل حفنة من النقود، لا تشتري واحد من المليون، من هذه الكنوز، ومع ذلك، فقد فَهِمَ أنَّهُ يجب أن يفعل ذلك، وأنَّ شيئاً ما داخله، في لحظة تمرّده الكبير يُشْعِرَهُ أنَّه فخورٌ بذلك، لأنَّ التعويض الوحيد عن أيام الصيف التي ضحّى بها، على مذبح البؤس، والكذب، كان ذلك اليوم حين ا ستلم أول راتب له، ودخل إلى غرفة الطعام حيث وجد جدته تقشر البطاطا، وترميها في قِدْرٍ مليء بالماء، وكان الخال إرنست جالساً وبين ساقيه الكلب بريان الصابر أثناء تنظيفه من البراغيث ، وأمّه التي وصلت لتوها من العمل، وتفك حزمة صغيرة من الثياب التي كُلّفت بغسلها ، كانت تقف في زاوية قرب الخزانة.

وذلك اليوم تقدّم جاك ووضع على الطاولة، ورقة نقدية من فئة المئة فرنك، وقطعاً نقدية معدنية كبيرة، كان يمسك بها بيديه، أثناء عودته من العمل. ودون أن تنطق بكلمة، دفعت الجدّة نحوه بعشرين فرنكاً، وأخذت ما تبقى من المبلغ، ولمست

بيدها خاصرة كاترين كورمري، حتى تجذب انتباهها، وتريها النقود: - «هذا من ابنك..»..

- «نعم » وداعبت بعينيها الحزينتين طفلها للحظة فقط، وهزَّ الخال رأسه ممسكاً ببريان، الذي ظنَّ أنَّ عذابه قد انتهى، وهو يقول:

- «حسناً، حسناً، أنت رجل»

نعم، إنَّه رجل، فهو يدفع قليلاً مما يدين به، وفِكرة أنَّه قَلّلَ ولو بصورة ضئيلة من بؤس هذا المنزل، ملأته بفخر مشوب بالمكر، وهي الأفكار التي تخطر ببال الرجال ، عندما يتذوقون طعم الحرية، وعدم الخضوع لأيّ كان..

وفي الحقيقة، فإنَّه لدى عودته التالية إلى الدراسة، ولدى دخوله إلى الباحة في الثانوية، لم يَعُدْ ذلك الطفل التائه، الذي ترك منذ أربع سنوات خلت حي بلكور في ذلك الصباح، وهو يترنح منعلاً حذاءه المليء بالمسامير، ومنقبض القلب إزاء عالم مجهور ينظره، لقد فقدت نظراته التي يلقيها إلى رفاقه قليلاً من براءتها..

وكثيرة هي الأشياء التي بدأت في هذه اللحظة تقتلعه من ذلك الطفل الذي كان عليه، هو الذي كان حتى ذلك اليوم يتقبل بأنّاة وصبر، أن يُضرَب على يد جدته، كما لو أنَّ ذلك كان جزءاً من واجبات ، لا يمكن تجاوزها، بالنسبة له كطفل، في أحد الأيام، انتزع السوط من بين يديها بغتةً حين اجتاحته موجة

غضب، وعنف، وقرر أن يضرب ذلك الرأس الأشيب ذا العينين الفاتحتين، والنظرات الباردة، هذه الفكرة جعلته يخرج عن طوره، وفهمت جدته ذلك فتراجعت، وانسحبت إلى غرفتها، وأقفلت الباب على نفسها، وهي تشكو دون ريبة من أنَّها قد ربّت أولاداً عاقين، ولكنها اقتنعت أنها لن تضرب جاك بعد ذلك أبداً، لأنَّ الطفل كان قد مات في الواقع ضمن مراهقة في جسد نحيل، وعضلات بارزة، وشعر أشعث، ونظرة غاضبة ، لقد عمل كل الصيف، حتى يأتي براتب إلى المنزل، وقد سُمّي حارساً لمرمى فريق الثانوية، ومنذ ثلاثة أيام، خلت كان قد تذوق للمرة الأولى، وبصورة فاشلة قبلة من فم إحدى الفتيات.

العتمة في الذات

آه!.. نعم، لقد كانت كذلك حياة هذا الطفل، كانت كذلك.. لقد كانت الحياة كذلك في جزيرة الفقر والحي، حياة مرتبطة بالعَوَزْ الفاضح كلياً كذلك في جزيرة الفقر في الحي، حياة مرتبطة بالعَوَزْ الفاضح كلّياً وسط عائلة معاقة وجاهلة وهو بدمِهِ الفتي المتوثب، وشهيته المفتوحة للحياة، وفطنته الجشعة والنَهِمَة، وعلى مدى الأيام كان يعتريه هذيان بمتعة تقطعها منغصات من عالم مجهول، مما يجعله مرتبكاً، لكنّه يعود بسرعة إلى نفسه، باحثاً عن الفهم والمعرفة ومستوعباً.

هذا العام الذي لم يكن يعرفه، ويَهْضِمُه ، لأنَّهُ كان يتعامل معه باندفاع، دون أن يحاول تجنبه، وبطيبة نفس دون خِسّة، ودون أن ينقصه يقين بالثقة في النفس، نعم لأنها تكفل أنه سيصل إلى كل ما يريد، ولا شيء مستحيل في هذا العالم، وفي هذه الدنيا فقط، يجهّز نفسه (وهو جاهز أيضاً بطفولته العارية)، للوصول إلى مكانة في أيّة بقعة من العالم، لأنَّه لم يكن يرغب بأي مكان، ولكنه يرغب بالفرح، وبالكائنات الحرّة والقوة وكل مافي هذه الحياة من أشياء جيدة وغامضة، لا تُشترى ولن تشترى أبداً.. وكان يهيئ نفسه من فرط الفقر،

ليكون قادراً يوماً ما أن يتلقى المال دون أن يطلبه مطلقاً، ودون أن يخضع له، كما هو حاله اليوم، هو جاك البالغ من العمر أربعين عاماً، والذي يسيطر على أمور كثيرة، والمتيقن أنه ليس أقل الناس بساطة، ولكنه لا يساوي شيئاً أمام أمه، نعم، لقد كان يعيش هكذا في ألعاب البحر والهواء والشارع، تحت ثقل الصيف والأمطار الغزيرة في الشتاءات القصيرة، دون أبٍ ودون تراث موروث ، لكنه وجد أباً خلال سنة ، وتماماً في اللحظة المناسبة، وسار إلى الأمام، وانفتحت له أبواب المعرفة، حتى يصنع شيئاً ما يشبه السلوك (وكان كافياً في تلك اللحظة للظروف المتاحة له، وغير كاف فيما بعد أمام سرطان العالم)، وكي يخلق لنفسه تراثه الخاص به.

ولكن هل كان ذلك كل شيء؟!.. تلك الحركات والألعاب والجسارة والحماسة والعائلة والمصباح البترولي والدرج المعتم وسعف النخيل في الهواء، الولادة والعِماد في البحر، وحتى تنتهي أيام الصيف المعتمة والمتعبة تلك؟!

نعم، كان ذلك موجوداً، ولكن هناك أيضاً، الجانب المظلم من الإنسان، فما في نفسه خلال كل تلك السنين، كان قد تحرّكَ على نحو مبهم، مثل تلك المياه العميقة الموجودة تحت الأرض، ومن عمق المتاهات الصخرية، والتي لم ترَ النور مطلقاً، لكنها عكست خيطاً مضيئاً مبهماً لا يُعرف مصدره، ومن مركز

الأرض المتوهج، وعبر أوعية شعرية حجرية ، يتوق إلى الهواء الأسود لتلك الأوكار الغائرة، والتي تتغذى فيها النباتات اللزجة، حتى تعيش هناك حيث تبدو فيها الحياة مستحيلة، وهذه الحركة العمياء في داخله والتي لم تتوقف مطلقاً ويعيشها اليوم أيضاً، مثل نيران مدفونة في كيانه، تشبه نيران الثُرَبْ[1] الخامدة على سطحها، ولكن جذوتها تظلّ في الداخل وهي تغيّر مواضع شقوق الترب السطحية ودوامات النباتات الضخمة، بحيث يكون للسطح الموحل حركات الترب البحرية، وذاتها، وتلك التموجات السميكة وغير المحسوسة كانت تَخلق في داخله يوماً بعد يوم، أعنف رغباته وأشدها ضراوة مثل حالات قلقه الخاوية، وحنينه الخصب، ومتطلباته المفاجئة للُعري والزهد، وتَوْقَهُ إلى ألاّ يصبح شيئاً ما أيضاً، نعم، هذه الحركة الغامضة عبر كل السنين، كانت تتوافق في هذا البلد الواسع حوله، حيث كان يشعر ، وهو الطفل، بالعناء والمشقة، على امتداد البحر الواسع أمامه، وخلفه تلك المساحة اللا متناهية من الجبال والهضاب والصحراء، والتي تدعى الداخل، وبينهما الخطر الدائم الذي لا يتحدث عنه أي شخص ، لأنَّهُ يبدو أمراً طبيعياً، ولكن جاك كان يلمحه عندما كانت الخالة تمرّ في

---

[1] ثُرَب: مادة إسفنجية تتشكل من تحلل النباتات.

فترة غياب الشمس على الغرف في مزرعة بير مراد رايس[1] الصغيرة، وتتأكد من إحكام إغلاق الأقفال الكبيرة، على الأبواب الخشنة، الثقيلة والسميكة، إنه بلد يشعر فيه بالضبط، أنَّه منبوذ كما لو أنَّهُ أول ساكن أو أول فاتح..

نزل إليه حيث لازال يسود قانون القوة، وحيث صُنِعَت العدالة من أجل معاقبته، مالم تلحظه الأخلاق، وبقسوة وحوله هذا الشعب الذي يلفت الانتباه، ولكنه يثير القلق، القريب، ولكنه منفصل عنه، ويختلط به على مدى الأيام، وفي بعض الأحيان، تُخلق الصداقات، أو العلاقات الرفاقية، ولكن عندما يأتي المساء، ينسحب هؤلاء إلى بيوتهم المجهولة، حيث لا يمكن الوصول إليها، أبداً، ويتمترسون فيها مع نسائهم اللواتي لا يتمكن المرء من رؤيتهن أبداً، أو يمكن رؤيتهن في الطريق، ولكن لا يمكن التعرّف إليهن بالنقاب الذي يغطي نصف الوجه، وأعينهن الجميلة الشهوانية العذبة، فوق القماش الأبيض. وكان هؤلاء كثيرو العدد في الأحياء التي يتركزون فيها، كانوا كثيرين لدرجة أن عددهم وحده رغم خضوعهم وتعبهم يشكل تهديداً خفياً، يمكن للمرء أن يشعر به حين يتنسم الهواء في الشوارع

[1] Birmandreis : بير مراد رايس هي مدينة تابعة لولاية الجزائر، وتسمى أيضاً «بئر مراد ريس».

في بعض الأمسيات، حين تندلع مشاجرة بين فرنسي وعربي، بالطريقة نفسها التي يمكن أن تحدث بين اثنين من الفرنسيين، واثنين من العرب، ولكن لا ينظر إليها بالطريقة نفسها، فالعرب سكان الحي، الذين يرتدون لباساً أزرقَ شديد السخونة، وباهت اللون، أو يرتدون جلابيباً بائسة، كانوا يقتربون بهدوء، قادمين من كل الجهات، وبحركة مستمرة، لدرجة أن الجمع الذي التأم بصورة مضطردة، يقذف بكثافته، ودون عنف، بعض الفرنسيين، الذين يجذبهم بعض الشهود على المشاجرة، وأن الفرنسي الذي يقاتل يتراجع إلى الوراء ، ويجد نفسه بغتةً أمام خصمه، وأمام جمهرة من الوجوه الكالحة والمقطبة التي يمكن أن تُذْهب شجاعته كلّها، بالضبط في حال أنَّه لم يترعرع في هذا البلد ، ولا يعرف أنَّ الشجاعة وحدها كانت تسمح له أن يعيش فيه.

وهو يقف أمام هذا الجمهور، إذاً، جمهور مُهَدِدٌ، ولكنه لا يهدد بأي شيء إلاَّ بمجرد وجوده، وبالحركة ا لتي لا يمكنه أن يمتنع عنها، لقدكان هذا الجمهور، من كان يمسك العربي الذي يتشاجر بحميّة ونشوة، من أجل تهريبه، قبل وصول الجواسيس الذين يصلون بعد أن يصلهم الخبر سريعاً، فيحملون المتقاتلين، والمارّة دون جدال، وتساء معاملتهم، حيث يمرون تحت نافذة جاك ذاهبين إلى قسم الشرطة، «مساكين» تقول

والدته ذلك، بعد رؤية الرجلين اللذين قد كوّرا قبضتيهما بقوة، وقد دُفعا من أكتافهما وبعد رحيلهم يحوم التهديد والعنف والخوف في الطريق بالنسبة للطفل إذ يجف حلقه من قلق مبهم.

هذا الليل في داخله ، نعم، هذه الجذور الغامضة المتشابكة التي تربطه بهذه الأرض الرائعة والمخيفة، وبتلك الأيام الحارة، مثلما تربطه بلياليه السريعة، التي يضيق صدره منها، والتي كانت مثل حياة أخرى، ربما أكثر واقعية في ظل المظاهر اليومية لحياة أولى شكّلها التاريخ على هيئة سلسلة من الرغبات الغامضة، والأحاسيس العارمة التي يصعب وصفها، رائحة المدرسة، واصطبلات الحي، ورائحة الغسيل الذي يفوح من يدي والدته، والياسمين وزهر العسل في الأحياء العليا ورائحة صفحات القاموس، والكتب التي كان يلتهمها والرائحة الحادة لمرحاض منزله، أو مرحاض متجر الخرداوات، ورائحة قاعات الصفوف الكبيرة الباردة ، حيث كان يحصل له أن يدخل قبل أو بعد بدء الدرس، وحرارة رفاقه المفضلين، ورائحة الصوف الحار، ورائحة الغائط التي يسببها ديدييه، أو رائحة ماء الكولونيا الذي تطيب به والدة ماركوني ابنها، والتي تجذب جاك من مقعد صفه وتجعله يقترب أكثر من صديقه ورائحة قلم أحمر الشفاه الذي أخذه بيير من إحدى عمّاته، والذي قاموا باستنشاق رائحته مرات عديدة، يعتريهم الاضطراب والقلق مثل

كلاب دخلت إلى منزل مرّت به كلبة مُطَاردةْ، وهم يتخيلون أ نَّ المرأة هي كتلة عذبة من عطر البرغموت [1] والكريما حيث، في عالمهم العنيف، عالم الصراخ والتعرّق والغبار، كان يحمل لهم ذلك العطر شيئاً من عالم مرهف ورقيق وإغراءً يعجز اللسان عن وصفه، حتى إنَّ الكلمات الوقحة التي يطلقونها في الوقت نفسه، وهم متحلقون حول قلم أحمر الشفاه، لم يستطيعوا منعها. وكذلك حب الجسد، منذ نعومة أظفاره، وجمال الأجساد ، كان يجعله مبتسماً لشدة سعادته حين يراها على الشواطئ إنَّ حرارة تلك الأجساد كانت تجذبه إليها بلا توقف، دون فكرة دقيقة عنها، ولكن بصورة حيوانية، ليس من أجل أن يمتلكها، وهو مالا يعرفه ولكن ببساطة حتى يدخل في حيز إشعاعها. والاستناد إلى أحد الرفاق ظهراً إلى ظهر،مع ذلك الشعور بالاسترخاء والثقة وحالة تشبه الإغماء إلى حدّ ما عندما تلامس يد امرأة يده في زحمة التراماوي للحظة طويلة، والرغبة أجل، الرغبة في العيش، والعيش أيضاً، والاختلاط بأكثر ما في الأرض حرارة، بذلك الذي دون أن يعرفه، كان ينتظره من أمه، وما كان ليحصل عليه، أو ربما كان لا يجرؤ أن يحصل

[1] برغموت: فاكهة حمضية تشبه الكمثرى، تنمو على شجر الكمثـــرى، والبرغموت ه و هجين بين ليمون الكمثرى، والكريفون.

عليه، وهو ذلك الذي وجده بالقرب من الكلب بريان ، عندما كان يتمدد عليه في الشمس، ويشمّ رائحة شعره القوية، أو ما كان يجده في الروائح القوية البهيمية حيث الحرارة الرهيبة للحياة، كانت موجودة بالنسبة له، بالرغم من كل شيء، ولم يكن يستطيع الاستغناء عنها.

في تلك العتمة داخل كيانه، وُلد ذلك الاندفاع المتعطش وجنون الحياة، الذي سكنه على الدوام، وحتى هذا اليوم، كان يحافظ على كيانه سليماً، ويزيد ببساطة شعوره بالمرارة المرعبة والمفاجئة، وسط عائلة ، عاد إليها، وأمام صور طفولته، مرارة أن زمن الصبا، كان يهرب من يديه، مثل تلك المرأة التي أحبها، نعم، لقد أحبَّها حبَّاً من كل قلبه، وجسده، أيضاً، نعم تلك الرغبة كانت في أوجها معها، فعندما كان ينسحب منها مع صرخة كبرى مكتومة ، لحظة النشوة، كان العالم يعود إلى وضعه الحار، وهو قد أحبّها بسبب جمالها وجنونها بالحياة وكرمها ويأسها مثلما كانت عليه الحال بالنسبة له، وهي الحال التي جعلتها ترفض أن الزمن ينفذ رغم علمها، أنه ينفذ منها حتى في هذه اللحظة، ولا تريد أن يُقال لها يوماً ما إنها مازالت شابة، لكنها تريد فعلاً أن تظلَّ شابة، وعلى العكس دائمة الشباب. وقد بكت بحسرة ذات يوم، حين قال لها إن الشباب قد مضى، وإنَّ الأيام تمضي، فقالت والدموع تملأ

عينيها: «لا.... لا... أنا أعشق الحب»... وكانت ذكية، وراقية، ترفض العالم كما هو عليه..

كما في يوم من الأيام، حين ذهبت لتقيم فترة وجيزة في البلد الغريب، الذي ولدت فيه، وتلك الزيارات الجنائزية، والخالات، كان يقال لها أثناءها.. : «هذه هي المرة الأخيرة التي ترينهن فيها...» لقد كُنَّ في الواقع بقايا بشرية بوجوههن، وأجسادهن، حينها كانت تودّ الهروب، وهي تصرخ.. وتتذكر أيضاً وجبات العشاء العائلية، حول غطاء الطاولة الذي طرزته إحدى أمهات جدّاتها التي ماتت منذ زمن بعيد، والتي لم يعد أحد يتذكرها ، عداها هي، فقد كانت تفكر بأم جدتها، بمسّراتها، وشهيتها المفتوحة للحياة، وكانت مثلها هي بغاية الجمال، في ريعان الصبا، وكان الجميع يكيلون لها المديح، حول هذه الطاولة التي تتوسط جدراناً مليئة بصور نساء شابات جميلات ، كُنَّ هنَّ أنفسهن اللواتي يَكِلْنَ المديح لها، واللواتي أصبحت عاجزات، ومنهكات، حينها كان الدم يغلي في عروقها، وتريد الفرار، والهروب، إلى بلدٍ حيث لا أحد يكبر ويهرم فيه أو يموت، وحيث يظل الجمال نضراً دائماً، وتكون الحياة فيه برّية وصاخبة ، وهو بلد غير موجود، كانت تبكي بين ذراعيه لدى عودتها، وهو كان يحبها بشدّة..

وهو أيضاً، حالته ربما كانت أكثر من حالتها، على اعتبار أنه ولد على أرض لا ماضٍ له فيها، دون أجداد، ودون ذاكرة، وزوال أولئك الذين سبقوه كان كُلّياً حيث أن الشيخوخة لا تَجِدُ أي مساندة أو عزاء، من الكآبة التي تظلل عليها في بلد الحضارة، هو مثل شفرة وحيدة ومهتزة على الدوام، مصيرها هو الكسر، وللأبد، إنَّهُ الشغف الخالص للحياة يقابله موت كلّي، إنَّه يشعر اليوم أنَّ الحياة والصبا والكائنات تفلت من بين أصابعه دون أن يستطيع لها شيئاً، وهو متروك فقط للأمل الأعمى الذي جعلته تلك القوة العاتمة، وخلال سنوات مضت يرقى فوق الأيام، ويكبر بإفراط، تلك القوة، التي كانت تواجه أقسى الظروف، وكانت تعطيه أيضاً، بسخاء لا يكلّ أسباباً لكي يعيش، وأسباباً لكي يَهْرَم، ويموت دون أن يتمرد



رسالتان

19 تشرين الثاني 1957

عزيزي السيد جيرمان:

لقد تركتُ الضجة تخبو حولي قليلاً، كل هذه الأيام حتى أحدثك من صميم القلب. لقد كُرّمت تكريماً مفرطاً ما بحثت عنه، ولا طلبته. ولكن حين بلغني النبأ كان تفكيري الأول هو بكَ بعد أمي، دونك أنت ، ودون تلك اليد الحانية التي مددتها للولد الصغير الفقير الذي كُنْتُهُ ودون تعليمك، والقدوة التي تمثلها لي، ماكان ليحصل كل ذلك..

ولما كُرّمْتُ ، ولكن هذه فرصة لأقول لك ما عَنَيْتَهُ، وما تَعْنِيه دوماً بالنسبة لي، ولأؤكد لك، أن جهودك وعملك وقلبك الطيب، الذي تضعه فيهما يبقيان دوماً في ذاكرة أحد تلاميذك الصغار الذي رغم تقدمه في العمر، لا ينسى أنه تلميذك الممتن لك، أقبلك من كل قلبي

ألبير كامو

❖❖❖

الجزائر 30 نيسان 1959

عزيزي الصغير:

لقد تلقيت كتاب «كامو» الذي بعثته لي، والذي أراد أن يهديه إليَّ كاتبه السيد جان كلود بريزفيل.[لخ]

لا يمكنني أن أعبر عن مدى السعادة التي جعلتني أشعر بها بحركتك الرقيقة، ولا عن الطريقة التي يمكنني أن أشكرك بها، ولو تمكنت من ذلك لضممت بقوة الولد الكبير الذي أصبحت عليه، والذي سيبقى دوماً بالنسبة لي: «صغيري كامو»

لم يتسنَّ لي قراءة العمل كاملاً إلاَّ صفحاته الأولى..

من هو كامو؟!. أعتقد أن أولئك الذين يحاولون النفاذ إلى شخصيتك، لن يتمكنوا من ذلك تماماً. فلقد أظهرت دوماً حياءً فطرياً يصعب معه الكشف عن طبيعتك، ومشاعرك، وقد استطعت بذلك بفضل بساطتك واستقامتك وفضلاً عن ذلك، تلك الانطباعات التي تركتها لدي في قاعة الصف.

إنَّ المربي الذي يقوم بعمله بفطنة لا يدع فرصة للتعرّف فيها على طلاّبه وأطفاله، فهو يستحضرهم في فكره بلا توقف، فالجواب والحركة، والموقف كل ذلك له مغزىً، أعتقد أني أعرف جيداً الرجل الصغير اللطيف الذي كنت عليه، والطفل الذي حمل في غالب الأحيان، برعم الرجل الذي سيصير إليه،

[1] الكتاب المعنون «كامو» هو مقال عن الإنتاج الأدبي، حول الكاتب ألبير كامو، كتبه جان كلود بريزفيل، ونشر قبل موت كامو.

سروركَ لأنك في الصف، كان في كل زاوية ، ووجهك يمتلئ تفاؤلاً ، ومن أجل دراسة وضعك، أنا لم أشكك أبداً بوضع عائلتك الحقيقي، فلم يكن لدي إلاَّ خلاصة مقتضبة حين جاءت والدتك لتراني فيما يخص موضوع تسجيلك، في لائحة المرشحين للمنحة ، ومن جهة ثانية ، فقد حصل ذلك في الوقت الذي كنت على وشك أن تتركني. ولكن حتى تلك اللحظة كنت تبدو لي في مثل وضع رفاقك، فلقد كان لديك كل مايلزمك، مثل أخيك، وكنت ترتدي ملابس بطريقة أنيقة، أعتقد أنني لا يمكن أن أثني أكثر على والدتك.

وحتى نعود إلى كتاب السيد بريزفيل فهو يحوي دراسة معمقة عنك، وكان لدي انطباع كبير، بأني ومن خلال الصورة، قد عرفت أبيك المسكين، الذي كنت أعتبره دائماً «رفيقي»..

وقد أراد السيد بريزفيل أن يشير إليَّ، وأنا أشكره على ذلك..

لقد شاهدت القائمة التي تكبر على الدوام، والتي تضمُّ المؤلفات الأدبية التي كُرّست لك، أو التي تتحدث عنك، وبالنسبة لي، فإني راضٍ جداً ، أن شهرتك (وهي حقيقة ناصعة) لم تأخذ بك ، فقد بقيت «كامو» : مرحى لك..

لقد تابعت باهتمام التغيّرات العديدة في المسرحية التي اقتبستها وألّفتها أيضاً : «الممسوسين» فأنا أحبك لدرجة أنني لا أتمنى نجاحاً كبيراً لها ، ذلك النجاح الذي تستحقه أنت..

مالرو[1] يريد أن يعطيك مسرحاً وأعتقد أنك تتوق إلى ذلك... ولكن هل باستطاعتك أن تسير إلى نهاية الدرب وأن تتحمل مشقات كل تلك النشاطات؟!.. أنا أخشى أن تخونك قواك، واسمح لصديقك القديم أن يبدي ملاحظاته، أنت لديك زوجة لطيفة، وطفلان يحتاجونك كزوج وأب، وفي هذا المجال ، سأقصّ عليك ماكان يقوله أحياناً مديرنا في المدرسة الطبيعية. لقد كان شديد القسوة علينا، مما كان يمنعنا من رؤية حبه الحقيقي وشعورنا به. كان يقول: «تمسك الطبيعة كتاباً كبيراً تسجل فيه بعناية كل الانحرافات السلوكية التي ترتكبونها»، وأعترف أنَّ هذا الرأي الحكيم قد رَدَعَنِي مرات عديدة، عندما كنت على وشك النسيان. إذاً، حاول أن تحافظ على صفحتك المخصصة لك بيضاء في كتاب الطبيعة الكبير.

تُذكّرني أندريه أننا شاهدناك وسمعناك في برنامج أدبي على التلفاز، في حلقة مكرّسة لِمسرحية «الممسوسين». لقد كان أمراً مؤثراً أن أراك تجيب على الأسئلة المطروحة.

ولم أستطع منع نفسي من إبداء ملاحظة ماكرة، وهي أنك لم تكن تشك بأنني سأراك وسأسمعك، لقد عوّض ذلك عن

---

[1] أدنريه مالرو: الكاتب الذي أصبح وزيراً للثقافة لدى عودة الجنـــرال ديغول.

غيابك الطويل قليلاً عن الجزائر، فنحن لم نرك منذ زمن بعيد، عزيزي الصغير لا أريد أن أطيل عليك، وآخذ من وقتك وأرجو أن تعذرني..

كل شيء على ما يرام عندنا، صهري كريستيان سيبدأ شهره السابع والعشرين في الخدمة يوم غدٍ. ..

اعلم أنّي وإن لم أكتب فأنا أفكر غالباً فيك..

مدام جيرمان، وأنا نرسل لكم قبلاتنا ، أنتم الأربعة.

صداقتنا بكم

جيرمان لويس

أتتذكر الزيارة التي قُمْتَ بها، مع رفاقك المشاركين في المناولة مثلك، لقد كنتَ سعيداً، بصورة جلية، وفخوراً بزيّك الذي ترتديه، وبالعيد الذي كنت تحتفي به، لقد كنتَ سعيداً لسعادتك، بصدق، وخمنت أنك إن احتفلت بالمناولة، فإنَّ ذلك قد يعجبك أليس كذلك؟!..

إذاً.....